النابغة الذبياني

تأليف

عمر الدسوقي

الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الثانية — ١٩٥١

الناشر دار الفكر العربي

مطبعة لجنة البيان العربي ، شارع مصطفى باشا كامل بالظاهر

النابغة الذبياني

هدية إلى الأستاذ الفاضل
جمال الدين ... راجيا
١٩٥٢/٢/٢

تأليف

عمر الدسوقي

الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الثانية — ١٩٥١

الناشر

دار الفكر العربي

مطبعة لجنة البيان العربي ، شارع مصطفى باشا كامل بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

و به نستعين

مقدمة الطبعة الأولى

ثارت منذ مدة معركة أدبية حول الشعر الجاهلي ابتدئت بالشك في هذا الشعر وتزييف كثير منه، وتصدى لمن شك فيه بعض الكتاب، يقرعون الحجة بالحجة والدليل بمثله، وهدأت المعركة قليلا، واطلع الناس من هذه المناقشات الأدبية على وجهات نظر مختلفة عادت على الأدب والمتأدبين بفوائد جمة.

ثم أثيرت المعركة مرة أخرى بدعوى أن هذا الشعر قد جنى جناية كبيرة على الأدب العربي، وألبسه ثوباً خاصاً، ولوناً معيناً، وأن الأولى أن يوضع هذا الشعر في المتاحف يطلع عليه من يهوى القديم ويحن إليه، ومن يريد التزود من تراث السلف أو يضطره البحث العلمي والأدبي إلى قراءته، أما أن يظل هذا الشعر يلح على عقول أبنائنا في عصرنا هذا، فمعنى ذلك الاستمرار في الطريق التي رسمها للأدب، والتي سار عليها أدباء العربية منذ ذلك العصر حتى اليوم.

وقد قام بعض الأدباء يفند هذا الرأي ويدحضه، ويدافع عن الشعر الجاهلي، ولكن المعركة لم تسفر عن شيء، فقد ظل الشعر الجاهلي حيث هو، وظل الطلبة في معاهد العلم المختلفة يقرءونه ويحفظون بعض نصوصه، وإن كان بعض الأدباء لا يزال يدعو إلى قصره على المتخصصين في الأدب، والشغوفين بالأبحاث اللغوية.

وقد تتبعت هذه المعارك منذ نشأتها، وإن كنت لم أخض فيها مع الخائضين، ثم

أتيحت لى فرصة تدريس الأدب الجاهلى بكلية دار العلوم فوضعت نصب عينى منذ اللحظة الأولى أن أتعرف وجه الصواب ، وأصل إلى الحقيقة فى شأن هذا الشعر الجاهلى ، وإلى أى حد أصاب من شك فيه ، ثم أرى قيمة هذا الشعر ، وهل هو نتاج عصر غبر ، وحياة بعيدة عنا كل البعد ، وليس فيه من الصور الفنية والخيال الأدبى ، ما يدعونا إلى التمسك به والعكوف عليه ، أو أن هذا تجن لا موضع له ، وأن فى هذا الشعر أيات فنية رائعة ، ولكن لم يتح للناس أن يعرفوها على حقيقتها ، إذ لم تعرض عرضاً جديداً شائقاً يُجلِّى مواضع الجمال والفن فيها ؟!

وقد تكشفت لى الحقيقة العارية بعد الدرس الطويل ، ورأيت أن خير معرض يتبلج فيه وجه الحق فى هذه القضايا هو دراسة شاعر جاهلى من شعراء الطبقة الأولى أجعل حياته وشعره موضوعاً لبسط الرأى الذى وقفت عليه ، وإن كان كل شاعر له ظروف خاصة به ، بيد أن هناك عوامل مشتركة تجمع بين الشعراء الذين نشئوا فى بيئة واحدة وعصر واحد .

وقد وقع اختيارى على النابغة الذبيانى ليكون موضع هذه الدراسة ؛ لأنه أحد ثلاثة أجمع النقاد قديماً وحديثاً على عدهم شعراء الطبقة الأولى فى العصر الجاهلى ، وهم امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، واختلفوا فى أى الثلاثة أحق بالسبق . وقد سعد زميلاه ولا سيما امرؤ القيس بأبحاث شتى فى القديم والحديث ، وإن لم تبلغ بعد الدرجة التى نصبو إليها ، أما النابغة فلا أعرف باحثاً خصه بالدرس المستفيض ، ووضع شعره فى ميزان النقد الحديث ، وعرض فنه عرضاً يليق بمكانته الأدبية وبشهرته فى عالم الشعر .

وآثرت النابغة بالدرس لسبب آخر ، وهو أن شعره يعطينا صورة واضحة عن مهمة الشاعر الجاهلى وأثره فى بيئته وأثر بيئته فيه ، فقد كان النابغة شاعر القبيلة يشعر بالتبعة الملقاة على عاتقه ، وتنتظر منه القبيلة القيام بواجبه إزاءها . ثم إنه اتصل بالحضارات القريبة منه ، وتجلى أثر هذا الاتصال فى شعره ، فاتسع أفقه ، وتنوع خياله

وهو بهذا يعطينا فكرة صالحة عن العقلية الجاهلية فى أعلى صورها . زد على ذلك أن النابغة نهج فى الشعر منهجاً تبعه فيه من أتى بعده من الشعراء حتى اليوم . فهو ذو أثر قوى فى الشعر العربى ، فإن كان ثمة جناية على الأدب العربى فهى جنايته ، ولست هنا فى مقام الإفاضة فى هذا الأثر الذى تركه النابغة فى أدبنا فلذلك موضعه من الكتاب . ولكن النابغة بسلوكه هذا النهج دفعنى إلى دراسته حتى أتعرف على أثر الشعر الجاهلى فى الأدب العربى ممثلا فيه .

وقد ابتدأت بحثى بتمهيد تاريخى بسطت فيه تاريخ اللغة العربية وتطورها حتى وصلت إلى عصر النابغة ، وكيف اتصلت هذه اللغة بالحضارة ، واتسعت مادتها ، وطرق التعبير فيها ، وتوحدت لهجاتها . ثم تكلمت على بيئة النابغة ؛ فالقبيلة — وهى وحدة المجتمع فى البادية — كان لها أثر كبير فى الشاعر ، والأغراض التى تناولها فى شعره ، كما كان للصحراء أثر واضح فى خياله وتفكيره وطباعه ولغته ؛ وكذلك كان للحروب التى شهدها ، والحياة التى عاشها فى ظل ملوك الحيرة والغساسنة .

ثم تكلمت عن ديوانه ، والجهود التى بذلت فى تحقيقه ، ومعرفة الصحيح والمنحول من شعره ، وفضل المستشرقين فى ذلك .

أما حياة الشاعر ، وخلقه ودينه وفنه فقد جعلت شعره المصدر الأول الذى أستقى منه مادة بحثى على قلة ما وصل إلينا منه ؛ لأنه أصدق محدث عن ذلك ، ولا سيما والشاعر الجاهلى كان صادق الحديث عن نفسه ، وعن بيئته .

وقد حاولت جهدى أن أعرض الصور الفنية الجميلة لدى النابغة فى معرض شائق ، ولا سيما تلك التى تمت إلى عنصر إنسانى عام ، يعجب بها كل من يطلع عليها ، وقد أردت بذلك أن أجذب القارىء إلى الاطلاع على الشعر الجاهلى ؛ لأن به مادة شهية ، وفناً جميلا لا يصح أن يحرمهما .

ولما كانت لغة الشعر الجاهلى تحتوى على كثير من الغريب ، مما يجعل التمتع به

ليس ميسوراً إلا على من يقف على معانى ألفاظه ؛ إذ قد بعد العهد بيننا وبين العصر الجاهلى وعادت الألفاظ المألوفة لدى عرب الجاهلية غريبة لدينا ، فقد عنيت بشرح الأبيات التى سقتها فى مجال الاستشهاد .

هذا وإن من عوامل النهضة الأدبية التى يجب أن نوليها اهتماماً زائداً ، عرض التراث الأدبى القديم فى ثوب جديد يلفت إليه الأنظار ، ويحبب فيه جمهرة القراء ، حتى لا يزهدوا فى القديم فلا يكون لهم جديد . فالأمة التى لا تعنى بماضيها وقديمها ، لا يكون لجديدها أساس متين يرتكز عليه وسرعان ما ينهار .

وقد بذلت بعض المحاولات فى عرض صور من الشعر الجاهلى فى شكل طلى شائق ، من مثل ما فعله الدكتور طه حسين باشا فى (حديث الأربعاء) ، ولكنها صور محدودة ، وبطريقة صحفية ليس فيها كثير من التحقيق العلمى ، وإن بلغت الغاية التى كتبت من أجلها .

ولا أدعى أن كتابى هذا برىء من النقص ، ولكننى بذلت جهدى فى أن أساهم فى إحياء التراث الأدبى القديم ، وأن أعرض شاعراً جاهلياً من الصف الأول عرضاً جديداً متوخياً التحقيق العلمى على قدر المستطاع . ولعلى أكون قد وفقت فيما قصدت إليه ، على الرغم من الصعوبات الجمة التى يجدها الباحث فى الشعر الجاهلى ، والمسائل الشائكة التى عليه أن يعالجها ، والله الموفق للصواب . م

عمر الدسوقى

القاهرة { ربيع الأول ١٣٦٨
يناير ١٩٤٩

تمهيـــد تاريخى

— ١ —

الأمة العربية :

يعرف العصر الذى عاش فيه النابغة الذبيانى بالعصر الجاهلى ، وهو اسم أطلق فى الإسلام(١) على تاريخ الأمة العربية قبل بعثة الرسول عليه السلام .

وتاريخ عرب الجزيرة فى هذه الفترة غامض ، ولا سيما إذا حاولنا أن نكشف عن نشأة الأمة العربية ، وكيف صهرت فى أحقاب التاريخ السحيقة حتى بلغت هذا النضج العقلى واللغوى المتمثلين فيما خلفته من آثار أدبية شعراً ونثراً .

بيد أن ثمة فترة يسيرة من تاريخ هذه الأمة لا تزيد عن قرنين من الزمن قبل الإسلام ظهرت فيها إلى ضـوء التاريخ ، فاستطعنا أن نعرف شيئاً عن حياتها ومجتمعاتها وعاداتها وحروبها .

هذا وقد جلا الكشف عن بعض النقوش اليمنية شيئاً من تاريخ سكان الجزيرة القدماء الذين سكنوا اليمن حيناً من الدهر ، وكونوا بها دولا ذات حضارة من معينية وسبئية وحميرية(٢) . وإن كان العلماء لا يزالون عاكفين على دراسة هذه النقوش ولما يفرغوا منها ، ليقولوا كلمتهم الأخيرة فى تاريخ هذه الدول .

---

(١) راجع بلوغ الأرب للألوسى ج ١ ص ١٥ وما بعدها ففيه بحث واف عن كلمة (جاهلى)

(٢) يرجح (جلازر) Glaser أن أقدم النقوش التى اكتشفت يرجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وأن أحدثها يرجع إلى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد ، وأن النقوش المعينية هى أقدم النقوش وتليها السبئية ، ثم الحميرية .

ويرى (مولر) Muller أن السبئية والمعينية كانتا متعاصرتين ، وأن أقدم النقوش يرجع إلى ما بين سنة ٩٥٠ ، و ٨٠٠ قبل الميلاد .

ويتفق كلاهما على أن الدولة الحميرية غلبت السبئية وأسست سنة ١١٥ ق م .

راجع الجزء الثانى من .

Muller : Die Burgen und Schlosser Sudarb ens

وراجع — Glaser : Zwei luschriften uber den Dammbruch von Marib

ويقسم المؤرخون العرب عادة إلى : عرب بائدة ، وعاربة ، ومستعربة . أما العرب البائدة فهم الذين ورد ذكر بعضهم فى القرآن مثل عاد وثمود . وقد وجد بشمال الحجاز بالقرب من (تيماء) فى (العلا والحجر)[1] وغيرها بعض النقوش بالخط الثمودى ، ولكنها لا تلق ضوءاً كافياً على تاريخ هؤلاء القوم ، ولا نكاد نعرف عنهم على وجه اليقين إلا ما ذكره القرآن الكريم على سبيل العظة والاعتبار . ومن العرب البائدة طسم وجديس ، وقد رويت عنهما أساطير لا تصل إلى مرتبة التاريخ . ومنهم العمالقة ويقال : إنهم الهكسوس الذين غزوا مصر وأسسوا بها بعض الأسر الفرعونية ، وعليهم وفد إبراهيم عليه السلام ، ولهم استوزر يوسف الصديق[2] . ولكن أخبار هؤلاء لم تثبت على وجه اليقين ، وما هى إلا روايات تروى ، وقد يكون لها نصيب من الصحة .

أما العرب العاربة فينسبون إلى يعرب بن قحطان ، وهم سكان اليمن الذين كونوا الدول السالفة الذكر . وسموا بالعاربة لأنهم أصل الأمة العربية .

والمستعربة : هم سكان الشمال الذين وفدوا على الجزيرة من البلاد المجاورة واختلطوا بأهلها فتعربوا ، وينسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

وتنبئنا النقوش اليمنية التى اكتشفت : بأن لغة القحطانيين الأول تختلف اختلافاً محسوساً عن اللغة العربية كما رويت فى الشعر الجاهلى ، وكما نزل بها القرآن الكريم حتى قال أبو عمرو بن العلاء[3] : « ليست لغة حمير بلغتنا ، ولا عربيتهم بعربيتنا » وهنا لابد لنا من كلمة موجزة فى تاريخ اللغة العربية لنعرف كيف توحدت

---

(١) راجع الفصل الأول من بروكلمان فى كتابه :

Semitische Sprachwissenschaft

ويقول بروكلمان عند الكلام على اللغة الآرامية : إنه قد وجدت بعض الآثار فى شمال الحجاز منقوش عليها كتابة تختلف عن الآرامية . وهى بثلاثة خطوط : لحيانى وثمودى وصفوى وفيها تستعمل أداة التعريف (ها) بدل (أل) وليست لغتها مشابهة للغة العرب فى أدابهم المعروفة . وأبجديتها مأخوذة عن الفينيقى مباشرة .

(٢) يرى بعض المؤرخين المحدثين أن العمالقة أسسوا دولتين إحداهما بالعراق وهى دولة حامورابى والأخرى بمصر وهى الأسرة الثالثة عشرة ، وقد خرج إبراهيم (وكان على عهد حامورابى) قاصداً مصر حوالى سنة ١٨٢١ ق م .

(٣) أبو عمر بن العلاء بن عمار أحد القراء السبعة ، وأحد من أخذت عنهم اللغة توفى سنة ١٥٤ هـ

لهجاتها ، وامتزجت عناصرها المختلفة حتى وصلت إلينا كاملة الأداء متقنة التركيب على عهد النابغة الذبيانى ، ثم بلغت ذروتها فى القرآن الكريم .

— ٢ —

تاريخ اللغة العربية :

اللغة العربية هى إحدى اللغات السامية[1] ، ويرى علماء اللغات آراء شتى فى الموطن الأصلى للأمم السامية ، ولكن الرأى الراجح لديهم الآن هو أن جزيرة العرب كانت الموئل الأول لهذه الشعوب خرجت منها على موجات متتابعة فى أحقاب التاريخ ، وأنها كانت يوماً ما تتكلم لغة واحدة[2] .

وقد يعترض على هذا بأن من الصعب تحقيق الموطن الأول للأمم السامية فى عصر لم يلق عليه التاريخ أى ضوء ، ولكن إذا نظرنا إلى الشام والعراق فى العصور التاريخية وجدناهما هدفاً لهجرات متتابعة من الصحراء المجاورة لها . ولما كانت الحبشية تشترك مع مجموعة اللغات السامية فى خصائصها ، فيظن أن الجزيرة العربية كانت موطن الساميين قبل هجرتهم ، وأنهم نزحوا منها شمالا وجنوباً وغرباً إلى البلاد الخصبة القريبة منهم .

قد يقال : بأن اللغة لا تنتقل بالوراثة من جيل من الناس إلى جيل آخر فحسب ، ولكنها قد تفرض على شعوب أخرى ليست لها علاقة وراثية بالشعب الذى فرض لغته ، مثل ذلك اللغة اللاتينية فى القديم حيث فرضت على (السلت) ، والعربية بعد الفتح الإسلامى ، والإنجليزية فى العصور الحديثة .

---

(١) اللغات السامية هى : العربية ، والسريانية ، والفينيقية ، والآشورية ، والبابلية ، والآرامية والحبشية ، والمصرية القديمة على الأرجح ؛ وسميت سامية نسبة إلى سام بن نوح ، وهذه التسمية تبع فيها علماء اللغات تقسيم التوراة ، وإن كانوا يرون أنها لا تنطبق على التحقيق العلمى من حيث أصول الأجناس ولكنهم وجدوا أن هذه المجموعة من اللغات تشترك فى خصائص معينة ، من حيث تركيب الجملة ، والمفردات وطرق النحت واشتقاق الكلمات ، ورأوا كلمة (سامية) سهلة التداول فأقروا تقسيم التوراة هذا (وهذه الفقرة الموجود بها التقسيم فى الإصحاح العاشر من سفر التكوين) .

وراجع الفصل الأول من بروكلمان Semitische Sprachwissenschaft

(٢) راجع تاريخ اللغات السامية لإسرائيل ولفنسون ص ٤ — ٦

ومن المرجح أن البابلية فرضت على أهل العراق ، وأن العبرية والآرامية فرضتا على أهل الشام ، وأن الشعوب الأصلية التى كانت تقيم بتلك البلاد كانت تتكلم لغات أخرى .

ومهما يكن من أمر ؛ فإن الشعوب التى هاجرت من جزيرة العرب شمالا إلى العراق والشام ، وغرباً إلى مصر ، وجنوباً إلى الحبشة قد فرضت لغاتها على الشعوب التى وجدتها ثمة(١) .

ومما لا ريب فيه أن اللغات السامية فى هجرتها قد أخذت كثيراً من لغات الشعوب التى غزتها : فى مفرداتها ، وطريقة أدائها ، وآدابها ، وصفاتها الصوتية ، وبذلك تباينت ، وإن حافظت على كثير من المميزات العامة المشتركة .

أما العربية فعلى الرغم من أنها أحدث هذه اللغات نشأة وتاريخاً ، فإن علماء الساميات يرونها أوفى مرجع لدراساتهم ؛ لأنها لم تتعرض لما تعرضت له اللغات السامية الأخرى من الاختلاط ؛ لمنعة الجزيرة العربية واعتصام أهلها بصحرائهم فعزوا على الغزاة ، ولا سيما فى الوسط والغرب . وبهذا حافظت على كثير من خصائص اللغة الأولى التى كانت تتكلم بها الشعوب السامية قبل هجرتها(٢) .

وأما كيف نشأت اللغة العربية وتطورت حتى صارت إلى حالتها التى سجلها الشعر الجاهلى والقرآن الكريم ، فأغلب الظن أنها مرت فى ثلاث مراحل ، ولا نستطيع أن نجزم برأى قاطع فى هذا الموضوع إلا فى المرحلتين الأخيرتين .

١ — ففى المرحلة الأولى نرى قبائل من اليمن تحترف التجارة ، وتنقل السلع من الهند إلى مصر والشام عابرة جزيرة العرب من الجنوب إلى الشمال محاذية شاطئ البحر الأحمر ، مارة بالحجاز . وقد أقامت بعض هذه القبائل اليمنية بالحجاز مثل قبيلة (جرهم) ثم وفد(٣) إسماعيل وأمه هاجر المصرية وأقاما بمكة مع جرهم ، وتزوج إسماعيل منهم

---

(١) راجع الفصل الأول من بروكلمان وراجع كذلك تاريخ الموجات البشرية للأستاذ محب الدين الخطيب

(٢) راجع بروكلمان Sem. Spr. Ch. I

(٣) ويرى الأزرقى فى تاريخ مكة طبعة (وستينفيلد) ج ٢ ص ٢٤ أن جرهم وفدت على إسماعيل وأمه حين نبعت زمزم ، وكانوا فى طريقهم من الشام إلى اليمن فأقاموا معهما حيث الماء وفير .

وترعرع بنوه يأخذون من لغة أمهم القحطانية ، ولغة أبيهم العبرية [1] ، ولغة جدتهم المصرية ، وكانوا نواة العرب المستعربة وذلك فى نحو سنة ١٩٠٠ ق م .

وقد شك بعض مؤرخى الفرنجة [2] فى هذه القصة . وعدوها أسطورة لا تاريخاً دون أن يسوقوا دليلا واحداً يدحضها ، اللهم إلا الظن بأن العرب انتسبوا إلى اسماعيل حتى لا يكون لليهود المقيمين بين ظهرانيهم فخر عليهم بانتسابهم لأسحق ابن ابراهيم .

وهذا الشك لا يقوم على أساس ، فقد ثبت من النقوش التى كشفت فى أواخر القرن الماضى أن قبائل معينية عديدة قد هجرت ديارها ، وانتشرت فى الحجاز وشمال الجزيرة فى الألف الثانى قبل الميلاد وهى القبائل التى عرفت فى التوراة باسم (معونيم) كما ذكرت فى الكتابات المصرية القديمة باسم (معين مصران) ، وقد غزت بطون منهم جنوب فلسطين وكونت لها دولة فى منطقة غزة ، وحافظت على كيانها حتى عهد الاسكندر الأكبر [3] .

فهل ثمة ما يمنع أن تكون جرهم من تلك القبائل التى تركت اليمن واستطونت الحجاز حين رأت الماء وفيراً ، وسوف نرى أن قبيلة خزاعة اليمنية حين جاءت مكة عقب انهيار سد مأرب قد أجلت جرهم عنها .

أما أن العرب قد انتسبوا لإسماعيل حتى لا يفضلهم اليهود فهذا رأى عجيب ، لأن اسماعيل مذكور فى التوراة ، ومذكور أنه ذهب إلى مكة مع أمه هاجر ، والتوراة وإن لم تكن كتاباً تاريخيا فذكر اسماعيل بها يبطل هذا الرأى ؛ إذ يدل على أن اليهود

---

(١) المعروف أن إبراهيم عليه السلام هاجر من بلاد الكلدان فى عصر حامورابى ، وذهب إلى مصر وعاد منها ومعه هاجر زوجته الثانية ، وأقام بفلسطين حيث ولد له إسماعيل ، فإبراهيم كان يتكلم الكلدانية وإسماعيل بحكم نشأته بفلسطين كان يتكلم العبرية المزوجة بالمصرية لغة أمه مع شىء من الكلدانية لغة أبيه ، وربما كانت هذه اللغات متقاربة فى ذاك العهد إذ كانت حديثة الصلة بالأم السامية الأولى .

(٢) انظر Huart. Histoire des Arabes الفصل الثالث .

(٣) راجع تاريخ اللغات السامية لولفنسون ص ١٧٦ — ١٧٧ .
وراجع مقالة عن (أصل العرب) للدكتور جواد على بمجلة الرسالة ٩ / ١٢ / ١٩٤٥ .

يقرون بأبوته للعرب ، وأن العرب ليسوا فى حاجة إلى ادعاء أبوته حتى يفخروا على اليهود وهم به معترفون .

ثم إن من الثابت فى التاريخ إن هجرات اليمن من الجنوب إلى الشمال لم تنقطع ، وأن أهل اليمن كانوا واسطة التجارة بين الهند ومصر حتى حولت إلى طريق البحر الأحمر والقصير على يد البطالسة .

وقد قلد بعض(١) الباحثين المعاصرين هؤلاء الفرنجة فى شكهم هذا ، ورتبوا على إنكار قصة اسماعيل وابراهيم الشك فى الشعر الجاهلى الذى روى لشعراء يمنيين ؛ لأن التفاوت فى رأيهم عظيم بين لغة القحطانين ولغة العدنانيين كما رواها الشعر الجاهلى .

مع أن الاختلاف بين القحطانية والعدنانية أمر طبيعى ؛ لأن الزمن وللبيئة وللتطور اللغوى فى مدى هذه السنين الطويلة حكم لا يخفى على من يتحرى الحقيقة . ثم إن ثمة مرحلتين بعد ذلك قد مرت بهما اللغة العدنانية دعتا إلى هذا الاختلاف ، وسنذكرهما فيما بعد .

ولكن مما لا ريب فيه أن اللغة القحطانية أو لغة العرب العاربة أصل من أصول العدنانية . تدل على ذلك النقوش اليمنية التى درسها العلماء ، والتى نرى بين أيدينا منها مقداراً يكفى لهذا الحكم (٢) .

بل إن فى هذه النقوش عبارات تتفق مع العربية كلمات وتركيبا مثل « بورك وتبارك اسم الرحمن ذو بالسماء(٣) » ، ومثل « ونذرت للذى بالسماء نذراً لأنها أخطأت

---

(١) هو الدكتورطه حسين باشا فى كتابيه (فى الشعر الجاهلى) و (فى الأدب الجاهلى) ، وقد رد عليه أكثر من واحد من أجلة العلماء ، ومن أحسن الكتب التى رد بها على الدكتور كتاب (النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى) للأستاذ محمد الغمراوى .

(٢) راجع مجموعة النقوش الحميرية .

Chrestomathia Atabica MeridionaliS EPigraphica

للعالم الطلياني كونت روسينى Karolus Conti Rossini

وراجع المختصر فى علم اللغة العربية الجنوبية القديمة لأغناطوس جويدى — من مطبوعات كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٣٠ ، وراجع الموازنة بين النقوش الحميرية واللغة العربية للأستاذ محمد الغمراوى فى كتاب النقد التحليلى ص ١٨٥ وما بعدها .

(٣) كونت روسينى ص ٧٠ .

ببيته وحرمه ، ولأنها وطئت موطئاً غير طاهر[١] » ومثل « وإن بهما شعرت أو لم تشعر[١] » ومثل « وذبح لهذا الوثن ذبيحة صحيحة أنثى أو ذكراً[٢] » ولعلك تعجب من ذكر لفظ (الرحمن) فى النقوش الحميرية مع أنه لم يكن معروفاً لقريش حتى قال الكفار « وما الرحمن[٣] » ، ولعلك تعجب لهذه الكلمات الدينية الاصطلاحية مثل (غير طاهر) و (نذرت) و (تبارك وبورك) . وإن كنت أرجح أن هذه الكلمات نقشت فى عصور متأخرة ، ولعلها العصور التى تهودت فيها اليمن على عهد ذى نواس الحميرى .

وهناك مئات من الكلمات المشتركة بين اللغتين فى أقدم النقوش ، تجد بعضها مطابقاً فى رسمه ومعناه لما فى العربية مثل : أخ ، وأخت ، وركب ، ووثن ، وشبل ، وسبع ، وأسد ، وشهر ، وشيب ، وقلب ، وقيل ، وحادثة » وخليفة ، وغلام ، وثمن ، وترعة . وملك ، وفرس ، وإبل ، وحرة ، وخيل بمعنى القوة ، وخميس بمعنى الجيش ، وخريف بمعنى السنة ، وطيب ، ويبس ، وكنف ، ومنجاة ، ومقام بمعنى رئاسة ، ومقتوى بمعنى مساعد ، ونكاية بمعنى ظُلم ، ونعمة ، وعلىّ بمعنى رفع البناء ؛ وتجد فى بعضها تحريفاً يسيراً مثل عَدَوَ بمعنى اجتاز ، وكوَن بمعنى كان ، ومرآهم بمعنى أمرائهم ، وهقشب بمعنى نصب وشيد ، ومنه القشيب أى الجديد .

فهل بعد هذا يقال إن اللغة القحطانية ليست أصلا من أصول العربية العدنانية ؟ ثم من أثبت أن لغة العدنانيين أيام اتصالهم بجرهم هى لغة العدنانيين التى روى بها الشعر الجاهلى ، وبين اللغتين ما يزيد عن ألفين وأربعمائة سنة . تطورت فيهما اللغة تطوراً كبيراً حتى صارت إلى ما نعرف ؟ .

٢ — وأما المرحلة الثانية فتلك التى مرت بها اللغة العربية حين انهار سد مأرب باليمن سنة ١١٥ ق م تقريباً ، وأغرق البلاد وأتلف الزرع ، وهدد المساكن فهاجر

(١) كونت روسينى ص ٥٤

(٢) نفس المرجع ص ٤٤

(٣) « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ، قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا » سورة الفرقان الآية ٥٩ .

كثير من القبائل اليمنية إلى الشمال . وإلى هذا أشار القرآن الكريم بقوله : « لقَدْ كان لسبأ (١) في مسكنِهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربِّكم واشكروا لهُ بَلدةٌ طيبةٌ وربٌّ غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيلَ العَرم وبدلناهُمْ بجنتَيهم جنتَيْنِ ذواتَىْ أُكُل خَمْط وأثْل وشيء من سِدْرٍ قليل، ذلك جزيناهم بما كفروا وهلْ نُجازى إلا الكَفور » .

ومن القبائل التي هجرت اليمن فى ذياك الحين بنو ثعلبة بن عمرو ، وقد نزلوا المدينة ووجدوا بها بعض اليهود فاستوطنوها ، وغلبوا أهلها ، ومن بنى ثعلبة هؤلاء الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة .

ومن هذه القبائل خزاعة ، وقد جاوروا الحرم ، وأجلوا عنه سكانه من جرهم . وسار قوم من الأزد نحو عُمان واستوطنوها ، وسارت قبائل نصر بن الأزد نحو تهامة وهم أزد شنوءة .

وسار جفنة بن عمرو إلى الشام ، وأقام بها هو وبنوه ، وهو أبو الملوك الغساسنة نسبة إلى غسان ، وهو ماء كان بنو مازن من الأزد قد نزلوا به فنسبوا إليه . وممن ترك اليمن كهلان ، ثم من بنى أدَد بن زيد قبيلة لخم بن عدى ، ومعهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة .

ومنهم طيئ : ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين : (أجأ وسلمى) حين شاهدوا ما عليه المكان من خصب ، وهذان الجبلان فى الشمال الشرقى من المدينة ، ويخترقهما وادى الدهناء .

---

(١) كانت مأرب عاصمة مملكة سبأ ، وبتصدع السد انهارت دولة سبأ ، وتغلب الحميريون على ملك اليمن فى سنة ١١٥ ق م ، ولا تزال آثار السد باقية حتى اليوم . وكان الغرض من إقامته حفظ مياه الأمطار الغزيرة التى تسكثر فى الصيف لينتفع بها فى الزراعة والشرب بدل أن تذهب سدى إلى البحار المجاورة أو تتسرب إلى رمال الصحراء .

راجع « تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام » للأستاذ محمد مبروك نافع ص ٩٨ وما بعدها ففيه بحث واف عن السد .

ومنهم قبيلة كلب بن وَبْرَة من قضاعة أقامت ببادية السماوة ، وهي في الطرف الشمالي من نجد ، وتتصل بالعراق ، ويخترقها وادي الدهناء .

ومنهم لخم وجُذام . وقد سكنوا أطراف بادية الشام من الجنوب .

ومنهم قضاعة ، وقد أقامت في شمال الحجاز ، وفي جزء من سينا . إلى غير ذلك من القبائل التي تفرقت في شتى أنحاء الجزيرة العربية حتى ضرب بهم المثل فقيل : « تفرقوا أيدي سبا » .

فهذا الفيض من أبناء اليمن قد غمر بلاد العدنانين ، وقد انقسموا بطوناً وأفخاذاً وفصائل وعشائر وأسرا ، وتغلغلوا في القبائل العدنانية . ولا شك أنهم حملوا معهم لغتهم السبئية والحميرية ، وما فيها من كلمات جديدة على العرب العدنانيين ، إذ كان أكثرهم بدوا ، لم يألفوا معيشة الاستقرار ، وسكنى الدور والقصور ، ونظم الحكم ، وطرق الزراعة والصناعة ، كما كان حال أهل اليمن .

وكان لزاماً على هذه القبائل أن يتفاهم بعضها مع بعض ، وقد اختلطوا بالعدنانيين اختلاطاً شديداً : بالجوار والمصاهرة والحروب والتجارة والحج ، فأدى ذلك إلى تقارب اللغتين وتكوين لغة واحدة يفهمها الجميع ، وإن بقيت في لسان كل قبيلة عدنانية أو يمنية بعض الهنات التي عسر عليهم أن يتخلصوا منها ، وظل هذا التفاعل بين اليمنية والعدنانية يشتد ويقوى ، وتتطور اللغة وترقى مدى خمسة قرون حتى دخلت اللغة مرحلتها الثالثة .

(٣) وبهذا نرى بجانب هذه اللهجات القبليه التي تلهج بها كل قبيلة والتي لا يعرفهما على سائر القبائل ، لغة أخرى مثالية خالية من العيوب الشائعة في ألسنتها ، تلك هي لغة الشعر .

إن أقدم نص في الشعر الجاهلي لا يزيد عن قرنين من الزمن قبل الإسلام ، وكان من الطبيعي أن يكون للعرب لغة أدبية تعبر عن العواطف السامية ، وترتفع عن مستوى الكلام المألوف ، حين يريدون الإفصاح عن شعور غير عادي تختلج له أحساسيهم ، أو عن فكرة رفيعة في أذهانهم ؛ وقد اتخذت القبائل المتباينة هذه اللغة

المثالية أداة للتعبير عن شعورها وحكمها على الرغم من وجود فوارق يسيرة فى لهجاتها الخاصة .

وهذا أمر شائع فى كل الأمم المتبدية منها والمتحضرة . ففى (إنجلترا) اليوم عشرات اللهجات التى يشق على كثير من الإنجليز فهمها والإحاطة بها كلها ، بيد أن هناك لهجة واحدة ينطق بها الجميع حين يتقابلون أو حين يتعلمون أو يكتبون تلك هى اللهجة المعروفة باسم (Public School Dialect) وهى التى يدون بها الأدب ، وتسطر الصحف ، وتتكلم بها الطبقة الراقية من الناس تاركين ما فى ألسنتهم الأقليمية من هنات ، ولا عجب فاسمها (اللهجة التعليمية العامة) .

وها نحن أولاء بمصر نرى فروقاً غير يسيرة فى لهجات النطق بين أفراد الشعب من مناطق مختلفة ، فأهل شمال الدلتا مثلا يحذفون أواخر الكلمات ، ولهم كلمات اصطلاحية خاصة لبعض الأشياء ، وأهل القاهرة يسهلون (القاف) إلى همزة ، وأهل الصعيد يقلبون الهمزة عيناً أحياناً وهكذا ، ومع كل ذلك نرى الطبقة المتعلمة من كل أقليم تتناسى تلك الخصائص اللسانية وتحاول جهدها أن تتخذ لهجة القاهرة والمدن لها لساناً . وحين تحاول التعبير عن شعور سام أو فكرة أدبية تلجأ إلى اللغة الفصحى لغة المدرسة والكتاب والصحافة والأدب .

ولقد أنكر بعض الباحثين المعاصرين [1] وجود مثل هذه اللهجة الموحدة بين عرب الجاهلية ، وشك تبعاً لذلك فى الشعر الجاهلى ، ولا سيما ذلك الذى روى عن شعراء ينتسبون إلى قبائل يمنية مثل امرئ القيس .

وقد يكون الشك وسيلة صالحة من وسائل البحث إذا كان الغرض منه الوصول إلى الحقيقة ، أما أن يتخذ الشك وسيلة وغاية ، وأن يشك الباحث لمجرد الشك ، فذلك أمر لا تقره طرق البحث الحديثة .

وكيف ننكر وجود مثل هذه اللهجة الموحدة بين القبائل التى كانت تقيم فى وسط

(١) هو الدكتور طه حسين باشا فى كتابيه (فى الشعر الجاهلى) و (فى الأدب الجاهلى) .

الجزيرة وشمالها . وقد ثبت أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يعرض نفسه على القبائل المختلفة فى الأسواق والمواسم ويدعوها إلى دينه الجديد ، وقد سمع الأنصار دعوته — وهم من الأوس والخزرج اليمنيين — واستجابوا له ، وبهرتهم فصاحة القرآن فآمنوا به ؛ ثم وفدت عليه بالمدينة وفود القبائل من شتى أنحاء الجزيرة . فما وجدوا ولا وجد عسراً فى الحديث . ثم نراه يرسل رسله إلى القبائل تبصرهم بالدين الجديد وتهديهم إلى هديه من غير أن يجدوا مشقة فى تأدية رسالتهم، ولقد أرسل علياً ومعاذ ابن جبل إلى اليمن فما شكا رسولاه ولا شكا أهل اليمن عدم التفاهم ؛ وذلك لأن هذه اللهجة الموحدة انتشرت فى جميع أنحاء الجزيرة قبل الإسلام ،وصار يفهمها حتى أهل اليمن أنفسهم ؛ وذلك لتمام نضجها وكمالها وقدرتها الفائقة على التعبير وخلوها من النقائص القبلية ، ثم لقوة المتكلمين بها من أهل الشمال وسيطرتهم التامة على شئون الجزيرة بعد أن تضعضع نفوذ أهل اليمن ، وخضوعهم للاستعمار الأجنبي من حبشى تارة ، وفارسى تارة أخرى . وليس معنى ذلك أنها كانت لغة أهل اليمن ، ولكنها كانت مفهومة لديهم .

وهذا هو القرآن ، وهو خير مثل للغة العرب فى جاهليتهم ؛ لأنه نزل لهدايتهم ، ولا بد لهم من فهمه قبل أن يهتدوا به . أتراه نزل بلغة أهل قريش خاصة ، وأن هذه اللغة فرضت على سائر العرب فرضاً بعد نزول القرآن ؟ أم نزل بتلك اللغة الموحدة التى كان يفهمها العرب جميعاً ، والتى كانت لهجة قريش أقرب اللهجات منها لأسباب عدة سنذكرها بعد ؟

لا ريب أن القرآن لم ينزل لقريش خاصة ، وإنما نزل للعرب أجمعين . وقد أقروا بإعجازه ، وفتنوا ببلاغته ، وفهموه فآمنوا به .

وفى ذلك يقول العلامة بروكلمان[1] : « لقد اتخذ شعراء الجزيرة فى شتى أماكنهم وعلى الرغم من اختلاف قبائلهم لغة مشتركة ، وتدل سمات هذه اللغة ، والطريقة التى انتهجها الشعراء فى تعبيرهم على أنها لغة شعرية .

(١) فى الفصل الأول من كتابه .
Semitische Sprachwissenschaft

وليس ثمة أية فرصة للشك فى وجود مثل هذه اللغة المشتركة فى عصر لم تعرف فيه الكتابة ، ولم يجد الشاعر أمامه أية وسيلة إلا الإنشاد[١] . وهناك أمثلة عدة تدل على وجود لغات أدبية فى الأمم البدائية مع وجود لهجات دارجة .

وإلى جانب هذه اللغة الأدبية كانت توجد لهجات مختلفة للقبائل الشمالية ، لم يحدثنا النحاة عنها إلا القليل ، ولكن ثمة لهجة من هذه اللهجات نعرفها حق المعرفة ، وتلك هى لهجة قريش التى كان يتحدث بها محمد (عليه السلام) . وأغلب الظن أن القرآن نزل بتلك اللغة الشعرية الأدبية العامة ، يدل على ذلك ما فى القرآن ذاته من تعابير وصفات صوتية لم تكن فى لهجة قريش »[٢] .

ويرى (نولدكه)[٣] كذلك أن القرآن لم ينزل بلهجة قريش خاصة . وإنما هذه فكرة نشأت فى العصر الأموى لإظهار تفوق قريش على بقية القبائل العربية فى كل شيء لعلاقتهم بالنبوة .

ولقد تضافرت عوامل عدة على تكوين اللهجة الموحدة بين العرب واتخاذها أداة للتعبير فى المنافرات والمفاخر والشعر والخطب ، فمن ذلك الأسواق الكثيرة التى كانت تقام فى مختلف أنحاء الجزيرة العربية طوال شهور السنة ؛ لتبادل المنافع حتى لا يخلو منها شهر . فكانوا يجتمعون فى (دُومة الجندل) فى أوائل ربيع الأول ثم ينتقلون إلى (هَجَر) بالبحرين فى شهر ربيع الثانى ، وفيها قيل المثل المشهور ، « كمبضع التمر إلى هجر » ، وفى شهر جمادى يذهبون إلى (عُمان) ويظلون ثمة حتى آخر الشهر وبعد ذلك يرحلون إلى (المُشَقَّر) وهو حصن بالبحرين فتقوم به سوقهم أول يوم من جمادى الآخرة ، ومن ثم ينتقلون إلى (صُحار) فيقيمون بها بضعة أيام من رجب .

---

(١) ثم إذاعة شعره بين الناس عن طريق الراوية .

(٢) فكلمة (الرحمن) مثلا لم تكن معروفة لقريش ، وكان القرشيون يسهلون الهمزات فلا ينطقونها فيقولون فى (يؤمنون) يومنون من غير همزة مع أن اللهجة العامة يحققها (راجع اللهجات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس ص ٥٦ وما بعدها) .

(٣) ص ٥٥ فى كتابه .

Semitische Sprachwissenschrft

ومن أسواقهم (الشِّحر) بين عمان وعدن ، وتقوم فى النصف من شعبان ، ثم يذهبون إلى (عَدَن) ومن ثم إلى (صنعاء) فى النصف من رمضان حتى آخره .

وفى شهر شوال كانت تقام سوق عكاظ وهى أكبر أسواق العرب ، وتستمر إلى آخر ذى القعدة ، فإذا أهل ذو الحجة أتوا (ذا المجاز وذا المجنة) وهما قريبان من مكة . وكانتا تقامان أيام موسم الحج (١) .

وكانت هذه الأسواق أشبه بمعارض عامة يفد إليها الناس من شتى أنحاء الجزيرة وتجرى فيها مسابقات الخيول ، وتقام الألعاب ، ويتناشد الشعراء ، وتعقد المؤتمرات للنظر فى مهام الأمور من مسائل السلم والحرب والحلف والتعاهد والثأر والتقاضى .

أجل ! كانت بعض هذه الأسواق محدودة الرواد لا يؤمها إلا القريب منها ، ولكن سوق عكاظ (٢) مثلا كانت عامة تشهدها جم غفير من مختلف القبائل فى طريقهم إلى مكة للحج ، وفيها كانوا يتبادلون عروض التجارة ، وكان المناذرة يرسلون إليها بعض السلع للبيع وهى المعروفة فى التاريخ باللطائم مثل (لطيمة النعمان) ، وفيها كان الناس يفصلون فيما بينهم من مشكلات ، ومن كانت له حكومة لجأ إلى الذى يقوم بأمر الحكومة (وهم أناس من بنى تميم كان آخرهم الأقرع بن حابس على ما نقله القلقشندى فى قبائل العرب) (٣) . وفى عكاظ كانت تقوم المنافرات والمفاخرات وتنشد الأشعار وفى ذلك يقول حسان بن ثابت :

سأنشر إن حييتُ لهم كلاماً   يُنَشَّر فى المجامع من عكاظ

وفى عكاظ يقول طريف بن تميم العنبرى :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة   بعثوا إلىّ عريفهم يتوسم (٤)

---

(١) انظر بلوغ الأرب للألوسى ج ١ ص ٢٦٤ وما بعدها .

(٢) عكاظ : نخل على مسيرة ثلاثة أيام من مكة ، ويوم من الطائف .

(٣) صبح الأعشى ج ١ ص ٤١١ .

(٤) العريف : رئيس القوم ، لأنه عرف بذلك ، أو النقيب وهو دون الرئيس ، والمتوسم : التخيل والتفرس وإنما كانوا يتوسمون طريفاً ؛ لأن لهم عنده ثأراً ولا يستطيعون قتله ؟ إذ كانت عكاظ تقام فى الأشهر الحرم ، فكانوا يتوسمونه لمعرفته حتى يثأروا منه بعد ذلك

وفى عكاظ ألقى قس بن ساعدة الإيادى خطبته المشهورة على جمل أورق وسمعها النبى عليه الصلاة والسلام ورواها أبو بكر الصديق .

وفى عكاظ كانت تضرب للنابغة الذبيانى قبة من أدم [1]، ليحكم بين الشعراء . ولم يكن من المعقول أن يجتمع فى هذه السوق وغيرها هذا الجمع الحاشد من شتى أنحاء الجزيرة ، ومن مختلف القبائل ، من غير أن تكون ثمة لغة واحدة يتخاطبون بها وينشدون أشعارهم فيفهمها الجميع ، ويتنافرون ويتخاصمون ويتحاكمون ويخطبون فيفهم الناس طرًا ، لقد كان كل ذلك ولا ريب بلغة مشتركة ارتضاها الناس للتعبير عما فى نفوسهم ، تلك هى لغة الشعر الجاهلى ، ولغة الحكم والأمثال والخطب والأدب .

ولقد ذكرنا آنفاً أن لهجة قريش كانت أقرب لهجات العرب إلى لغة الأدب والشعر المشتركة ، وربما كانت ذات أثر كبير فى إحكام هذه اللغة ؛ وذلك لأن قريشاً كانت تسكن مكة ، وبها الكعبة البيت الحرام ، والكعبة كانت مقصد العرب قاطبة إليها يحجون كل عام يتقربون إلى أصنامهم التى كانت تحتل مكانها فوق الكعبة . وكان لكل قبيلة صنم تعظمه وتتقرب إليه وتهدى الدماء .

وكان العرب ينظرون إلى قريش نظرة تجلة وتعظيم ، لأنهم كانوا ذوى شرف وسؤدد وثراء . أما الشرف فلأن فى قريش كانت حجابة البيت الحرام ، فبيدهم مفاتيح الكعبة وهم الذين يقومون بخدمتها ؛ وفيهم السقاية ، وهى القيام بملء حياض كبيرة بالماء يحلونها بشىء من التمر والزبيب ليشرب منها الناس إذا وردوا مكة ؛ وفيهم الرفادة ، وهى طعام كان يصنع للحاج على طريق الضيافة .

وأما الثراء ، فلأن قريشاً كانت مسيطرة على تجارة الجزيرة العربية فى ذياك الوقت بعد أن اضمحل شأن اليمن ، وكان لقريش رحلتان كل عام أولاهما فى الشمال فى بلاد الشام صيفاً ، وثانيتهما للجنوب فى بلاد اليمن شتاء ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا

---

(١) الأدم : الجلد وكانت قبة الأدم علامة الشرف .

فى قوله : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » ، وقد خرج النبي عليه السلام إلى الشام مرتين للتجارة قبل البعثة ، وقد أفادت قريش من هذه الرحلات التجارية مالا ومدنية . وتهذيباً فى الطباع ، ورقة فى المعاملة ، ولغة ، وذلك لأنهم يحترفون التجارة ، وشأن التاجر الناجح الدماثة والظرف وحسن معاملة الناس ، ثم إنهم كانوا من سكان المدن ، والحضر عادة سريعو التحول يهفون إلى الجديد ، ويقبلون على كل ما يكسبهم منزلة أمام غيرهم : من لغة رقيقة ولطف وحسن محاكاة . وعلى العكس من ذلك البدو ، فإن طباعهم جامدة ، وألسنتهم بطيئة التحول .

هذا وقد رأيت أن أشهر أسواق العرب كانت تعقد قريباً من ديارهم ، وكانت قريش تختلط بهذه القبائل جميعاً فى الأسواق وفى الحج وهى موضع احترامهم وإعجابهم لما ذكرنا ، فلا عجب إذا قلدوها فى لهجتها .

كانت قريش تأخذ من القبائل المختلفة خير ما فى لهجاتها وكان العرب يقلدون قريشاً ويحاكونها فى كلامها ، ولذلك كله كانت لهجة قريش أقرب اللهجات للغة العامة المشتركة ، وكان لهم الأثر البالغ فى صقلها وتهذيبها وتزويدها بكثير من الكلمات والنهوض بها حتى بلغت منزلة سامية من الإتقان والكمال دعت عالماً ثبتاً مثل بروكلمان أن يقول فى وصف تلك اللغة التى روى بها الشعر الجاهلى : « وتتميز لغة الشعر العربى بثروة واسعة فى الصور النحوية (الإعراب) ، وتعد أرقى اللغات السامية تطوراً من حيث تراكيب الجمل ودقة التعبير ، أما المفردات فهى فيها غنية غنى يسترعى الانتباه ولا بِدْع فهى نهر تصب فيه الجداول من شتى القبائل . وإن كان هذا الثراء الواسع الذى بهر علماء اللغة ومؤلفى المعاجم ، وألهج ألسنتهم بالثناء الجم لا يدلنا على أن العرب قد فكروا فى الكون تفكيراً عميقاً ، وإنما كانت نظرتهم إليه محدودة .

ولكن قوة الملاحظة عند البدوى حادة جداً ، حتى إنه ينتبه لأقل شىء فى بيئته الطبيعية ، ولا سيما إذا كان فى ذلك نفع مادى له ، وهو يصور بلغته كل دقائق الظواهر الصحراوية ، والصفات والحيوان ، إلى غير ذلك من الأمور . وليس هذا خاصاً بالساميين دون سواهم من الأجناس ، ولكن توجد هذه الظاهرة عند الأمم

لم يعرفوا شيئاً من المدنية وأساليب الحضارة . وإلا فكيف تفسر هذه الكلمات الكثيرة التي تغص بها اللغة العربية الجاهلية ؟ . إن اللغة دليل أخلاق الأمة ، ومرآة آدابها ومختلف أحوالها ، والكلمة لا تتولد إلا للتعبير عن معنى حدث فى أذهان أصحابها .

واللغة العربية من أغنى لغات الأرض بالألفاظ العمرانية والسياسية ، ففيها عشرات من الألفاظ لضروب الجماعات من الناس على اختلاف أغراض اجتماعهم كالشعب والجماعة ، واللجنة والزرافة ، والسرب والكوكبة ، والقوم ، والنفر ، والشرذمة ، والعصابة ... ومثلها لأماكن الاجتماع كالمحفل ، والنادى ، والندوة ، والمأتم ، والمجلس ، والمرسم ، والمدرس ، والمصطبة ؛ وعشرة منها للتعبير عن فرق الجند كالجريدة ، والسرية ، والكتيبة وغيرها . وفيها للقلم والورق أسماء شتى ، فللقلم : الملقاط واليراع والأسل والأنبوبة ؛ وللورق : القرطاس ، والطرس ، والرف ، والمجلة ، والصحيفة ، ولكل منها معنى خاص .

ولهم فى أنواع الكتب أسماء مختلفة كالقمطر ، والمدرس ، والزبور ، والرقيم ، والسِّفر ، والضِّبار ، وما شاكلها .

وفى اللغة مئات الألفاظ الدالة على أنواع الأرض والتربة باختلاف الخصب والجدب ؛ ولهم فى السفينة ألفاظ عديدة مما يثبت معرفتهم بالبحار . وكان لهم فى التجارة والاقتصاد باع واسع ولذلك عمرت لغتهم بالألفاظ الخاصة بهما . أما أدوات الصناعة وأوانى الأطعمة والرياش والأثاث واللباس فألفاظهم فى ذلك تجل عن الحصر .

فأنى لهم كل هذا إذا لم يتصلوا بالمدينة ويعرفوا شيئاً عنها ؟

إذا كانت الأسواق المختلفة قد عملت على تكوين لغة موحدة بين العرب ، وإذا كانت قريش قد ساهمت فى ذلك بنصيب كبير ؛ وإذا كانت مجتمعات العرب وأنديتهم

التى يتشاورون فيها ويسمرون، ويبرمون أمورهم، ويعقدون فيها الصلح والمحالفات قد ساعدت على ذلك ؛ وإذا كانت الحروب الكثيرة التى شبت فيما بينهم أيام جاهليتهم والتى كانت أمراً طبيعياً نظراً لحياتهم وإيلافهم النجعة وارتياد مواقع الغيث والكلأ وما كان بينهم من حزازات وترات دفعتهم إلى شن الغارات والدفاع عن الحمى والعرض، ودعت شعراءهم وخطباءهم أن يذكروهم بأمجادهم ويحرضوهم على الاستبسال فى الذود عن الشرف — إذا كانت هذه الحروب قد عملت كذلك على إيجاد هذه اللغة المشتركة ؛ فان العرب بجانب كل هذا قد تأثروا ولا ريب بعوامل أخرى نهضت بلغتهم وجعلتها كاملة الأداء، غنية غنى مفرطاً فى المفردات وأساليب التعبير، وذلك ما سنعرفه فى الفقرة التالية.

— ٣ —

اتصال العرب بالمدينة :

١ — مر بنا كيف اختلط عرب الشمال بأهل اليمن عقب انهيار سد مأرب، وكيف انتشروا فى شتى أنحاء الجزيرة، وشاركوا أهلها بأساءهم وضراءهم، وعاشروهم عشرة طويلة دامت عدة قرون قبل أن ينبلج تاريخ العرب العدنانية. وقد كان لعرب الجنوب قدم راسخة فى المدنية، وعرفوا كثيراً من ألوان البذخ والترف، ولا بدع فقد كانت حضارتهم وليدة التجارة، ترد إلى شواطئهم سلع مختلفة من الهند، والصين وجزر الهند الشرقية، وسواحل إفريقية : كالذهب، والقصدير، وأنواع الطيب والعاج والتوابل والقطن والأحجار الكريمة ؛ وكانوا يحتكرون هذه التجارة ويفدون بها إلى الشام وسواحل البحر الأبيض المتوسط، فأفادتهم غنى وثروة، والغنى يدعو إلى الترف والحضارة.

ولا أدل على حضارتهم من آثارهم ؛ وقد يكون فيما ذكره الهمْدانى فى الإكليل

شيئاً من المبالغة فى وصف قصر (غمدان) وأنه كان من عشرين طبقة ، وأن صانعه حينما وصل غرفه العليا أطبق سقف كل غرفة بقطعة واحدة شفافة من الرخام ، ولكن ما بقى من آثار هذا القصر وغيره تشهد بأنهم كانوا مهرة حقاً فى هندسة البناء ، وأنه يصعب على المرء أن يرى الفواصل بين حجارة مبانيهم ، وكانت تحلى هذه المبانى بزخارف ونقوش غائرة فى الحجر تمثل الحيوان وأوراق الأشجار وتنبئ عن دقة وفن وذوق .

وقد اشتهرت اليمن قديماً بالزراعة ، ولم يكونوا يزرعون السهول فحسب ، ولكن كانوا يزرعون كذلك سفوح الجبال ، ويقيمون الدور ، ويشقون القنوات .

أما صناعات اليمن فقد اشتهرت منها الحَبَر اليمنية المفوفة ، والعُصُب والبرود وشتى أنواع النسيج ، كما برعوا فى صناعة السيوف والحلى ودبغ الجلود .

وكان هؤلاء التجار من اليمن يمرون فى طريقهم إلى الشمال براً ببلاد الحجاز ، وكانت قبائلهم التى هاجرت إلى مواطن العدنانيين تعرف كثيراً عن هذه الحضارة ، ولها فى لغتها مدلولات وكلمات تعبر عنها ، وقد أضيفت هذه الثروة اللغوية إلى لغة العدنانيين ؛ وجاءت الأسواق وشدة الاختلاط بعرب اليمن الذين ظلوا فى ديارهم مثبتاً لمعانى هذه المفردات فى أذهان عرب الشمال . وقد رأيت أن كثيراً من الأسواق كانت تقام فى بلاد اليمن أيام الجاهلية التاريخية .

٢ — ولما اضمحل شأن اليمن فى التجارة ، وورثها عرب الحجاز ولا سيما قريش ، لم يضعف اتصال قريش باليمن بل كانت إحدى رحلتيهم إلى اليمن فى كل عام .

كانت قريش تتجر كذلك مع الأمم المجاورة لجزيرة العرب شمالا ، فكانوا يذهبون ببضاعتهم إلى أسواق الشام ومصر ، وقليلا ما يذهبون إلى فارس ، لأن تجارة الفرس كانت بيد عرب الحيرة ، وهؤلاء كانوا يردون بتجارتها إلى سوق عكاظ وغيرها كما مرَّ بنا ، وكان الروم فى بلاد الشام يعتمدون فى كثير من شئونهم على تجارة قريش

حتى فيما يترفهون به كالحرير ، ولقد بالغ بعض مؤرخي الفرنجة وادعى أنه كان بمكة بيوت تجارية رومية وأخرى حبشية [1] .

وكان من تجار قريش من يذهب إلى الحبشة مثل عمرو بن العاص ، وعمارة ابن الوليد المخزومي ، بل كان عمرو بن العاص يعرف مصر . وقد جاء في كتب السيرة أن عمراً لمعرفته الوثيقة ببلاد الحبشة ذهب إلى النجاشي يطلب منه أن يسلم إليه المسلمين الذين لجئوا إلى دياره حين كان الصراع عنيفاً بين النبي وصحبه القلائل ، وبين كفار مكة ، وذلك قبل أن يدخل عمرو بن العاص في الإسلام [2] . كما ذكرت كتب التاريخ أن عمراً هو الذي زين لعمر بن الخطاب فتح مصر ووصفها له وصفاً دقيقاً في كلام مشهور . وأنه هو الذي قاد الجيش الذي فتحها لمعرفته بها .

ومما لا مراء فيه أن العرب لم يفيدوا من هذه الرحلات التجارية مالا فحسب ، ولكنهم أفادوا أشياء أخرى ورأوا رأى العين بلاد الشام وبساتينها العامرة ؛ ورياضها الغناء وجبالها الشاهقة وأنهارها الجارية ، وقصورها المنيفة ، ورأوا النصارى في أعيادهم ومحافلهم الدينية ، والملوك في حللهم المزركشة أمام جيوشهم ، ورأوا وادى النيل وما فيه من خصب وزرع نضير ، وجنات يانعة ، وآثار ضخمة .

وهل يعقل أن يذهب هؤلاء العرب للتجارة في بلاد غريبة دون أن يلموا بشيء من لغاتها ؛ أو على الأقل يكون معهم من بنى جلدتهم من له خبرة بهذه اللغات حتى ييسر لهم سبل الاتجار والأخذ والعطاء ؟ لقد كان أشراف قريش هم المسيطرون على شئون تلك التجارة ، وهم الذين برزوا فيما بعد في الإسلام واشتهروا بالدهاء والحكمة وحدة الذكاء . وأناس هذا شأنهم تفيدهم مثل هذه الرحلات التجارية فوائد مادية وأدبية وثقافية عظيمة ، ثم يعودون فيتحدثون بها إلى قومهم الذين لم يسعدوا بالسفر معهم .

---

(١) انظر أوليرى Arabia before Mohammed نقلا عن فجر الإسلام ص ١٥ .

(٢) راجع تاريخ الأمم الإسلامية الجزء الأول ص ١١٣ وما بعدها .

لقد كانت مصر والشام فى ذياك الوقت خاضعتين لحكم الروم ، وكان الروم على قدر كبير من المدنية يناسب هذا العصر . ولقد وقف العرب ولا ريب على شيء من هذه المدنية الرومية فى أسفارهم المتكررة .

٣ — أما اتصالهم بالفرس فكان عن طريق عرب الحيرة ، بل إن الفرس قد استوطنوا جزيرة العرب ردحاً من الزمن ، وذلك بعد أن طغى الأحباش فى اليمن واستذلوا أهلها ، وأذاقوهم كئوس العذاب مترعة مدة خمسين عاماً من ٥٢٥ م — ٥٧٦ م فاستنجد سيف بن ذى يزن الحميرى بكسرى فأنجده ، وخضعت اليمن للفرس ، حتى جاء الإسلام ، وكان آخر حكامهم (باذان) الذى اعتنق الإسلام سنة ٦٢٨ م أى فى السنة السادسة للهجرة ، واستمر والياً عليها حتى سنة ٦٣٢ م وهى السنة التى دخلت فيها اليمن تحت حكم المسلمين .

فمن هذا ترى أن العرب اتصلوا بالأحباش ، ثم بالفرس عن قرب واختلطوا بهم اختلاطاً شديداً فى الجاهلية ، وأفادوا من حكمتهم وحضارتهم ، وقصصهم وسنخص بالذكر تأثير دولتى الحيرة وغسان فى العرب عند الكلام على بيئة النابغة . والحيرة كانت وثيقة الصلة بفارس ، كما كانت غسان خاضعة للروم .

٤ — واتصل العرب كذلك باليهود والنصارى ، فقد كان يقيم بين ظهرانيهم عدد غير قليل من اليهود فى تيماء ويثرب وخيبر ووادى القرى ، كما أن بعض أهل اليمن قد اعتنق اليهودية ، بل إن ذانواس الحميرى ملك اليمن قد اتخذها له ديناً ؛ إذ كانت النصرانية فى نظره رمز العبودية ، لأنها دين الأحباش ودين الإمبراطورية الرومية ، وكلاهما كان طامعاً فى اليمن ، واضطهد لذلك نصارى نجران ، وشق لهم الأخدود الذى ذُكر فى القرآن[1] وحرقهم . وكان ذلك سبب غزو الحبشة المسيحية لبلاد اليمن والقضاء على استقلالها انتقاماً لنصارى نجران .

---

(١) وذلك حيث يقول الله تعالى : « قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد »

ولا ريب أن اليهود بإقامتهم الطويلة بين العرب قد نشروا آراءهم الدينية فى الجزيرة.وسمع العرب منهم شيئاً عن البعث والحشر ، والحساب والميزان والجنة والنار وخلق الدنيا وما شاكل ذلك من الأمور الدينية .

أما النصرانية فقد انتشرت بين بعض القبائل العربية مثل تغلب ، والعباد بالحيرة ومنهم عدى بن زيد العبادى الشاعر ، والغساسنة بالشام ، وأهل نجران باليمن ، وكانت بنجران كنيسة عظيمة ، أراد الأحباش أن يصرفوا إليها العرب دون الكعبة فكانت غزوة الفيل التى باءت بإخفاق حملتهم على مكة .

وكانت النصرانية لذلك العهد مشوبة بنظريات الأفلاطونية الحديثة ، فعرف بعض العرب شيئاً من تعاليم المسيحية ، وقليلا من الآراء الفلسفية سواء من نساطرة الحيرة أو يعاقبة الحبشة . وقد ظهر أثر المسيحية فى كلام بعض العرب كأمية بن أبى الصلت وقس بن ساعدة الإيادى ، وعدى بن زيد العبادى ، وقد أطرى النابغة الذبيانى أمراء غسان على نصرانيتهم فى قوله :

مجلتهم ذات الآله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب

كما رأى العرب كثيراً من الرهبان فى صوامعهم يتعبدون ، واستمد العرب بعض تشبيهاتهم من حياتهم ، وسنرى بعد كيف أن بعض الألفاظ الدينية الاصطلاحية قد استعملها عرب الجاهلية نتيجة هذا التأثير ، وإن بقى أكثرهم على وثنيته إلى أن جاء الإسلام .

٥ — هذا وقد تأثر عرب الجزيرة باللغة الآرامية التى كانت اللغة الشائعة فى مصر والشام والعراق ، وطغت على كل اللغات القديمة . وبلغت أوج مجدها فيما بين سنتى ٣٠٠ ق م ، و ٦٥٠ بعد الميلاد وكانت لغة دولية فى كثير من المناطق المجاورة لبلادها وامتد نفوذها إلى آسيا الصغرى نفسها ، على الرغم من أنه لم يهاجر إليها إلا عدد قليل من الآراميين[1] .

---

(١) راجع كتاب فقه اللغة للدكتور على عبد الواحد ص ٤٣ وما بعدها ، وكتاب تاريخ اللغات السامية » لإسرائيل ولفنسون ص ١١٤ وما بعدها .

والآراميون بدو رحلوا من جزيرة العرب إلى الشمال حوالى سنة ١٥٠٠ ق م ، وأقاموا بفلسطين وجنوب الشام ، وقد فرضـــوا لغتهم على تلك البقاع ، لأنها كانت لغة دارجة سهلة متحللة من كثير من القيود التى التزمتها الكنعانية والآشورية والعبرية .

ولقد أسس الأنباط لهم دولة بفلسطين ، وهم جيل من العرب هجر الجزيرة حوالى سنة ٥٠٠ ق م ، واستعمروا المنطقة التى تفصل ما بين بلاد الشام وبلاد العرب ، وكانت عاصمتهم تسمى (بطرة) ويسميها العرب سلعاً ، وكانت فى منتصف المسافة بين خليج العقبة والبحر الميت ، مهيمنة على طريق القوافل التجارية .

وقد استعمل الأنباط الخط الآرامى ، على الرغم من أنهم كانوا يتكلمون العربية الدارجة ، ويستعملون الآرامية فى شئونهم الثقافية . ومن أقدم النقوش النبطية التى تنم عن أصل عربى واضح ، مع تأثر بالآرامية نقش (نمارا) فى شرق حران ، وهو يرجع إلى سنة ٣٢٨ م ، ووجد على مقبرة امرئ القيس أحد ملوك اللخميين فى ذلك الوقت . ويدل النقش على أن أثر الأنباط كبير جداً فى الخط العربى ؛ لأنه الخط الذى تعلمه العرب من أهل دومة الجندل أيام حرب بن أمية قبيل البعثة المحمدية .

وثمة نقشان آخران يدلان على هذا التأثير النبطى فى الخط العربى أحدهما وجد ببلدة (زَبد) بالقرب من حلب ويرجع تاريخه إلى سنة ٥١٢م ، والآخر فى حوران بالقرب من دمشق ويرجع تاريخه إلى سنة ٥٦٨ م ، ونرى فى النقش الأول النص العربى وبجانبه ترجمة إغريقية ، وأخرى سريانية ، وفى النقش الثانى النص العربى ومعه ترجمة إغريقية فحسب ، وهذا النقش الأخير يعتبر أقرب إلى الخطوط العربية فى القرن الأول للهجرة من جميع النقوش التى كشفت حتى اليوم ، وعبارته قريبة جداً من اللغة العربية حيث جاء فيه :

أنا شر حبيل بن ظالمو (ظالم) بنيت ذا المرطول سدت (سنة) ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم (بعام)[1] .

وكانت هناك مملكة تدمر أسست على أثر سقوط (بطرة) أو سلع كما يسميها العرب سنة ١٠٥ م ، وانتقل إليها كل ماكان بيد الأنباط من قوة تجارية . وأهل تدمر آراميون ، وحكامهم عرب ، كما تدل على ذلك أسماؤهم ، والنقوش التى خلفوها وقد ورد ذكر تدمر فى شعر النابغة الذبيانى كما سيأتى .

ويؤيد اتصال العرب فى الجاهلية بالحضارة الآرامية قول بروكلمان[2] : « إن الرأى الشائع حتى اليوم ، وهو أن بدو شمال جزيرة العرب لم يتصلوا اى اتصال بأسباب الحضارة قبل بعثة محمد (عليه السلام) رأى خاطئ ولا شك . وكيف يتسنى للعرب وصحراؤهم متاخمة لدول ذات حضارة ألا يتأثروا بجيرانهم . لقد رأينا أن ثمة دويلات عربية فى العهد الفارسى أولا ، ثم فى العهد الرومانى بعد ذلك لها ثقافة أرامية ، وكانت لغة الكتابة عندهم هى الآرامية ، وتكاد معظم الكلمات التى تمت إلى الحضارة بصلة فى اللغة العربية تكون آرامية ، ومن الممكن التمييز بين تلك الكلمات الآرامية التى عربت فى العصور القديمة والتى عربت فى الجاهلية المتأخرة . ثم إننا نجد نقوشاً قديمة فى موضوعات شتى ، وإن كانت لا تنبىء عن حوادث سياسية هامة أومسائل دينية وهى نوع من الخطوط العربية المشتقة رأساً من الفينيقية مثل ما وجد فى (العلا) بشمال الحجاز ، تلك هى النقوش التى وجدت مكتوبة بالخط الثمودى والصفوى واللحيانى[3] .

---

(١) راجع تاريخ اللغات السامية لولفنسون ص ١٩٠ وما بعدها ، وراجع بركلمان الفصل الأول الفقرة ٢٣ من كتابه Sem. SPr

(٢) الفصل الأول الفقرة ٢٣ من كتابه Sem. Spr.

(٣) كان اللحيانيون يسكنون شمال الحجاز قبل أن تستوطنه ثمود ، وكانت (العلا) كما يقول بلينوس المؤرخ الرومانى عاصمة لبطون لحيان ، وأما موطن ثمود فى عهد بلينوس وهو القرن الأول بعد الميلاد فكان جنوب مكة إلى تهامة العسير ، وكان لثمود حروب قديمة مع سرجون ملك آشور (فى القرن الثامن قبل الميلاد) كما تدل على ذلك بعض النقوش المسمارية ، وتدل أيضاً على أنه أجلاهم إلى مدينة غزة بفلسطين — تاريخ اللغات السامية ١٧٢ — ١٧٦ .

بيد أن هذه الخطوط ما لبثت أن تلاشت أمام تأثير الآراميين ، لأن الخط الآرامى كان رمز حضارة أرقى وثقافة أعلى » .

ونحن لا نذهب إلى المبالغة كما ذهب (بروكلمان) من أن معظم كلمات الحضارة فى العربية مأخوذ من الآرامية ، وإنما أردنا إظهار أن عرب الشمال لم يكونوا فى عزلة تامة ، وأنهم كانوا على صلة بالحضارات القريبة منهم ، وأن الخط العربى نما وتطور فى ظل تلك الحضارات .

وأن اللغة العربية ظلت قرونا قبل العصر الجاهلى التاريخى ، وهى تتطور وتتكون وتأخذ بكل الأسباب التى تكملها ، وتنوعت فيها عوامل النمو من إبدال ، واشتقاق ، ونحت وتعريب ، حتى برزت للتاريخ كاملة ناضجة .

٦ — ولا أدل على تأثرها بالحضارات المجاورة لها من الكلمات الدخيلة التى عرفها عرب الجاهلية ، واستعملوها . والكلمة — كما ذكرنا سابقاً — لا يمكن أن تستخدم ما لم يعرف المرء مدلولها .

فترى أن العرب أخذوا من الفرس مثلا كلمات شتى مثل : الكوز ، والجرة والإبريق والخوان ، والقصعة ، والخز ، والديباج ، والسندس ، والياقوت ، والبلور والفلفل ، والنرجس ، والبنفسج ، والنسرين ، والسوسن ، والمرزجوش ، والياسمين والجلنار ، والقرنفل ، والعنبر ، وغير ذلك من الكلمات الكثيرة التى ذكرها السيوطى فى المزهر .

ونراهم أخذوا من اليونانية والرومية كلمات : الفردوس ، والصراط والقسطاس والبطاقة ، والقنطار ، والترياق ، والقنطرة ، والدمية ، وما شاكلها .

وأخذوا من الحبشية بعض الكلمات الدينية مثل : المنبر ، والمنافق ، والحوارى .

والبرهان ، والمصحف : ومن العبرية : الحج ، والكاهن ، وعاشوراء وغيرها .

بل إن هناك بعض الكلمات السنسكريتية الأصل عرفها العرب عن طريق تجارتهم مع الهند مثل كلمة : مسك ، وكافور .

وقد وضع علماء اللغة أصولا تعرف بها الكلمات المعربة[1] لا داعى لذكرها هنا ، وإنما كل هذا يدلنا على أن اللغة العربية ، وإن احتفظت بطابعها ، وطرق نموها وتصريفها ، وصارت أقرب اللغات السامية إلى الأم الأولى : لعدم خضوع العرب لمستعمر يفرض عليهم لغته ، ولمنعة الجزيرة العربية أمام الغزاة ، فإن العرب لم يكونوا بمعزل عن الحضارات القريبة منهم ، وأنهم زودوا لغتهم بكثير من الألفاظ الأجنبية لتكون كاملة الأداء .

تلك كان حال اللغة العربية أيام أن ظهر النابغة الذبيانى : لغة راقية ، تامة النضج قادرة على أداء أسمى الآراء والحكم ، وأدق خلجات النفوس ، وأرق العواطف والمشاعر ، وتصوير أروع المناظر ، وأعمق المعانى . لغة تنبئ عن أن العرب وصلوا قبل الإسلام إلى درجة عالية من الفكر ، فاللغة رمز الشخصية ودليل العقلية . وما ورد لنا من أشعارهم يفصح عن عقلية ممتازة ، وفكر صاف ، ونفوس ملهمة ، وعواطف جياشة . ويدل على أن العرب كانوا على استعداد لأن يتلقوا رسالة القرآن الذى تحداهم بأنصع بيان : لأنهم كانوا مهرة فى هذا المضمار ، وبذلك قدروه وآمنوا به .

هذا ما كان من أمر اللغة ونموها وتطورها ، وقد رأينا كيف تكونت على مر القرون ، وكيف عمد العرب إلى تكوين لهجة أدبية ، ينطق بها الشعراء والخطباء والحكماء ، وكيف عمت هذه اللهجة جزيرة العرب ، وارتضتها القبائل المختلفة ، وإن

---

(١) راجع المزهر للسيوطى ، وتاريخ آداب اللغة العربية للرافعى ج١ ، وتاريخ اللغة العربية لجورجى زيدان

حافظت كل قبيلة على لهجة (١) خاصة بها تبعاً للبيئة التى تعيش فيها ، واختلاف طرق الوضع والإرتجال لديها . وكيف كانت هذه اللغة خالية من الهنوات(٢) التى اشتهرت

(١) تكاد تنحصر طرق الاختلاف فيما يأتى :
١ — الإبدال مثل إبدال الميم باء ، والباء ميما فى لغة مازن فيقول با اسمك فى ما اسمك ؟
٢ — أوجه الإعراب كنصب خبر ليس عند الحجازيين مطلقاً ، ورفعه عند تميم إذا اقترن بإلا حملا لها على ما ، مثل ليس الطيب إلا المسك .
٣ — وأوجه البناء والبنية كتسكين شين عشرة عند الحجازيين ، وفتحها وكسرها عند تميم ، وكبناء الهاء من أيها على الضم عند بنى مالك من بنى أسد فيقولون يا أيه الناس ، وبنائها على الفتح ووصلها بألف عند غيرهم مثل يأيها الناس .
٤ — والتردد بين الإعراب والبناء كإعراب لدن عند قيس بن ثعلبة وبنائها عند غيرهم .
٥ — والتصحيح والإعلال وما يشبههما كإعلال الأفعال الثلاثية التى من باب علم كرضى وبقى عند تميم بقلب يائها ألفاً وكسرتها فتحة ، وغيرهم يصححها .
٦ — والإتمام والنقص كحذف نون من الجارة عند خثعم وزبيد إذا وليها ساكن ، وإبقائها عند سواهم فيقولون فى خرجت من البيت خرجت ملبيت كلغة العامة فى مصر .
٧ — والادغام والفك مثل فك المثلين فى المضارع المجزوم بالسكون المضعف وأمره عند أهل الحجاز مثل : إن يغضض طرفه فاغضض طرفك وإدغامهما عند تميم مثل إن يغض فغض .
٨ — والترادف وهو كثير كالمدية عند أهل اليمن والسكين عند أهل الحجاز .
(٢) من هذه الهنوات :
١ — عجعجة قضاعة وهى تحويل الياء جيما إذا وقعت بعدالعين فيقولون : الراعج خرج معج يريدون الراعى خرج معى .
٢ — وغمغمه قضاعة كذلك ، وهى عدم تمييز حروف الكلمات وظهورها أثناء الكلام .
٣ — شنشنة اليمن . وهى جعل الكاف شيناً مطلقاً مثل : لبيش ، وشلمنى فى لبيك ، وكلنى .
٤ — ووتم اليمن : وهو جعل السين تاء فيقول : النات فى الناس .
٥ — وطمطمانية حمير : وهى جعل أم بدل أل فيقول طاب امهواء ، فى طاب الهواء .
٨ — وتلتلة بهراء : وهى كسر أحرف المضارعة مطلقاً ، وبهراء بطن من قضاعة وكسر أحرف المضارع شائع فى لغة عامة مصر .
٧ — وفحفحة هذيل : وهى جعل الحاء عينا مثل العسن أخ العسين فى الحسن والحسين .
٨ — وعنعنة تميم أو قيس وهى إبدال العين من الهمزة المبدوء بها فيقولون فى أن عن ، وفى أمان عمان
٩ — وكشكشة أسد : وهى إبدال الشين من كاف الخطاب المؤنث كعليش فى عليك ، أو هى زيادة شين بعد الكاف المكسورة مثل عليكش فى عليك ، وأشهر ما يكون ذلك فى الوقف
١٠ — ووكم كلب : وهو كسر كاف الخطاب فى الجمع إذا كان قبلها ياء أو كسرة فيقولون عليكم وبكم بكسر الكاف . وكلب بطن من ربيعة .
١١ — ولخلخانية الشحر : كقولهم مشا الله فى ما شاء الله .
١٢ — وقطعة طىء : وهى حذف آخر الكلمة فيقول : (ياأبا الحكا) يريدون يا أبا الحكم كما فى لغة بنى سويف الآن وشمال مديريتى الغربية والبحيرة .
١٣ — واستنطاء سعد بن بكر وهذيل والأزد والأنصار وذلك بجعل العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء مثل أنطى فى أعطى .

بها بعض القبائل ، وكيف اتصلت بأسباب الحضارة ، حتى صارت كاملة تامة ، أهلا لأن ينزل بها القرآن الكريم وهو ما هو فى سعة معانيه وغزارتها وتنوعها ، وجمال أسلوبه ، وقوة أدائه ، وبذلك كان معجزة الرسول عليه السلام .

فهل ثمة مجال لإنكار وجود مثل هذه اللغة المشتركة كما أراد بعضهم أن يقول ؟

أما الشك فى الشعر الجاهلى ، ولا سيما غير المضرى منه فهو شك مبالغ فيه ؛ إذ مر بنا أن قبائل يمنية كثيرة قد هاجرت إلى الشمال ، واختلطت بالعدنانيين قروناً طويلة ، وامتزجت لغتهم بلغة العدنانيين ، وتكونت على مر السنين لغة مشتركة سيطرت على الجزيرة العربية كلها ، وصارت لغة الأدب والشعر . فهل يعز على شاعر يمنى مثلا ولد فى نجد ونشأ وترعرع بين عرب الشمال ، وسمع أول ما سمع فى حياته لغة أهل نجد لا لغة حمير أن يقول الشعر بتلك اللغة المشتركة ؟ .

إنى لا أبرىء الشعر الجاهلى من أن فيه بعض ما لا يمت للجاهليين بصلة ، وأن الرواة قد تزيدوا على هؤلاء الشعراء ، ونسبوا إليهم ما لم يفوهوا به ، وأن العصبية القبلية كان لها دخل أى دخل فى تزوير الشعر ونسبته إلى الشعراء .

وقد فطن إلى هذا منذ العصر الثانى الهجرى كثير من العلماء ونبهوا الناس إليه ، ولم يكن الشك فى الشعر الجاهلى وليد عصرنا هذا ، وقد قال ابن سلام الجمحى[1] فى كتابه طبقات الشعراء : « لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا فى الأشعار ؛ وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون » .

وذكر صاحب الأغانى قول المفضل الضبى[2] « وقد سلط على الشعر من حماد[3]

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى صاحب كتاب طبقات الشعراء المتوفى سنة ٢٣٢ هـ .
(٢) هو أبو العباس المفضل بن محمد الضبى راوية ثقة ، وهو أحد أئمة العربية بالكوفة توفى سنة ١٨٩ هـ .
(٣) هو أبو القاسم حماد بن أبى ليلى المتوفى سنة ١٥٥ هـ .

ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطئ في روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان ذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ، ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم النقد ، وأين ذلك ؟ » .

وجاء في الجزء الخامس من الأغاني كذلك : « أقر حماد بحضرة أمير المؤمنين المهدي بما زاده من عنده في شعر زهير بن أبي سلمى » .

ولكن هل خفي على العلماء هذا الشعر المدسوس في حينه ؟ ، وإذا كان ثمة بعض الشعر المنحول . فهل كل الشعر الجاهلي مشكوك فيه ؟ أو ليست هذه مجازفة في القول لم يجرؤ على ادعائها حتى أكثر الشعوبيين في العصر العباسي تعصباً على العرب ؟ .

أليس في طبيعة الشعر الجاهلي ، وفي بيئة الشعراء ، وفي خصائص الشاعر وسمات شعره ما يميز الصحيح من شعره والمدسوس عليه ؟ .

لقد درس هذا الموضوع دراسة مستفيضة ، وتصدى للرد على من طعن في الشعر الجاهلي كله كثير من الأدباء ، وأتوا بردود قوية مفحمة ، ولا أريد هنا أن أطيل البحث في هذه المسألة ، وإنما تعرضت لها ؛ لأن من أسباب الشك في الشعر الجاهلي أن لغة القبائل العربية كانت مختلفة ، ولم تكن ثمة لغة واحدة للأدب حتى يروى مثل شعر امرئ القيس الكندي اليمني بلغة عدنانية ، أو بلغة القرآن إن شئت . وقد رأيت فيما سبق حقيقة القول في هذه القضية . ولنا إلى هذا الموضوع عودة عند الكلام على شعر النابغة الذبياني إن شاء الله .

بيئة النـــابغة

- ١ -

القبيلة :

كانت جمهرة عرب الشمال بدواً ، يقيمون بالصحراء ، ويكثرون من الرحلة ، وقليل منهم يسكنون المدن ، والقرى الصغيرة ، ومن أشهر مدنهم مكة ويثرب والطائف .

أما البدو فكانوا يعيشون جماعات ، فى منازل يختارونها من الصحراء ، وتربط كل جماعة أواصر الدم والنسب ، وهذه الجماعة تعرف بالقبيلة .

والقبيلة هى الوحدة التى بنى عليها النظام الاجتماعى فى الجاهلية ، والقبيلة فرع من شعب ، وتنقسم إلى عدة أقسام كل قسم يسمى عِمارة ، والعمارة إلى بطون ، والبطون إلى أفخاذ ، والأفخاذ إلى فصائل ، والفصائل إلى عشائر ، والعشائر إلى أسر ، والأسر إلى أفراد فمثلا :

عدنان : شعب ، ومضر : قبيلة ، وقريش : عمارة ، وعبد مناف : بطن ، وبنو هاشم : فخذ ، وعبد المطلب : فصيلة ، وأبو طالب : عشيرة . . . وهكذا [1] .

والقبيلة : أسرة كبيرة يعتقد كل أفرادها أنهم من أب واحد ، وأم واحدة . وهى فى الغالب تسمى باسم الأب كربيعة ومضر والأوس والخزرج ، فهذه كلها أسماء رجال تسَل كل واحد منهم أولاداً وأحفاداً فانتسبوا كلهم إليه . وقليلا ما تنسب القبيلة إلى الأم كما قالوا فى خِندِف ، وبجيلة .

---

(١) إذا تباعدت الأنساب صارت القبائل شعوباً ، والعمائر قبائل ، والبطون عمائر وهكذا ، فتعد مضر مثلا شعباً ، وقريش قبيلة . وأكثر ما يدور على الألسنة من هذه الطبقات الست : القبيلة ثم البطن ؛ وقل أن تذكر العمارة والفخذ والفصيلة . راجع صبح الأعشى للقلقشندى ج ١ ص ٣٠٩ طبعة دار الكتب .

وقد تسمى القبيلة بحادث حدث كغسان ، وهو اسم لماء نزلت به بطون مختلفة من الأزد فسميت به . ولكن الكثير الشائع نسبة القبيلة إلى الأب .

وقد يلد أبو القبيلة أولاداً فينشأ عن بعضهم قبيلة أخرى تتسمى باسم جديد وتنتسب إلى هذا الولد النابه الذى اشتهر بشجاعة أو رياسة أو كثرة ولد .

وكان لكل قبيلة شيخ أو رئيس ، هو صاحب القول الفصل فيما ينشأ بين أفرادها من خصومات ، ولم يكنّ يحكم ببدع من الرأى ، أو مندفعاً وراء هوى ، بل كان يستهدى بالعرف المتبع فى القبيلة والعادات المتوارثة ؛ وهو يعلم تمام العلم أن عثرات اللسان لا تقال .

كان رئيس القبيلة ذا مكانة سامية فى نفوس أفرادها لما وقر فى نفوسهم له من التجلة والاحترام ؛ لأنه تميز بصفات دفعته إلى الصدارة فى مجتمعهم هذا ، فهو أشجعهم قلباً ، وأسخاهم يداً ، وأفصحهم يداً ، وأوسعهم صدراً ، وهو فى الوسط من قومه ينتمى إلى آباء توارثوا المجد كابراً عن كابر ، يحمل الكلّ ويفك العانى ، ويغيث الملهوف ويطعم الجائع ، وينصر الضعيف ويواسى المحزون ، هو من هؤلاء الذين قال فيهم زهير بن أبى سلمى :

وفيهم مقامات حسان وجوههم ... وأندية ينتابها القول والفعل
على مكثريهم رزق من يعتريهم ... وعند المقلين السماحة والبذْلُ
وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم ... مجالس قد يُشفى بأحلامها الجهل

فلم تكن سيادة الرئيس مبنية على الغلبة والقهر والاستبداد ، وإنما كان منشؤها الاحترام والإجلال . وإذا وجد بينهم من ساد لفضائله ، ثم ركب رأسه وغره سلطانه واستبد بقومه مثل كليب بن وائل ؛ فإن نفس العربى التى ألفت الحرية والعزة تأبى عليه أن يستكين طويلا لهذا الاستبداد من رئيس القبيلة . ومصرع كليب على يد جساس بن مرة وهو زوج أخته جليلة كانت نتيجة هذا البغى الذى لم يطقه العرب .

وكذلك لم يتأخر بنو أسد عن قتل حجر أبي امرئ القيس حين داخله الزهو، واستبد بهم، ولم يرع لهم حرمة، ولهذا السبب قتل عمرو بن كلثوم عمرو بن هند ملك الحيرة حين أرادت أمه أم أن تذل أم عمرو بن كلثوم.

ولذلك كانت مصانعة الرؤساء للأفراد لا تقل عن مصانعة الأفراد للرؤساء فالفرد فى ظل القبيلة كان يتمتع بقسط وفير من الحرية وليس الرئيس فى نظره سوى فرد امتاز بخلال وسجايا أهلته لأن يتبوأ هذه المكانة فى قومه، فإن انحرف عن الجادة زالت عنه الصفة التى أحلته هذه المنزلة، فليست الرئاسة متوارثة، ولا هى بالملك العضوض.

وكثير من هؤلاء الرؤساء اشتهروا بالحكمة ورجاحة العقل، وبعد النظر، وقد يُفزع إليهم فى الخصومات الأدبية والمنافرات والمفاخرات فى النسب وغيرها.

والقبيلة وحدة اجتماعية متماسكة، تحمى كل فرد من أفرادها، وتدافع عنه، وتطالب بدمه إن قتل، وهو يستصرخ بها فى الملمات، ويفزع إليها فى الشدائد، فتلبى دعوته، وتهب لنصرته، ولقد عَبَّر عن ذلك قُريط بن أُنَيف أحد بنى العنبر بقوله.

قومٌ إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إلى زَرافاتٍ ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا

وكما قال ودَّاكٌ المازنى

إذا استُنجدوا لم يسألوا من دعاهم ... لأية حرب أم بأى مكان

وليس هذا بدعاً فى الحياة القبلية. بل هو أمر فرضته طبيعة الحياة فى الصحراء — لأن كل فرد من أفراد القبيلة عرضة للمحن فى كل آونة فهو إما ساع فى سبيل العيش، وموارد الحياة قليلة يتنازعها الناس بل يتخطفونها — وذلك ما فيه من الاحتكاك بغيره

والتحرش بسواه ، وإما مدافع عن نفسه ، وفى كلا الأمرين فى أمس الحاجة إلى ملاذ يلوذ به وقت الشدة ، ونجدة تسعفه حين يَحْزِ بُه الضر ، ويتراءى له شبح الخطر .

ولهذا كان كل فرد يعتز بقبيلته ، ويشيد بمناقبها ومآثر قومه ومفاخرهم وأيامهم ، ويتعصب لها تعصباً تمكن من شغاف قلبه ، واستحوذ على لبه ؛ لأنه بدونه لا شيء فى هذه الفيافى الواسعة ، فهى وطنه ، وهى أهله ، وهى حماه ، وهى التى تمكنه من الاحتفاظ بالحياة .

وهذا التعصب جعل الفرد يفنى فى خدمة القبيلة ؛ لا ينظر لنفسه إلا على أنه جزء من مجموع ، فإذا قوى فللذود عنها ، وإعلاء شأنها ، وبسط سلطانها ، وإذا أثرى فلمساعدة ضعفائها ، ولتكريم ضيوفها ، ولفك أسراها ، ولدفع المغارم حين يدعى إليها ، وإذا كان شاعراً فللتغنى بمحامدها ، ورفع صيتها . وتخليد مفاخرها ، ولذم أعدائها ، والحط من شأنهم .

وقلما يعمل الفرد لنفسه كما نرى فى مجتمعاتنا الحضرية . وتلك فضيلة من فضائل القبيلة ، قوت ما بين أفرادها من أواصر . فالقبيلة حين تناضل فى سبيل الحياة تناضل مجتمعة . ونضال الجماعة يؤدى دائماً إلى تنمية الفضائل النفسية والجسدية ، بينما يؤدى نزاع الأفراد المتفرقين إلى الانحلال الخلقى ، وإلى شيوع التحايل بينهم .

قوت هذه الحياة القبلية التعصب فى نفوس الأفراد لقبائلهم ، ولكنهم حين صاروا أمة واحدة فى ظل الإسلام فيما بعد ، انقلبت هذه العصبية القبلية أمام الأعاجم إلى عصبية جنسية جعلت للعرب السيادة والغلبة فى كل مكان حلوا به ، وبذلك صبغوا البلاد الشاسعة التى احتلوها أيام الفتوح الإسلامية فى أمد وجيز بصبغتهم العربية ، ثم استحالت بعد قليل إلى ديار عربية لساناً وثقافة وديناً ، واستعصت بعد ذلك على كل من حاول أن يغيرها حتى بعد أن تقلص ظل الخلافة العربية وذهبت ريحها .

ولست أبرىء التعصب القبلى من مساوئ ، فقد جرَّ على العرب من المحن

والرزايا ما طوح بهم فى مهاوى التهلكة ، وذلك بعد أن ضعف أثر الإسلام فى قلوبهم ولعبت السياسة بألبابهم ؛ فأحيت ما مات من عصبياتهم القبلية ، فحملوا معهم إحن الماضى وأحقاده إلى الديار التى فتحوها ، فإذا فرغوا من العدو انقلبوا حرباً على أنفسهم حتى تضعضعوا وذهبت ريحهم ، وما نكبة الأندلس عنا بغريبة .

ولهذا التعصب القبلى مساوئ أخرى سنعود إلى ذكرها فى أمكنتها إن شاء الله .

وإذا كانت القبيلة تحمى الفرد ، وتهبه العزة والمنعة ، فليس معنى ذلك أن يستمرئ السفه والطيش ، ويجلب لها فى كل يوم شراً ، ويوقعها فى مرزؤة ؛ وإذا وُجد من بين أفرادها من كثر شره وعظم ضره ، وأساء إلى سمعة قومه ، تبرأت منه القبيلة ، وأعلنت انفصاله عنها ، ويسمى عند ذلك (خليعا) وهذه لعمرى عقوبة رادعة ، إذ بها يفقد هذا الشرير كل ماله ، ويلجأ إلى مختلف القبائل ضارعا علّ فيهم من يحميه ، ويدرأ عنه عادية الأيام . فإذا وافقت إحدى القبائل على أن تمنحه حمايتها سمى حليفاً لها أو مولى أو جاراً ، له كل ما لأفراد القبيلة من حق ورعاية ما دام فى جوارها متمتعاً بحمايتها .

ولقد كان لهذه الحياة القبلية أثر بالغ فى نفوس العرب ؛ لأن التعصب الشديد — ولو فى الحق — يولد الأحقاد والإحن فى القلوب ، وينمى العداوات بين مختلف القبائل ، وبذلك كثرت بينهم الحروب ولاسيما ومعيشة البادية ، وما فيها من محل وجدب ، وما يدفعهم إليه طلب العيش والماء والمرعى تهيئ كلها الأسباب لهذه الغارات والحروب ، وتجد لها فى القلوب هوى يشفى الغلة ، وينقع الحقد الدفين .

كما كان للقبيلة أثر بالغ فى الأدب ، فالشاعر ذو المنزلة كان يقف فنه وبيانه على خدمة القبيلة فتراه آناً واعظاً يبصرها مواضع الزلل ، ويرشدها إلى الحياة الجادة ، ويبذل لها النصيحة خالصة وهو المشهور بنضج الفكر وسداد الرأى ، فإذا أبت القبيلة

إلا مخالفته ، واللجاج فيما ذهبت إليه ، لم يجد أمامه سوى الانصياع لرأيها ، والسير في طريقها ولو رآه خطأ .

وهاك ما قاله دريد بن الصِّمة في ذلك :

فقلت لعارض وأصحاب عارض ورهط بني السوداء، والقوم شُهَّدى
علانيةً ظنوا بألفىْ مدجج سَراتُهم في الفارسي المسرَّد
وقلت لهم : إن الأحاليف هذه مُطنَّبَةٌ بين الستار وثهمد
ولما رأيت الخيل قُبْلا كأنها جرادٌ يبارى وَجْهه الريحُ مُغْتدى
أمرتهم أمرى بمنعَرَج اللِّوى فلم يستبينوا الرُّشدَ إلا ضُحى الغد
فلما عصونى كنت منهم وقد أرى غوايتهم وأننى غير مهتدى
وهل أنا إلاَّ من غَزِيَّةَ[1] إن غوت غَوَيتُ وإن ترْشد غَزيةُ أرْشُدِ

وسوف نرى عند الكلام على النابغة الذبياني أنه لم يأل جهداً في أن يمحض قومه النصح إذا ما احتاجوا إليه ، وأنه كان يعظهم في كثير من أمورهم ، ويريهم سبيل الرشاد كما رآه ، يحرضهم على القتال تارة ، ويثبطهم عنه تارة أخرى ، ويدلهم على قوة عدوهم وشدة بأسه ، إلى غير ذلك من الأمور التي تعنى بها القبيلة ، ولا سيما إذا كانت في حروب متتابعة مع غيرها كما كان حال ذبيان زمن النابغة . ومواعظ زهير وتبشيعه للحرب معروفة .

وكان الشاعر حين يشتد أوار الحرب لا يفتأ يذكر قومه بالحفاظ والثبات والصبر والدفاع عن العرض . استمع إلى قول يزيد بن خنظلة في ذلك :

من فرَّ منكم فرَّ عن حريمه وجاره وفر عن نديمه

---

(١) غزية : رهط الشاعر وهو من جشم .

وإلى قول سعد بن مالك فى حرب البسوس يحرض الحارث بن عباد وقومه على القتال وكانوا قد اعتزلوا الحرب :

يا بؤس للحـــرب التى وضعت أراهط فاستراحوا
والحرب لا يبقى لجـــا محها التَّخيـــلُ والمِراح
إلا الفتى الصبار فى النـــجدات والفرس الوَقاحُ (١)
والكر بعـــد الفر إذ كُرِه التقدم والنطاح
كشفت لهم عن ســـاقها وبدا من الشر الصُّراح
بئس الخلائف بعـــدنا أولادُ يَشْكُرَ واللَّقاحُ (٢)
صـــبراً بنى قيس لهـــا حتى تريحوا أو تراحوا
إن المُوائل خَوْفَهـــا يعتاقه الأجل المُتَـــاحُ (٣)
هيهات ! حال الموت دو ن الفوتِ وانتُضى السِّلاحُ
كيف الحيـــاة إذا خلت منـــا الظواهر والبطاح ؟
أين الأعزة والأســـنة عند ذلك والسَّماح ؟ !

وكان الشاعر كذلك لسان القبيلة الذرب يدافع عن حقوقها ، ويمدحها ، ويبين فضلها وشرفها ، وفضائل ساداتها وأجوادها وفرسانها ؛ ويرد على أعدائها ، ويدحض حججهم ، ويهجوهم ويعيرهم ؛ ومن أمثلة ذلك قول أعرابى يعير أعداء قبيلته بالجبن :

كاثر بسعد إن سعداً كثيرة ولا تبغ من سعد وفاءً ولا نصراً
يروعك من سعد بن عمرو جسومها وتزهد فيها حين تقتلها خُبرا

---

(١) الوقاح : الشديد الحافر . (٢) هم بنو حنيفة .
(٣) الموائل : طالب الملجأ والموئل ، وخوفها نصب على نزع الخافض ، يعتاقه : يمنعه .

ويقول آخر يصف أعداء قومه باللؤم :

أناخ اللؤم وسْطَ بنى رياح مطيتــــه فأقسم لا يريم
كذلك كل ذى سفر إذا ما تناهى عنـــد غايته مقيم

وخير مثل للفخر بأمجاد القبيلة وماضيها والإشادة بذكر سادتها وأفعالهم معلقة عمرو بن كلثوم حتى ضرب بها المثل .

ومن أمثلة ذلك قول ضرار بن الخطاب الفهرى يصف انتصار قريش على هوازن فى يوم عكاظ :

ألم تسأل الناس عن شأننا ولم يُثبت الأمر كالخابر
غداة عكاظ إذ استسلمت هوازن فى لِفِّها الحــــاضر
وجاءت سليمٌ تهز القنا على كل سَلْهبة ضامر
وجئنا إليهم على المضمرات بأرْعن ذى لَجبٍ زاخر(١)
فلمـــا التقينا أذقنـــاهم طِعاناً بسمر القنا العــــائر
ففرت سليمٌ ولم يصبروا وطارت شعاعاً بنو عامر
وفرت ثقيف إلى لاتهـــا بمنقلب الخائب الخــــاسر

وكان الشاعر يعبر بعد المعركة عن شعور قبيلته تمام التعبير . فإما منتصرة مزهوة فيشيد بانتصارها ويفخر ، وإما منتصرة نادمة لقرابة المنهزمين ومتانة الصلة بهم فيتأسف ويتندم ، وإما مندحرة فيتوعد ويؤاسى .

استمع إلى قيس بن زهير العبسى فى قتله حَمَل بن بدر فى حرب داحس والغبراء وكيف يتندم على قتله ، ويبكى لمصرعه .

(١) يصف الجيش .

شفيتُ النفس من حمل بن بدر وسيفى من حُذَيفَةَ قد شفانى
فإن أكُ قد برَدْت بهم غليلى فلم أقطع بهم إلا بنـانى

واستمع إليه كذلك يقول :

تعلم أن خـير الناس مَيْتٌ على جفْرِ الهباءة لا يريم
ولولا ظلمه لظللت أبكى عليه الدهر ما طلع النجوم
ولـكن الفتى حَمَل بن بدْر بغى والبغى مرتعة وخيم

ويقول الحصين بن الحمام المرّى :

صبرنا وكان الصبر منا سجية بأسيافنا يقطعن كفاً ومعصما
نُفَلِّق هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

وكان للنابغة الذبيانى فى هذا المضمار باع طويل ؛ لأن الحرب كانت طويلة شاقة بين قومه وأحلافهم ، وبين بنى عبس . ولم يدع النابغة — فيما وصلنا من شعره — فرصة دون أن يشيد فيها بقومه وأحلافهم وانتصاراتهم ، ويذم أعداءهم ويهجوهم هجواً مراً .

وكان الشاعر ، كذلك ، مؤرخاً يدون الحوادث المادية للقبيلة : يذكر أيامها ، ومفاخرها ، ومياهها ، وضيافتها ، وانكسارات أعدائها .

وسنرى أن النابغة الذبيانى قد دون فى شعره كثيراً مما مر بقومه من أحداث فى غاراتهم على ديار الغساسنة ، وأسرهم ، وفى حروبهم مع عبس فى حرب داحس والغبراء .

وبهذا شغلت القبيلة وأمورها كثيراً من تفكير الشعراء وأقوالهم ، ولا غرابة فى هذا فالشاعر الجاهلى كان يرى فى القبيلة وطنه ، ومفاخره ، وعصبيته التى يعتز بها ، وهو فرد منها عليه أن يؤدى واجبه ازاءها بكل ما أوتى من قوة ، وقوته فى بيانه وشعره ، والعرب يقدرون الفصاحة ، ويخافون مأثور الكلام ، فلا بدع إذا كانت القبيلة تهنأ حين ينبغ فيها شاعر يرفع ذكرها ويخلد مآثرها .

— ٢ —

الصحراء :

فضاء واسع رحب ، يمتد فيه البصر مسافات شاسعة فلا يقف فى سبيله عائق ، وبحر من الرمال المختلفة الألوان ، وكثبان متباينة العلو ، وجبال سامقة رهيبة جرداء موحشة ، وشمس ساطعة صارمة ، تصب فوق البيد شآبيب من شواظ يتلظى لهبا : فإذا أقبل الليل جرى النسيم عليلا حلواً ، وتزينت فيه السماء بمصابيح النجوم المتلألئة وبوجه القمر الباسم . وليس فى الصحراء من معالم الحياة إلا القليل ، فثمة واحة بها نبع صاف يترقرق ماؤه عذباً تحت ظل نخلة باسقة ، أو بعض الأوابد كالعين والآرام وضوارى الدو تسعى فى سبيل المحافظة على الحياة .

ماذا عسى البدوى أن يشاهد فى الصحراء ؟ : ضوء غامر قوى ، وحرارة شديدة محرقة ، وسماء صافية ، ونجوم متلألئة ، وريح مندفعة ، وجبال شامخة ، وسيل متدفق ، وماء عذب ، وظل كريم ، وسمت مستقيم ، وأفق واضح .

هذه هى الصحراء ، بيت البدوى الرحب الذى يراه بين يديه صباح مساء فى حله وترحاله ، وهذه هى الطبيعة الرهيبة الجميلة تتجلى أمام ناظريه دون حجاب .

كان العربى يعيش فى خباء من النسيج تهزه الريح كلما هبت ، وتقتحمه العين إذا بدا ، وتطويه اليد عند الرحلة ، ويضعه فوق راحلته فى سفره ويجلس فوقه ، وفيه كل ذكرياته الحبيبة من طعام وشراب وسمر ، وهو يهتز فوق قلوصه ، وما للأفق أمامه من نهاية ، وضوء الشمس يغمر الوجود من حوله فيغمر نفسه حتى لا يدع فيها زاوية لم تسطع فيها الشمس .

كل شىء أمام ناظريه واضح جلى ، وليس بينه وبين الطبيعة حجاب ، فهو يراها قوية ، بينة باهرة : حرارة ، وضوء ، ورمال ، وسماء .

. يقتله الظمأ وهو فى سفره ، فيسعى حثيثاً إلى نبع صاف فى منعطف الوادى كى يروى غلته ، وينقع ظمأه ، فإذا هو بعد أن يرتوى أسعد الناس طراً ؛ ويشوى جلده وهج الظهيرة فإذا لاح له ظل نخلة دلف إليه ، واستراح تحته فإذا هو أهدأ الناس قلباً ، وأرخاهم بالا ، وأشدهم مسرة ، وأعرفهم بقيم النعمة .

إنه يهرب من الطبيعة إلى الطبيعة ، والصحراء هى بيته الكبير يتكئ فيه على حشايا من الرمل الناعم الأملس ، ويحتضن الكثبان الصغيرة ، ويسمر بالليل تحت ضوء القمر الجميل ، والنجوم المتلألئة ، مع خلانه وخلصانه ، يستعيدون الذكريات الحبيبة ، ومغامراتهم فى سبيل الرزق ، ومكافحتهم للطبيعة ، وتجارب من سبقهم فى مهيع الحياة ، وإذا نام نام فى كنف الطبيعة تحت خبائه يرى النجوم اللامعة ويسمع هزيم الريح ، وهدير الرعد ، وإرزام الراحلة .

فالطبيعة بكل مظاهرها لا تتركه ليلا ولا نهاراً ، فهو يعيش معها أبداً . وقد نجم عن ذلك إلغاء العقل الباطن عند هذا العربى ربيب الصحراء ، وبسطت الطبيعة فى عقله الواعى ؛ فهو حين يفكر فيها ، ويتأمل فى مشاهدها ، وحين يفكر فى مبدعها وقدرته لا يفكر من وراء جدر سميكة ، ولا تعتوره مخاوف مفزعة ، لأنه ألف طبيعة الصحراء ، وما فيها من شدة وقسوة حين يهدر السيل ، أو يقصف الرعد ، أو تزمجر الريح الزفوف ، أو تثور عواصف الرمال ، وما فيها من لين وجمال حين تهب النسائم البليلة ، وتضوع رائحة الخزامى والعرار ، وحين يلبس الوادى غب القطر ثوباً مفوفاً بمختلف الأزهار البديعة الألوان .

فى كل هذا لا تدع له الطبيعة بضوئها الشديد نهاراً ، ونورها الباهر ليلا أن يختزن في نفسه سراً ، أو أن تكون ثمة هاوية فى عقله تتساقط فيها الرغبات التى لا تحقق لأن كل رغبة حيل بينه وبين تحقيقها يعلم جِدّ العلم ، وبكل وضوح لماذا لم يحققها ، ثم رغباته محدودة أعظمها لديه : الماء والظل .

وبإلغاء العقل الباطن صارت أفكار العربى كلها بين يديه ظاهرة جلية ، وصارت وجهة نفسه وجهة يقين لا شك . وبذلك ألغيت (الوساطة) فى الشعور والتفكير والتعبير .

وهذا هو السر فيما نلمسه فى الشعر الجاهلى ، وفى التفكير العربى ، من صفاء الفكرة ووضوحها ، والقصد إلى الهدف دون التواء أو غموض ، فى أوجز لفظ ، ومن أقصر طريق .

وهذا هو السر فى أن أدبهم واقعى يتحدث عن الطبيعة كما هى بدون اختلاق أو تزيد ، ويصورها تصويراً دقيقاً ملوناً بعواطف الشاعر وأحاسيسه إزاءها ، من غير كذب أو نفاق ، أو ادعاء أو افتراء عليها .

ولا بدع فقد ألفت نفس هذا العربى الذى يقطن البادية الفضاء الفسيح ، وامتلأ قلبه بهذا الإحساس القوى الطبيعى بأنه حر طليق ، لا تقيده أرض ، ولا تعرقل تفكيره تلك القيود والعوائق التى تحد من حريته الشخصية .

تلحظ فى البدوى لأول وهلة الصرامة والوضوح فى العقيدة — لا يقبل الوسط من الأمور ، فالشىء إن لم يكن أبيض فهو أسود . وتقوم حياة هؤلاء البدو على الإيمان ، ويحقرون الشك الذى فرضته المدنية والتحضر .

يعرفون الصدق أو الكذب ، والإيمان أو الكفر بدون تردد ولا ريب ولا منزلة بينهما ، وهم قوم صرحاء صراحة الأبيض من الأسود ، ليس فى الظاهر فحسب وإنما فى صميم أعمالهم ؛ صرحاء حتى فى الخصومة .

وقد أورثتهم مواجهة الطبيعة فى كل آونة — وهى سريعة التبدل والتلون ، ولا يؤمن جانبها — حضور البديهة ، والذكاء اللماح ، والسرعة فى العمل ، والوصول إلى الهدف من غير تردد أو تلوم . كما أورثتهم الإحساس الدقيق ، والشعور المرهف والعاطفة الجياشة ، وجعلت لهم أمثلة عليا اقتضتها حياة البادية وصاروا يتغنون بها .

ويسعون حثيثاً لتحقيقها من مثل : الكرم ، والنجدة ، وإغاثة الملهوف ، والوفاء بالوعد والشجاعة والذكر الحسن .

والقول بأنه ليست لهم فنون جميلة كما كان للإغريق أو الرومان أو الشعوب الآرية قول خاطىء . « وإذا كان الفن قاصراً على التصوير أو النحت مثلا فربما كانت هذه التهمة صحيحة ، ولكن ذلك تحديد ظالم للفن لا مبرر له ، فالفن هو كل ما يعبر عن الشعور الجميل ، ومن المشكوك فيه أن يوجد شعب سلب نعمة التعبير عن الشعور الجميل فى أية صورة من الصور سواء كان ذلك رقصاً أو موسيقى أو صناعة الخزف أو الزخرفة .

والطريقة التى عبر بها العرب عن أحاسيسهم الجميلة (وإن لم تكن الطريقة الوحيدة) هى فن القول ، وهو أقوى الطرق إغراء وإقناعاً ، وأعظمها خطراً [1] » .

أجل مهر العرب فى فن القول ، وكان عندهم فى الجاهلية الشعر وهو أعلى صور البيان وأشدها سطوة ، وأوسعها انتشاراً . وقدروه قدره وصاروا يخشون قالة السوء تشيع على أحدهم ، أو ترمى بها قبيلة من قبائلهم فتكسبهم الخزى والعار .

وقد كثر فى شعرهم ألوان الحكمة مصوغة صياغة متقنة ، وما الحكمة إلا حقيقة مجردة تدل على تفهم لأسرار الوجود ، وعلى الإحاطة بالنفس البشرية ، فيصدر الشاعر الحكيم قوله ، وتراه ينطبق على كثير من الناس مهما اختلفت عصورهم وبيئاتهم .

وهذا الشعر الجاهلى غاص بالعواطف السامية الرفيعة : كالحب ، والرثاء والعتاب ، والاعتذار ، والوصف للمناظر الخلابة ، فى بيان مشرق ، وإتقان تام .

لم يكن للعرب أساطير وخرافات دينية وفلسفات معقدة ، وأنّى لهم هذا والطبيعة السافرة التى لا يتركونها برهة من حياتهم لم تدع لهم أى مجال لاختزان الأسرار أو الشك فى بارئها .

---

(١) H. A. R. Gibb. Mobern Trends in Islam P. 5.

وإذا كانت الطبيعة التى ألهمت الجنس الآرى الأساطير والخرافات طبيعة صارمة قاسية ، تبث فى نفسه الرعب ، وجعلته يتملقها ويؤله عناصرها المتباينة ، ويقدم القرابين لمختلف الآلهة ، فإن الطبيعة التى ألفها العربى فى الصحراء كانت صديقة ، قبلها على علاتها ، وشعر فيها بالتوحيد ، ووصل إلى حقيقة الخالق دون أن يضل سواء السبيل .

لقد عيب على العرب أنه لم تكن لهم (ميثولوجيا) أى خرافات دينية كما كان عند اليونان ، وليس أبعث على الضحك من التنويه بعظم العقلية اليونانية ، وما رزقته من عبقرية لأنها آمنت بالخرافات ، وألهت الأشخاص والأبطال ، والتمست الطريق إلى الحقيقة فضلت ، وأمعنت فى الأساطير من غير أن تصل إلى الله .

إذا كانت الخرافات والأساطير وليدة الخيال ، فهو خيال أمة ملك الرعب من الطبيعة أزمة أفئدتها ، واستحوذ على كل مشاعرها ، وامتلأت مخيلتها بشتى الأوهام ، شأن الطفل الذى لايدرك الحقائق ، وإنما يفزع من أمور لاوجود لها ، ولكن خياله الساذج يجسمها ، فيحسب الظل إنساناً وهزيم الرعد حيواناً ، وزفزفة الريح ملائكة أو شياطين غاضبة .

أما الأمة العربية فى جاهليتها التاريخية ، فقد كانت أمة درجت شوطاً غير قليل فى حياة النضج العقلى ، ولم تعد أحلام الحداثة ، وأوهام الطفولة تروق لها . شأن الإنسان اليافع أو الشاب الناضج . ولا سيما قد بسطت الصحراء وتلك الطبيعة التى يعيش معها البدوى ليل نهار — لا تكتم عنه سراً ، ولا تختزن دونه أمراً — من عقله الواعى ، فانكمش عقله الباطن .

وصار العربى نتيجة هذه اليقظة العقلية ينظر إلى الوجود ومشكلاته نظرة واعية بعيدة عن الأوهام والخرافات ، وقد وصل فى قرارة نفسه إلى معرفة خالق الوجود فآمن به ، وإن حاول أن يصل إليه أحياناً عن طريق الأوثان والأصنام فذلك لأنه لم يبلغ من النضج العقلى درجة الكمال ، ولم يكن حظه من المعرفة والعلم إلا حظاً قليلا

نتيجة تجربة شخصية ، وحياة ساذجة فطرية ، وإذا سئل عن هذه الأصنام فى أية لحظة من لحظات حياته : أهى آلهة ؟ أنكر فى جزم ألوهيتها ، واعترف بالله ، وأقر بأنها توصله إلى الله ، وقال : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » وقال : « وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

وليس معنى هذه العقلية الواعية أنه لم يكن للعرب خرافات ألبتة ، فكل أمة مهما بلغت من العلم والمدنيـة لها خرافات وأساطير ، حتى فى عصرنا هذا — عصر المادة والعلم — يؤمن كثير من جمهرة الغربيين بخرافات شتى .

كان العرب يعتقدون فى الجن ، وأن ثمة أودية تغص بهم ، وأن الجن يوحون إلى شعرائهم رائع الخيال ، وجميل الشعر ، وكانوا يتفاءلون ويتشاءمون ويزجرون الطير وغير ذلك من الخرافات التى لم يكن لها أثر كبير فى حياتهم .

ولكن شتان بين هذه الخرافات وتلك ، فبعض هذه الخرافات لازال مما يعتقده كثير من أهل الغرب المتمدين الذى بلغ شأواً غير قليل فى العلم والحضارة ، ولا سيما تلك التى يتشاءم منها ، ولعلها موروثة من المراحل الأولى للأنسانية ، فى العصور التى كان يعيش فيها الإنسان بالغابات أو الكهوف ، يكمن له فى كل ثنية خطر ، ويهدد حياته فى كل مرتقى وحش ، ولا يدرى حين يذهب سعياً وراء القوات أيعود لأسرته أم لا يعود .

أما الخرافات الأغريقية ، والأساطير الدينية التى آمنت بها تلك الأمة ، والتى يجدها الغربيون من أجلها ، فهى خرافات شكلت نظام حياتهم ، وتغلغلت فى حنايا نفوسهم ، وقد كفر العقل الإنسانى بهذه الخرافات حين شب عن مراحل الطفولة ، ودرج فى سلم العلم والمدنية خطوات ، وآمن بالله كما آمن العرب فى جاهليتهم .

ولو كانت هذه الخرافات والأساطير جديرة بأن يؤمن بها الإنسان الكامل فى يقظته العقلية التامة لظلت أوربا تؤمن بها ، وتعبد الآلهة المتعددة ، والقوى الطبيعية ، ولم تؤمن بالمسيح .

لقد اتسمت العقلية العربية فى أدبها الجاهلى بسمة الواقعية ، ولم تلجأ إلى ذلك

الضرب من الخيال الذى صورته المشاعر الفزعة ، والعقول المضطربة القلقة ، وربما كان للعرب أوهام مثل ذلك فى جاهليتها الأولى ، ولكنها لم تصل إلينا ؛ لأن الأمة العربية حديثة التكوين فى التاريخ ، ولأن اللغة لم تكن قد توحدت حتى تروى بها مثل هذه الخرافات ؛ ولكن نشك فى أن الصحراء ، والمعيشة فيها تنتج مثل ذلك .

أما الفلسفة المعقدة ، فليست كذلك من نتاج البادية ، لأن العربى كان قليل الاهتمام بما وراء الطبيعة ؛ ولم يهتم بذلك ، وهذه هى الطبيعة ذاتها متجلية له بكل أسرارها فى وضح النهار تحت ضوء الشمس الضاحية ؟

ثم إنه أقل الناس قلقاً فى الحياة ، قَبِل الحياة على علاتها ، بسرائها وضرائها ، ولذلك لم يعرف العرب فى جاهليتهم الانتحار ، ولم يفزعوا من الموت ؛ ولذلك لم تتعقد أمامهم الحياة حتى يفكروا فى مشكلاتها .

ثم إن طبيعة الخصب والرخاء ، واعتدال المناخ ويسر الحياة تميت فى النفس الإنسانية حوافز الكفاح والنضال ، فتموت من ورائها كثير من الفضائل ، ويصبح انكباب الناس على ما تحت أقدامهم من لذات القوت ، ومتع النساء ؛ وما يصحب التفانى فى صيانة هذه اللذات والمتع من شهوة بناء القصور ، وغرس الحدائق ، وصناعة التحف ، وزخرفة الأوانى ، مؤدياً فى النهاية إلى ظفر فرقة قليلة من الناس بكل شيء ، وحرمان الكثرة العاجزة كل شيء .

ولما كان نضال هذه الكثرة فى سبيل مساواتها بالآخرين مستحيلا لفقدانها هذه القوة النفسية التى تكافح بها ، انبعثت من صميم هذه الكثر قوة جديدة مناسبة هى قوة الأحلام والتصورات ؛ لتحل أزمة الحرمان الذى تعانيه ، وتعالج حرج العجز الذى تشعر به ، فكانت فلسفات ، وكانت قصص ، وكانت أوهام ، تعبر عن ذلك الأمل المكبوت . وعن رغبات مخزونة فى زوايا العقل الباطن لم تتحق .

وليس كذلك العرب فى الصحراء ؛ فهم فى ميزان الحياة سواء ، مواردهم محدودة ، فلا مجال للاكتناز والغنى المفرط ، وليس ثمة قصور ودور ، وإنما هى أخبية تطوى ،

ومتاع قليل ، وبذلك امحت من بينهم تلك الفوارق الاجتماعية ، ولم يشعر فريق منهم بالحرمان ، ومن ثم لم تكن أوهام وأحلام . وإنما هى الحقيقة يفتنون بها ، ويسعون جهدهم لإدراكها ، والتعبير عنها .

لقد كان للصحراء أثر قوى فى الشعر العربى ؛ فهى التى أوحت للشاعر بأسلوب القصيدة وعناصرها .

يمر على ديار الأحبة — وقد ظعنوا — فتهيج آثار الديار والدمن الباقية مشاعره ويتذكر فى حسرة أويقات أنسه ، وساعات سمره مع خلانه وإخوانه ، ويتذكر الحبيبة ، وما كان يتمتع به فى هذه الملاعب والدور من لهو برىء ، وغزل عفيف . فيقف بهذه الديار يذرف دمعة على ذلك الماضى الجميل . ويتبع بنظراته أثر الظعائن ولكن أنّى له أن يراها أو يدركها . وسرعان ما تثوب نفسه إلى رشدها ، فينقطع حبل الذكريات ، وينصرف إلى رحلته لا يلوى على شىء :

وهو فى هذه الرحلة يعتمد على ناقته فهى التى تجوب به الفيافى ، وتقرب له البعيد ، وهى التى تؤنسه فى هذا الفضاء المتسع ، وتلك القفار الشاسعة ، فلا بدع إذا خصها بالذكر ووصفها وصفاً جميلا ، وشبهها فى انطلاقها وسرعتها بوحوش الدوّ التى يشاهدها فى رحلته فآناً يشبهها بثور الوحش وقد أحس بالصياد فنفر وأطلق ساقيه للريح ، وآناً بالحمار الوحشى ، وآناً بالظبى الشارد النفور .

وهو فى وصفه هذا يستطرد استطراداً جميلا ، ويصور صوراً حية ناطقة من حياة الصحراء ، لا يزال لها روعتها وجلالها وجمالها حتى اليوم ، ولو ترجمت إلى أية لغة لرأى فيها الناس ذلك الجمال وهذه الروعة . إنها صور واقعية ليس فيها تزيد أو اختلاق ، وجمالها فى هذه الواقعية الطريفة الصادقة التصوير .

ثم يصل الشاعر إلى نهاية رحلته ، ويصل فى نفس الوقت إلى الغاية من قصيدته فيمدح أو يحرض على القتال ، أو يسوق الحكمة ، أو يعتذر أو غير ذلك من أغراض الشعر الجاهلى .

لقد عيب على القصيدة الجاهلية أنها غير مرتبطة الأجزاء ، وليست لها وحدة فقد يتغير ترتيب الأبيات في القصيدة دون أن يغير ذلك المعنى العام لها ؛ لأن كل بيت مستقل في معناه تام بنفسه .

وليس كذلك الفن الغربي ، فثمة وحدة وانسجام في القطعة الفنية ، ولو تغير ترتيب الأبيات لأخل بالمعنى كله .

لقد كانت القصيدة العربية كذلك ، ولكن مما لا ريب فيه أن ثمة وحدة فكرية تربط بين أجزائها في عقل الشاعر ، وأن هذا المراحل والعناصر طبيعية في تلك البيئة الصحراوية ، وفي أمة ناشئة في الآدب ؛ لأن الأدب الغربي لم يتطور ، ويتغلب على هذه المحنة إلا في العصور الوسطى ، والعربي كان ينشد الشعر ولم يكن يؤلفه تأليفاً .
إنه كان يرتجل في كثير من الأحيان وكان شعره نوعاً من الخطابة المنظومة .

ويقول العلامة (جب) في ذلك : « الخلق الفني لدى العرب سلسلة من بواعث منفصلة ، كل منها تام ومستقل بنفسه ، لا يربط بينها غاية أو انسجام أو إتقان ، اللهم إلا وحدة العقل الذي أبدعها .

أما الفن الغربي ، ولا سيما منذ العصور الوسطى ، فقد تطور حتى عاد سلسلة من الأمور المعقدة تضفي على الفن انسجاماً ، وتربط بين عناصره الكثيرة ، وتروق للعقل كما تروق للشعور .

بيد أن فن القول — من جهة أخرى — عند الغربيين وعند العرب على السواء ، لا يزال يحتفظ بطابع البساطة والتفكك ، بل لنا أن نقول (بطابع بدائي) ؛ ولهذا السبب كان له سطوة وقوة قاهرة على خيال الفرد وعلى خيال الجمهور ، وقد تبلغ هذه القوة حداً تعوق فيه المقدرة على تكوين وحدة أو انسجام »[1] .
ونحن نعلم أن الفن الذي برع فيه العرب هو فن القول . ولست أرى في طريقة العرب في التفكير والخلق الفني عيباً كما يدعي الآخرون ، فإن هذه الفترات الشعورية المتقطعة ، وهذه النظرات الجزئية ، تجعلهم ينفذون إلى صميم الشيء ، ويحيطون بكل

(١) H. A. R, Gibb . Modern Trends in Islam . P . 6

دقائقه ، وعلى العكس من ذلك تلك النظرات الشاملة التى ترى الشىء من جميع أطرافه فإنها قلما تصل إلى الأعماق . وقد أفادت هذه الطريقة العرب فى عصر نهضتهم العلمية فاهتموا أثناء تجاربهم بالتفاصيل ، وقلبوا المسائل على شتى وجوهها ، وقتلوها بحثاً ؛ وعنهم اقتبس الغربيون هذه الطريقة فى البحث العلمى .

وإليك ما قاله العلامة (جب) فى هذا الموضوع : إن تركيز التفكير العربى على الحوادث الفردية قد مكن علماء المسلمين من تحسين الطرق التجريبية فى البحوث العلمية إلى درجة أعلى بكثير ممن سبقوهم من علماء اليونان أو الاسكندرية ولست أريد أن أسهب فى هذا الموضوع ، ولكنى أظن أن من المتفق عليه أن عناية باحثى المسلمين بالتفاصيل والجزئيات قد ساعدت تقدم المعارف العلمية مساعدة محسوسة ، وعنهم أخذت أوربا فى العصور الوسطى هذه الطريقة التجريبية »[1] .

هذا ولم يدع العربى الجاهلى فى الصحراء شيئاً لم يصفه ، بتلك النظرة الفاحصة النافذة ، وبهذا الإحساس المرهف بكل ما يحيط به ، فوصفوا من الحيوان كل ما ضمته الصحراء فى فجاجها وآجامها : وصفوا الإبل وافتنوا فى ذلك افتناناً عجيباً ؛ لأنها كانت عزيزة عليهم ، وهى أكبر مساعد لهم فى حياتهم ، ووصفوا الخيل فى ضروب خلقها وأحوال سيرها ، ووصفوا من وحوش الفلاة الأسد ، والضبع ، والذئب ، والظباء ، والأوعال ، والحمر ، والبقر ؛ ومن الطير : الحمائم وبكاءها ، والعقبان ، والرخم ، والنسور ، وغراب البين ، والبارح منها والسانح ، ومن الهوام : الحيات ، والأفاعى ، والصلال ، والعقارب .

ووصفوا من النبات الكلأ والعشب ، والمراعى ، والشيح ، والقيصوم ، والعرار والخزامى ، والنخيل ، والحدائق الملتفة .

ووصفوا السحاب المتراكم يسوق بعضه بعضاً ، والأمطار الغزيرة ، والرياح ، والبرق ، والرعد والسراب ، والسيل المتدفق .

---

(١) H. A. R. Gibb. Modern Trends In Islam. P . 8

ووصفوا السماء والنجوم والشمس والقمر وصور الكواكب وألوانها. ووصفوا الفيافى المقفرة، والشعاب، والفجاج، والأودية، والهضاب، والأحياء والمنازل، والمرابع، والمصايف، وأجادوا فى وصف الديار، والأطلال.

ووصفوا الغدران والآبار والتلع.

كل ذلك فى صور بديعة خلابة، صادقة التصوير، متقنة الأداء، تنقل إلى السامع أوالقارئ إحساس الشاعر كاملا، على الرغم من ميلهم إلى الإيجاز، ولكن طريقتهم وذلك التفكير المباشر غير الملتوى أو المعقد جعل معانيهم مفهومة، وإحساسهم بينا، وأسبغ على شعرهم جمالا فطريا خلابا.

وكان من الطبيعى كذلك أن يلجأ الشعراء إلى الصحراء وما حوت من حيوان ونبات، وإلى الطبيعة التى يشاهدونها من: سماء صافية الأديم، وشمس ضاحية متوهجة، ونجوم لامعة براقة، وجبال متجهمة شامخة، وسيول متدفقة سريعة، وسحاب كثير متراكم، وبرق لماح يخطف البصر؛ ورياح بين زفوف ورخاء — كان من الطبيعى أن يلجئوا إلى كل ذلك يستمدون منه تشبيهاتهم؛ لأن هذه المناظر تلح على حواسهم صباح مساء، فتشبعت بها مخيلتهم، ولم يجدوا لهم مندوحة حين يتغزلون فى النساء، أو يمدحون، أو يصفون الأناسى أو يهجون أو يطرقون أى موضوع من موضوعات الشعر إلا الالتجاء إلى الطبيعة التى تقع عليها حواسهم تلهمهم ألوان التشبيه وكثيراً من الصور المتباينة؛ لإيضاح المعانى التى يريدونها. والأمثلة أكثر من أن تذكر فامرؤ القيس حين يصف الحصان فى كره وفره، وسرعته واندفاعه يشبهه بجلمود صخر حطه السيل من أعلى الجبل.

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً   كجلمودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السيلُ من عَلِ

وطرفة حين يصف الوجه الجميل يتخيل أن الشمس قد خلعت عليه رداءها، فيقول:

كأن إياة الشمس ألقت رداءها   عليه نقى اللون لم يَتَخَدَّدِ

وزهير حين يتكلم على الظعائن ، وما تركنه من آثارخلفهن فى رحيلهن ، ويصف العهن الذى تناثر هنا وهناك لا يجد إلا حب الفنا الأحمر الذى ينبت فى الصحراء يشبه به ذلك العهن .

كأن فُتات العهن فى كل منزل ترلهن به حَبُّ الفَنا لم يحطَّم

وعيون المرأة الجميلة تشبه فى سعتها عيون المها ، وفمها الألمى وثغرها الباسم يشبه الزهرة البيضاء التى بللها الندى واحتضنها الرمل ، وجيدها فى طوله واستوائه يشبه جيد الظبي وقد مده ليتناول بعض أوراق الأشجار ، ومشية المرأة الممتلئة تشبه مر السحابة على حد قول الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل

ولو رحت أعد تلك التشبيهات التى أخذها الشعراء الجاهليون من الطبيعة التى تحيط بهم لما استطعت إلى ذلك سبيلا ؛ لأن الشعر الجاهلى كله مدين للصحراء وللطبيعة بكل ما فيه من تشبيهات وخيال وصور .

وسنرى أن النابغة الذبيانى كان مخلصاً للصحراء ، متأثراً بالطبيعة التى أحاطت به ، شأنه فى ذلك شأن كل الشعراء الجاهليين ، وإن امتاز عنهم فى الوصف بميزات سنذكرها بعد ، وإن أفاد من رحلاته إلى ملوك الحيرة والشام فلم يقصر تشبيهاته وصوره على ما رأى فى الصحراء..

— ٣ —

حروب ذبيان :

كانت جمهرة العرب العدنانيين بدواً ، يقطنون الصحراء ، وقد رأينا فيما سبق كيف أن طبيعة الصحراء قد أثرت فى تفكيرهم وخيالهم ، بيد أن أثرها لم يقف عند ذلك الحد فقد كان لها أثر اقتصادى كبير ، شكل طباعهم وعاداتهم ، وفرض عليهم نهجاً خاصاً فى الحياة انعكس على آدابهم ومأثور كلامهم .

ولست أريد أن أخوض فى وصف الجزيرة العربية ، ومناخها وطبيعة أرضها ، وإنما الذى يعنينى هو تلك البقعة التى كانت تقيم فيها قبائل غطفان بعامة وذبيان بخاصة على أن هذه البقعة ليست جزءاً منفصلا عما يجاوره من الديار ، كما أن قبائل غطفان لم تكن مستقلة عما سواها من القبائل لا تخالطهم ولا ترحل إليهم ، ولذلك كان لزاماً علينا أن نتكلم عن شمالى نجد حيث كانت تقطن هذه القبائل .

كانت قبائل غطفان ، وأشهرها عبس وذبيان ، تقيم فى الشمال الغربى من نجد بين وادى القرى شرقا ، وجبلى طيء : أجأ وسَلمى غرباً ، ووادى السرحان فى بادية السماوة شمالا ، ووادى الشَّربة جنوباً .

وهذا الجزء من الجزيرة العربية يقع فى صحراء النفود ، وليس فى الصحراء العربية عامة أنهار جارية ولكن بعض مجار أو نهيرات صغيرة ، قل منها ما يدوم ماؤه ، ومن ذلك وادى الشربة فى ديار غطفان ، وماؤه ملح لا يصلح للشرب وفى ذلك يقول الحارث بن ظالم المرى الذبيانى :

فلو طاوعتُ عمرَك كنتُ فيهم ... وما أُلفيتُ أنتجعُ السحابا
ولا ضِفتُ الشَّرَبّةَ كلَّ عام ... أجدَّ على أبائرها الذُّبابا
أبائر ملحةٍ بحزيز مَوْه ... تبيت سُقاتُها صَرْدى سِغابا[1]

وكذلك كان وادى السرحان ملحاً ، تكثر فيه البحيرات الملحة ، وتجود السماء على ديار غطفان شتاء ، فتهتز الأرض وتربو وتنبت العشب الذى ترعاه الماشية فى الربيع . وعلى هذا المطر يعتمد البدو ، ويسمونه الغيث ؛ لأنه يغيثهم وينقذ حياتهم ، ويسمونه كذلك الحيا .

وأرض نجد بعامة خصبة تستجيب للغيث ، وتخضر فى الربيع ، وتنمو ثمة بعض

(١) الهمدانى — صفة جزيرة العرب ص ١٥٥ طبعة ليدن . والحزيز المكان الغليظ ، وصردى : يتأذون من البرد ، وسغاب : جياع .

أنواع النبات ولا سيما فى الأودية فمن ذلك : أشجار الطلح ، والأثل ، والسدر ، والحناء ، وكثير من النخل وهو أثمن شيء عندهم ، وعليه قوام حياتهم .

وكانت توجد بعض الدارات أو الواحات القريبة من ديار غطفان مثل فدك ، وتيماء وخيبر ، على أن معظم أراضيهم مجدبة إلا فى فصل الربيع ، وإن كانت بعض أعالى نجد يسقط عليها المطر صيفاً فيدب فيها شيء من الحياة[1] .

وهذه المنطقة حارة على العموم لبعدها عن مجرى الرياح الساحلية التى تخفف من شدة الحر ، وتلطف الجو ، وإن كانت ديار نجد لارتفاعها أقل حرارة من سواها ، وهى قارية يشتد بها الحر صيفاً ، والبرد شتاء ، وفى ليالى الصيف يلطف الجو ولا سيما فى الجهات العالية .

وقد أكثر الشعراء القول فى نوعين من الرياح : ريح الصَّبا ، وريح السَّموم ، والصبا ريح شرقية معتدلة ، تغزل الشعراء فى رقة نسيمها ، واشتقوا منها فقالوا : صبت الريحُ تصبو صبواً ؛ والسموم ريح حارة ، واشتقوا منها كذلك فقالوا : يوم يوم سام ومسموم .

وكان طبيعيا لقوم يعيشون فى هذه البيئة الصحراوية المجدبة أن تكون المراعى والأمكنة المعشبة ثمينة لديهم ، وأن يحولوا بينها وبين كل من تحدثه نفسه برعيها وإلا هلكوا مسغبة وظمأ .

وفى كثير من الأحيان لا تكفى هذه المراعى لإطعام نَعَمهم ، إما لقلة الأمطار أو لكثرة إبلهم ، فيعمدون إلى الغارة على جيرانهم حتى لا تضار نعمهم ، فيهلكون بهلاكها .

---

(١) راجع صفة جزيرة العرب للهمداني ، وتاريخ العرب القدامى لمحمد فخر الدين بك ، وجزيرة العرب فى القرن العشرين للشيخ حافظ وهبه .

ويشتد الجدب فى الشتاء ، وفى الشتاء البرد والجوع ، ولذلك تكثر غاراتهم وحروبهم حين يعضهم الجوع بنابه ، لا يبالون بأى شىء فى سبيل حفظ الذماء ، وأود الحياة.

ولذلك كثرت الحروب بين عرب البادية فى سبيل العيش والقوت الضرورى ، ولم يكونوا يسكنون القصور المحصنة أو البيوت المسوّرة . ولم يكن لهم شرطة يسهرون عليهم ، أو حامية تصد عنهم الغارات ، بل كانوا يقيمون فى بيوت من الشعر والوبر ، وليس لهم حارس إلا مقابض سيوفهم ، وأسنة رماحهم ، وليس لهم حمى إلا ظهور خيـــلهم .

فأورثتهم هذه الحياة الخشنة ، وهذه البادية الواسعة القفر : البأس والشجاعة والصرامة ، يرجعون إليها متى دعاهم داع ، أو استنفرهم صارخ ، وتأصلت فى طباعهم النجدة وحب الغزو ، والميل إلى الانتقام والأخذ بالثأر . ومن ثم كانت العصبية فيهم أظهر وحظهم من صحة النسب أوفر ؛ لأن بالعصبية الحماية ، والمدافعة والمطالبة وغايتها التغلب . والنسب الصحيح هو الذى يؤدى إلى الالتحام ، الذى يوجب صلة الأرحام والشفقة والنعرة عليهم ؛ أن يصيبهم ضيم ، أو يلحقهم أذى .

كانوا يبتغون الماء ، ويرتادون منابت العشب ، ليرعوا أنعامهم التى عليها بلاغهم فى حمولهم ، وشِبعهم ، ورِيّهم ، فتنازعوا على المرعى ، وتدافعوا على النُّجعة ونَشبت بينهم دواعى الخلاف التى كثيراً ما تنتهى بالاحتكام للسيف ، فانتشرت بينهم العداوة وفشت فيهم الحروب . وتخطف بعضهم بعضاً .

والقتال على الماء ، والمال ، والغنيمة — قانون الفطرة فى بقاء الأصلح ، وكان هؤلاء البدو حقاً على الفطرة فى طباعهم وعاداتهم ، ولذلك كثرت دواعى القتال بينهم وزادت حرارة الصحراء فى سرعة انفعالهم ، وحدة طباعهم .

كانت العصبية القبلية شديدة بينهم — كما مَرّ بنا — حتى لا يذلوا ، ويتخطفهم

الناس من حولهم ، وتستباح حرماتهم ، وينتهك حماهم ، ولذلك كان على القبيلة أن تنصر كل فرد منها إذا دعاها للقتال ظالماً أو مظلوماً . وكثيراً ما تضطرم الحرب بين قبيلتين ، ويستعر أوارها ، ويصلى بها الكل ، لأن شخصين اختلفا فيما بينهما فانتصرت كل قبيلة لصاحبها ، وقد صدقوا حين قالوا :

وإن النـــار بالعودين تذكى ‏ ‏ وإن الحرب أولها الـكلام

وقد عبر عمرو بن براقة عن هذه الحياة ودواعى الحروب فى الجاهلية أحسن تعبير بقوله :

ومن يطلب المـال الممنع بالقَنا ‏ ‏ يَعِشْ ذا غِنى أو تخترِمْه المخارم
وكنتُ إذا قومٌ غزونى غزوتهم ‏ ‏ فهل أنا فى ذا يا لَهَمْدان ظـالم
متى تجمع القلب الذكىّ وصارماً ‏ ‏ وأنفاً حميـا تجتنبك المظـالم

وكانت كل معركة تستتبع ثأراً ، وكل ثأر يلد معركة . والثأر كان حق الأبناء للآباء أو حق الآباء للأبناء ، أو المرء لعشيرته وذويه ، أو القبيلة لأفرادها المدافعين عنها حتى لا تهان وتستذل وتستأصل .

ولولا الحروب على الثأر ما استرجع المهزوم مكانه من النصر بعد الهزيمة ، وما شفى الموتور صدره من حفيظة الوتر ، وما أخذ الوافون بالود حقوق الذاهبين من خلانهم وحلفائهم وإخوتهم ، فلا تذهب الجناية بدون قصاص .

وقد جاء الدين الإسلامى مهذباً لذلك حيث جعل حياة العدل فى أخذ القتيل بالقتل والجريح بالجرح .

قال تعالى : « وكَتبْنا عليهمْ فيها أنَّ النَّفْسَ بالنفسِ ، والعينَ بالعينِ ، والأنفَ بالأنفِ ، والأذُنَ بالأذنِ والسنَّ بالسنِّ ، والجروحَ قصاص » .
وقال تعالى : « ولـكم فى القصاصِ حياةٌ يا أولى الألباب » .

وكان العربى إذا نهض لأخذ الثأر حرم على نفسه اللذات ، فلا يغتسل ولا يتطيب ،

ولا يقرب النساء؛ حتى لا يثبطه شيء عن أخذ ثأره. ثم إنه كان يجعل المرأة خلف الصفوف؛ حتى يكون القتال عن كل شيء فى الحياة، وحتى تستحيل الهزيمة عليه، فهو النصر بأعراضهم، أو الموت دونها.

وقد مرَّ بنا قول يزيد بن حنظلة بن ثعلبة يحرض قومه على الثبات والصبر فى المعركة:

من فرَّ منكم فر عن حريمه وجاره وفرَّ عن نديمه

ولذلك كانت بعض القبائل — لكثرة ما تخوض من حروب، ولأنها حروب مرة قاسية — تحتمى بالحلف، وبقيت بعض القبائل الأخرى متجمرة [1] فى نفسها، معتزة بعصبيتها. ترى نفسها فى غنى عن سواها لكثرة أفرادها.

ولقد كثرت الحروب فى الجاهلية بين مختلف القبائل، فنرى حروبا بين العدنانيين والقحطانيين ثم بين العدنانيين بعضهم وبعض، وبين العرب والفرس، وبين العرب والغساسنة حلفاء الروم، حتى روى صاحب كشف الظنون أن أبا عبيدة قد ألف كتاباً صغيراً فى أيام العرب حوى خمسة وسبعين يوماً، وآخر كبيراً جمع فيه ألفاً ومائتى يوم — وإن لم يصل إلينا شيء منهما، بيد أن كتب الأدب القديم غاصة بأخبار هذه الأيام وإن اختلفت رواياتها. فترى ذلك فى الأمالى، والنقائض، والعقد الفريد، ومعجم البلدان. وابن الأثير، والمسعودى، ومعجم ما استعجم، والطبرى وما شاكل ذلك من كتب الأدب والتاريخ.

ولقد سجل الشعر الجاهلى كثيراً من أخبار هذه الحروب سواء فى شعر الفخر والحماسة أو شعر الهجاء والرثاء، وكان كثير من هؤلاء الشعراء فرساناً يخوضون المعمعة، ويبلون فيها بلاء حسناً كمهلهل بن ربيعة، ودريد بن الصِّمة، وعامر ابن الطفيل، وعنترة بن شداد العبسى، وربيعة بن مكَدَّم، وعمرو بن زياد العبسى، وغيرهم من الشعراء. ولم يقصروا فى ميدان القول عن ميدان الوغى، فكان شعرهم

---

(١) الجمرة. القبيلة التى تعتز بعصبيتها ولا تحالف غيرها، وهى من التجمر بمعنى التجمع، وجمرات العرب ثلاث: ضبة، ونمير، وعبس. وبعضهم يزيد رابعة. وهى بنو الحارث بن عبد المدان.

بتّاراً كسيوفهم ، يحمّس الناس ، ويدفعهم دفعاً إلى الحرب يذودون عن الشرف والعرض ، ويحمون الجار ، أو يردون عدوان مغير ظالم ؛ ويتغنون بانتصاراتهم ، ويدافعون عن أحساب قومهم، ويطاقون ألسنتهم فى خصومهم وأعدائهم ، ويندبون بقوافيهم صرعاهم ، والقتلى من أشرافهم وزعمائهم ، ويصفون آلات القتال وصفاً دقيقاً جميلا .

وكان ثمة شعراء يقفون بجانب هؤلاء الأبطال الذين يجودون بنفوسهم رخيصة فى سبيل قومهم ، يعضدون قبائلهم بقصائدهم القوية . ويشجعونهم على الصبر والجلد فى القتال ، والصدق عند اللقاء ، والانتصار للعشيرة ، والوفاء بالوعد ، والدفاع عن الحريم ، ويرثون من سقط فى حومة الوغى من أبطالهم وفرسانهم ويعددون مفاخرهم ، وسابق أيامهم ، وجميل بلائهم فى حروبهم وإن لم يخوضوا المعمعة .

ولقد مر بنا شيء من هذا عند الكلام على القبيلة ، ومن هؤلاء الشعراء فى الجاهلية ، الأعشى ، والنابغة الذبيانى ، والحارث بن حلزة وغيرهم .

ولقد وسعت اللغة العربية بمفرداتها وطرق تعبيرها كل ما جال فى نفوس هؤلاء الشعراء ، ولا أدل على ذلك من كثرة الألفاظ الدالة على وصف السلاح عند العرب ، فثمة السيوف والمدَى ومناصلها وأغمادها ، والرِّماح والزّجاج [١] وكعوبها وصعادها[٢] . والدِّلاص[٣] والأبدان [٤] والدروع وحلقها ، وزردها ، وقُترها[٥] والخُوَذ ، والترائك[٦] والمغافر ، وبَيْضُها وقوانسها وعذباتها . والتروس والجواشن وحمائلها وهُدابها :

والقِسِىّ وما لازمها من النبل المقذَّذ [٧]، والسهم المريش ، والوتر ، والفُوق[٨] والفرْض [٩] والسرية والنيزك .

---

(١) الزج : الحديد فى أسفل الرمح . (٢) الصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك .
(٣) درع دلاص ككتاب : ملساء لينة . (٤) الأبدان : ج بدن وهى الدرع القصيرة .
(٥) القتر . ج قتير وهى رءوس المسامير فى الدرع
(٦) الترائك : ج تريكة وهى الخوذة والبيضة (٧) المقذذ : المريش من القذة وهى ريش السهم
(٨) الفوق : موضع الوتر من السهم والفوقة كذلك .
(٩) الفرض : موضع الوتر من القوس .

وإذا أتى على ذكر الخيل فما من لغة أوسع من العربية بأوصافها . تمثل عَدْوَها وجريها وتطبيقها ، وتقريبها ، وحضرها[١] ، وارتفاعها .

أما وصف القتال ، فقد افتن العرب فيه أيما افتنان ، ولهم كلمات شتى تعبر عنه كالنزال ، والمجاولة ، والمصاولة ، والمشق[٢] ، والرشق ، والحذف ، والقذف ، والماصعة[٣] والنفح بالمناصل ، والضرب بالمغاول[٤] ، والوخز بالعوامل . . . إلى غير ذلك .

وعلى الرغم من كثرة ما قال العرب فى الحروب ووأصاف المعارك ، وأدوات القتال فقد أخذ عليهم خلو شعرهم من الملاحم ، أو الشعر القصصى الذى يرويه شاعر ويتحدث فيه عن المعارك التى شبت بين عدد من الفرسان ، ويصف أحوال المجتمع ، ويتعرض للديانات والآلهة وما شاكل ذلك . مثل ما فعل هوميروس فى الإلياذة ، وفرجيل الرومانى فى الإنيادة ، ومثـــل منظومات رولان فى الأدب الفرنسى والفردوس المفقود للشاعر الإنجليزى (ملتن) ، والشاهنامة للفردسى وغيرهم .

وقد دفع التعصب الذميم بعض الكتاب من غربيين ومن لف لفهم من المصريين وسواهم أن يرموا العقلية العربية بالعقم ، وجدب الخيال ، وضيق الأفق ؛ لأن العرب لم يكن لهم فى جاهليتهم مثل ما كان لليونان من قصص خيالى يتحدث عن الآلهة كما يتحدث عن المعارك .

ولقد أفضت فى الفقرة السابقة عند الكلام على أثر الصحراء فى الخيال العربى فى هذا الموضوع ، ولا أريد هنا أن أكرر ما قلت ، ولكنى سأتناوله من جهة أخرى لأننا نبحث فى الحروب وأثرها فى الشعر .

يقسم الفرنجة الشعر عادة إلى : غنائى Lyric ، وقصصى Epic ، وتمثيلى Drama

---

(١) الحضر : ارتفاع الفرس فى عدوه كالإحضار ، والتقريب أن يرفع الجواد يديه معاً ويضعهما معاً مثله التطبيق .

(٢) المشق : سرعة الطعن والضرب .

(٣) مصعه بالسيف ضربه ضربات قليلة

(٤) المغول : النصل الطويل أو السيف الدقيق .

ويرون أن الشعر إما أن يتناول العالم بمظاهره البارزة ، وإما أن يعبر عن خلجات النفس وأحاسيسها ، أو يتوسط بين هذين ؛ فالأول هو الشعر القصصى الذى يتحدث فيه الشاعر عن ســـواه ، وعن مظاهر الطبيعة ، والمجتمع البشرى بعاداته وتقاليده وأبطال الحروب من غير أن ينم عن شعوره إزاء كل ذلك ؛ والثانى هو الشعر الغنائى الذى يعبر عما كمن فى حنايا صدره ، وعن عواطفه الخاصة ، والثالث يجمع بين هذا وذاك .

وليس معنى ذلك أن الشعر القصصى مثل ما ورد فى إلياذة هوميروس لا تتخلله بعض القطع الغنائية التى يصور فيها الشاعر إحساسه الذاتى ؛ ولكن الغالب أن يدع شعوره جانباً ، ويصور الحوادث والأشخاص من غير أن ينم عن نفسه وإلا فقد ورد فى إليـاذة هوميروس بعض الشعر الغنائى كرثاء (أخيل) ووداع (هكتور) لزوجته وما شاكل هذا .

ومن الطبيعى أن يتقدم الشعر الغنائى فى الوضع ، لأن أقدم ما نطق به الإنسان من الشعر إنما كان أغنية يترنم بها ، أو أنشودة تعبر عن عاطفة نفسية من حب ودعاء وغيظ ، ورثاء ، ورجاء ، أوملهاة ينشدها الكبير ليتلهى بها الصغير ، فهذه القطع تقدمت ولا ريب المنظومات الطويلة من أشبـاه الإلياذة إذ لا تتوفر معدات نظم الملاحم إلا بعد أن يألف الإنسان نظم المقطوعات الصغيرة « ولكن قد يمكن أن يكون ارتقاء الشعر القصصى متقدماً على ارتقاء الشعر الغنائى ، وإن تقدم الغنائى بالوضع كما أن ارتقاء بلاغة الشعر متقدمة على بلاغة النثر ، وإن كان النثر متقدماً بالوضع أما التمثيليات فهى من نتاج الملاحم ، فجاءت متأخرة عنها بالطبع ؛ لأنه كان أيسر على الشاعر فى غابر الأزمان أن ينطق بلسان جميع ممثليه كما هى الحال فى الملاحم ، من أن يجعل كلا منهم ينطق بلسان نفسه فى محل معد لذلك كما هو الواقع فى التمثيليات »[1] .

---

(١) مقدمة ترجمة الإلياذة لسليمان البستانى ص ١٦٩

ويعد الفرنجة الشعر العربى كله شعراً غنائياً ، وأن العرب لم يستطيعوا أن يقولوا مثلما قال الإغريق القدماء فى ملاحمهم ، وأن ينظموا تلك القصائد الطوال فى صورة قصصية تتحدث عن المعارك والأبطال والآلهة ، وطعنوا فى العقلية العربية ورموها بكل نقيصة ، لأن الأدب العربى جاء خلواً من ذلك . وفى هذا يقول (أرنيست رينان): « والتوحيد له أثر كذلك فى الشعر العربى ، لأن الشعر العربى يعوزه الاختلاف ، فموضوعات الشعر ، أى أغراضه محدودة ، قليلة العدد جداً ، والشعر العربى الذى تمثله القصيدة يعبر عن إحساس شخصى ، وعن حالة نفسية خاصة ، والأبطال فى هذا الشعر نفس منشئه ؛ وهذه الصفة الشخصية التى نجدها فى الشعر العربى ، والشعر الإسرائيلى ترجع إلى خاصية أخرى من خصائص النفس السامية ، وهى انعدام المخيلة الخالقة ؛ ومن هنا لا نجد عندهم أثراً للشعر القصصى أو التمثيلى » (١) .

ومن العجيب أن يعد التوحيد والكفر بالآلهة الخرافيين الذين خلقتهم مخيلة الشعوب البدائية ، التى لم تهتد فى جاهليتها إلى حقيقة الخالق عيبا ينتقص به العرب ، لأن شعرهم لم يعظم هؤلاء الآلهة وأنصاف الآلهة ويؤمن بالميثولجيا . ولقد مر بك فى غير هذا الموضع أن العرب قد بسطت لهم الطبيعة فى عقلهم الواعى ، بينما انكمش عقلهم الباطن وأنهم نظروا إلى الوجود نظرة إنسان رشيد ، لا طفل تكثر لديه الهواجس والأوهام التى عدها أمثال (رينان) نتيجة المخيلة الخالقة التى أبدعت هذا الشعر القصصى (٢) :

أما أن القصيدة العربية تعبر عن إحساس شخصى فهذا صحيح ، فنحن إذا أخذنا وقائع حرب البسوس ، وإن لم تبلغ من الشدة والعنف مثلما بلغت حروب طروادة نرى أشهر الرجال والنساء فيها شعراء ؛ فكليب يقول الشعر وكذلك زوجته جليلة وأخوه المهلهل ، ونرى مُرة شاعرا وابنه جساساً . وكل ذى شأن فى هذه الحرب من

(١) Histoire Générale et Systéme Comparé des Langues Sèmitiques. Par Ernest Renan P.I — 18

(٢) راجع ص ٤٧ وما بعدها فى هذا الكتاب .

قريب وغريب يقول الشعر كالحارث بن عباد ، وجحدر بن ضبيعة ، فمجموع شعرهم أشبه بالشعر التمثيلي ؛ لأن لكل حادثة شاعراً ينطق بها بخلاف نهج شعر الملاحم كالإلياذة ، إذ ترى هوميروس فيها ينطق بلسان الجميع .

كان هؤلاء الأبطال يعبرون عن شعورهم ، ولم يكونوا فى حاجة إلى شاعر آخر يصف أمثالهم ، ويمجد مواقفهم ، ويتغنى بحروبهم ، أو يعبر عن عواطفهم ، لأنهم كانوا متملكين أزمة القول ، ولهم نفوس شاعرة أبت إلا أن تفصح عما يجيش فيها ، ولا شك أن هذا يدل على ارتقاء هؤلاء القوم ، وبلوغهم شأواً غير قليل فى الأدب ، ويدل على أن بيئهم أرقى من تلك البيئة الإغريقية أيام حروب طروادة .

وإذا وصف الأدب العربى عامة بأنه يعبر عن إحساس شخصى فهذه هى المرحلة التى انتقل إليها الأدب الأوربى بعد أن طالت عبوديته للأدب اليونانى ، هى تلك المرحلة التى خطت إليها ألمانيا أولا ثم فرنسا ، ثم سائر أوربا فى أوائل القرن التاسع عشر ، وبها تطور الأدب الغربى ، وتمرد على الأدب (الكلاسيكى) التقليدى ، وعرفت بالحركة (الرومانتيكية Romantisme) الإبداعية . وأهم خصائص هذه الحركة الإبداعية وضوح الشخصية . وانطلاق الأديب على سجيته يغرد كما يغرد الطائر الصداح فوق الفنن ، يحب فيعبر عن إحساس قلبه ، ويأسى فيصف لواعج فؤاده .

ولقد وضح (الدكتور مارسيل برونشفج) الفرق بين الأدب التقليدى والأدب الإبداعى بقوله : « لا يوجد لدى بعض أدباء المدرسة التقليدية أى أثر للشعر الغنائى كما لا يوجد أى أثر للشعور الخاص أو الطابع المستقل . وعلى العكس من ذلك الأدب الإبداعى — وهو مبنى على انتصار الفردية (L,individualisme) فإنه جنح بطبيعته إلى النوع الغنائى (Lyrique) حيث تتضح موهبتان شخصيتان : الشعور والخيال[١] .

ولم يعد هذا النوع من الأدب عيباً يذم الأوربيون من أجله ، بل إنه الأدب

(١) Notre Littrature étudiée dan les textes Par. Dr. Marcel Brrunschvig P. 449 Paris. 1926.

الذى ساد أوربا ، وقضى على الأدب التقليدى إلى غير رجعة . لقد كفرت أوربا بالأدب اليونانى وتنكرت له ، كما كفرت بآلهة (الأولمب) ، واعتنقت المسيحية ، وفى هذا أبلغ الرد على هؤلاء الذين حاولوا الغض من العقلية العربية ، ورموها بعقم الخيال وضيق الأفق ؛ لأن الشعر العربى وليد التوحيد ، يعبر عن الإحساس الشخصى ويظهر فيه الشاعر بطابع مستقل ، ولأنه من النوع الغنائى ، وليس من النوع القصصى

ومع هذا فقد شك كثير من علماء الغرب فى نظم هوميروس للإلياذة وكان أول هؤلاء العلماء كازوبون (casaubon) الفرنسى أواخر القرن السادس عشر فإنه أنكر وجود هوميروس ، ثم أتى بعده (هيدلين) قس (أوبنياك)[1] ، وتبعه كثير من العلماء والباحثين فى فرنسا وإنجلترا .

ولكن أشهر من طعن فى الإلياذة ونسبتها إلى هوميروس هو (ولف)[2] الألمانى « وما كاد ينشر مقدمته على الشعر الهوميرى فى أخريات القرن الثامن عشر حتى فشا مذهبه فى ألمانيا ، وانتشر منها إلى أقطار أوربا ، فهدم أركان عظمة هوميروس من أسسها ، وعم القول بين جميع المشتغلين بآداب اليونان أن هوميروس إنما هو هىّ ابن بىّ الإغريقى ، راوية لم تلده أنثى ، وإنما ولدته قصائد الشعراء المندرسة أسماؤهم فى غوامض الغيب ، وإن ما ينسب إليه من المنظوم ليس إلا مجموع قصائد عنى بجمعها فى زمن (فيسيستراتُس) فى القرن السادس قبل المسيح »[3] .

وسواء كان هذا الرأى صحيحاً أو غير صحيح ، فقد عرفت قيمة هذا النوع من الشعر القصصى ، وإنما عظمته أوربا فى بدء نهضتها ، لأنها كانت معدمة من الآداب ، فظلت عالة على الإغريق حتى شبت واشتد ساعدها وارتقت فى سلم الحضارة درجات ، فأهملت هذا النوع من الآداب ، ولجأت إلى الشعر الغنائى والأدب الإبداعى الذى حذقه العرب فى جاهليتهم .

---

(١) Hedlin Abbé d'aubignac 1604-1672

(٢) Wolf, 1757 — 1824

(٣) سليمان البستانى — مقدمة ترجمة الإلياذة ص ٤٨

على أن هناك شيئاً كثيراً يمكن أن يذكر فى شأن الملاحم خاصة والقصص عامة بيد أنى لا أريد أن أفيض فى شأنهما الآن[١] ، وحسبى ما ذكرت آنفاً مما له علاقة قوية بموضوع بحثنا .

هذا وقد كثرت الحروب بين القبائل العربية فى الجاهلية ؛ لتنازعها على البقاء فى هذه الصحراء المجدبة ، القليلة الغيث . حتى صارت الغارات عادة لبعض القبائل ، ولبعض الفرسان ، ولو لم توجد دواعيها ؛ وإذا لم يروا أمامهم مجالا لغزو غريب أو عدو أغاروا على من يمتون إليهم بصلة النسب ولحمة القرابة ، ولقد قال القطامى[٢] — مع أنه شاعر أموى — يعبر عن تلك الروح التى كانت سائدة بين سكان البادية ، والتى لم يستطع الإسلام وسطوته وهدايته أن يهذبا من جموحها :

وَمَنْ تكنِ الحضارة أعجبَتْه	فأىَّ رجال بادية ترانا
ومن ربط الجحاش فإنَّ فينا	قَناً سُلُباً وأفراساً حسانا[٣]
وكنَّ إذا أغرن على جناب	وأعوزهنَّ نَهبٌ حيثُ كانا[٤]
أغَرْنَ منَ الضِّباب على حُلولٍ	وضَبَّةَ إنهُ مَن حان حانا[٥]
وأحياناً على بكر أخينا	إذا ما لم نجـد إلا أخانا

ومن القبائل التى كثرت حروبها . واشتدت غاراتها أو اعتداءاتها على من جاورهم (ذبيان) . وهم بنو ذبيان بن ريث بن غطفان . ومن ذبيان فزارة ، وكانت فزارة تقيم بنجد ووادى القرى مع بقية بطون ذبيان ، ومن فزارة بنو مازن بن فزارة ، وبنو بدر

---

(١) إذا أردت المزيد من البحث فى شأن القصة فارجع إلى كتاب (فى الأدب الحديث ج ١) للمؤلف

(٢) القطامى : هو عمير بن شبيم ؟ شاعر أموى مقل ، وكان نصرانياً تغلبياً ؛ وكان جيد الشعر على الرغم من أنه كثير الغزل فى النساء .

(٣) قنا سلبا : أى تسلب النفوس .

(٤) وكن : أى الخيل أنزلها منزلة أربابها وهم المغيرون

(٥) الضباب : تشمل القبائل الآتية : ضبة وضبيب وحسل وحسيل فلذلك سموا بالضباب . والحلول الذين يكونون فى مكان واحد . ويقصد أنه إذا ضاقت السبل فى وجوههم أغاروا على هؤلاء وهم من أقاربهم — ومن حان حانا . أى من تعرض لغزونا فقد هلك .

ابن عـــدى بن فزارة . وكانت فى بنى بدر رياسة فزارة فى الجاهلية ، بل إنهم كانوا يرأسون جميع غطفان . ومن بنى بدر هؤلاء حذيفة بن بدر ، وحمل بن بدر ، وكان لهما شأن يذكر فى حرب داحس والغبراء كما سيأتى .

وكانت عبس وذبيان أولاد عم ينتمون إلى غطفان ، ويتجاورون فى البادية وينفر كل منهم لنصرة الآخر عند الغارة ، وقد كثرت حروبهما مع بنى عامر[1] وشهد النابغة الذبيانى الذى عمر طويلا كما سنذكر ذلك فى حياته هـذه الحروب ، وسجل فى شعره بعض حوادثها .

فمن حروب غطفان مع بنى عامر (يوم النفروات[2]) ، وفيه قتل خالد بن جعفر ابن كلاب العامرى زهير بن جذيمة سيد عبس ، وكانت هوازن تخضع لزهير ، وتقدم له الإتاوة كل عام فى سوق عكاظ ، وقد استبد بهم زهير ، ولم يرع لهم حرمة ؛ فنقموا عليه — حين كثر عددهم ، وقوى بأسهم — عنجهيته ، وفظاظة طبعه ، وأقسم خالد ابن جعفر ليقتلنه ، وقد بر بقسمه فى يوم النفراوات ، وفى ذلك يقول خالد بن جعفر يمن على هوازن بقتله زهيراً[3] .

أبلغْ هوازن كيف تكفر بعد ما ... أعتقتهم فتـوالدوا أحـــرارا
وقتلتُ ربَّهم زهيراً بعـــد ما ... جدع الأنوف وأكثر الأوزارا

وكان خالد هذا فى بعض غزواته السابقة قد أغار على رهط الحارث بن ظالم المرى الذبيانى ، وأسرف فى القتل فأهلك الرجال ، وبقيت النساء ومعهم الحارث يومـذاك صغير فى واد يقال له حُراض ، ويقال إن أباه ظالماً قتل فى ذيّاك اليوم . ثم جاء قتل

---

(١) هم بنو عامر بن صعصعة : بطن من هوازن .

(٢) ذكر صاحب الأغانى (النفراوات) بالفاء ؛ وذكرها صاحب العقد بالقاف ؛ وذكر البكرى فى معجم ما استعجم هذا الإسم بالفاء وقال : نفرى بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده راء مهملة مقصور على وزن فعلى ويعد . موضع ببلاد غطفان .

(٣) راجع أخبار هذا اليوم فى أيام العرب ص ٢٣٥ ، وفى العقـــد الفريد ج ٣ ص ٣٠٤ ؛ وفى الأغانى ج ١٠ ص ١٠ ؛ وفى بلوغ الأرب ج ١ ص ١١٨ وما بعدها .

زهير بن جذيمة سيد غطفان ، فنشأ الحارث بن ظالم على بغض خالد ، واستحق خالد ابن جعفر عداوة غطفان كلّها .

ودارت الأيام دورتها ، وصار الحارث بن ظالم فارساً مُعلَماً قوى المُنّة ، شديد الوطأة على الأعداء ، عظيم المنزلة فى قومه . ثم حدث أن اجتمع هو وخالد العامرى فى بلاد الحيرة[1] ، ورأى خالد الملك مقبلاً على الحارث فحسده ، وأخذ يتهكم به ، وأنه هو الذى جعله سيد قومه بنى غطفان بقتله زهيراً ، وأنه يستحق شكره ، وذكّره بما فعله فى قومه قديماً ، وتركه يتيما فى حجور النساء ؛ فأوغر صدره ، وأجابه الحارث بأنه سيشكره على يده تلك ، ثم قتله من ليلته وهو بجوار الملك وفر إلى قومه فأبوا أن يحموه ، فلجأ إلى تميم . وقد استنكر ذلك قيس بن زهير العبسى ؛ إذ أخذ له بثأر أبيه وأرسل إليه يقول :

جزاك الله خيراً من خليلٍ   شفى من ذى تبولته الخليلا

أرحت به جوى ودخيل حزن   تمخخ أعظمى زمناً طويلا

ثم أغارت بنو عامر على تميم[2] ، لأنها أجارت الحارث بن ظالم وكان بينهما يوم الرحرحان[3] ، وفيه انتصرت عامر على تميم ، وإن لم تنل شيئاً من الحارث ابن ظالم ، لأنه أبعد عن تميم قبل المعركة . وبقى وتر عامر لديه ولدى قومه بنى ذبيان .

---

(١) تختلف الروايات فى اسم الملك الذي اجتمعا لديه ، فصاحب الأغاني يرى أنه النعمان بن المنذر الثانى ٤٨٢ — ٤٨٩ م وصاحب العقد يرى أنه الأسود بن المنذر الأول (٤٦٢ — ٤٨٢ م) ، وابن الأثير يذكر أنه النعمان بن امرىء القيس (٤١٨ م) .

ولكن دى برسفال يرى أن أن زهيراً قتل فى سنة ٥٦٧ م وأن حرب داحس والغبراء ابتدأت فى سنة ٥٦٨ ، فيكون اجتماع الحارث وخالد على رأيه فى عهد عمرو بن هند ٥٥٤ — ٥٧٣ م وهو الرأى الراجح لبعد المدة بين هذه الحادثة ومقتل زهير وابتداء حرب داحس والغبراء .

راجع Essai sur l, histoire des Arabes P 474

(٢) كان بنو تميم يقيمون فى القسم الشمالى الشرقى من نجد بين صحراء الشام ووادى اليمامة ، وكان بنو عامر يقيمون فى السهول التى تقع بين نجد وتهامة — راجع دى برسفال جـ ٢ ص ٤٦١

(٣) راجع أيام العرب ص ٣٤٤ ، وابن الأثير جـ ١ ص ٣٤١ ، والعقد الفريد جـ ٣ ص ٣٦٠ والنقائض جـ ١ ص ٢١٤ ، والأغانى جـ ١٠ ص ٣٠ ، ومعجم البلدان (رحرحان) .

حرب داحس والغبراء:

ثم اشتعلت نار الحرب بين عبس وذبيان ، وكلاهما من غطفان ، وبذلك صارت ذبيان عدواً لعبس ولعامر على السواء ، فتحالفت ذبيان مع تميم ، ومع بنى أسد ، واستمرت الحرب بين عبس وبين ذبيان وحلفائها أربعين سنة ، وهى الحرب المعروفة باسم « داحس والغبراء »

وقد رويت أخبار هذه الحرب بروايات مختلفة ، وتباينت الأسباب التى دعت إليها[1] ، ونحن نستخلص من تلك الروايات : أن قيس بن زهير كان يسعى فى أخذ ثأره من بنى عامر بعد أن قتلوا أباه زهيراً ، وأنه ذهب إلى المدينة ليشترى أسلحة ودروعاً من أحيحة بن الجُلاح سيد الأوس ، واشترى منه درعاً تسمى ذات الحواشى أو ذات الفضول ، وأدرعة أخرى سواها ، ومر فى طريق عودته بالربيع بن زياد العبسى يستعينه على أخذ ثأره ، وكان يومئذ سيداً فى قومه وعرض عليه قيس عدته وسلاحه ، فاغتصب منه درعه ذات الحواشى ، وأبى أن يعيدها إليه ، فأسرها قيس فى نفسه ، وانتهز غرة الربيع حتى ينتقم منه .

وحدث أن إبل الربيع كانت فى مرعى كثير الكلأ فأغار عليها قيس وساقها إلى مكة فباعها من عبد الله بن جُدْعان القرشى ، واشترى بها خيلا ، وتبعه الربيع فلم يلحقه ، وكان فيما اشتراه من الخيل داحس[2] .

وخشى قيس تتبع الربيع بن زياد له . فأقام مدة بمكة ، ثم مَلّ أهلها وملوه لكثرة فخره ، واعتداده بنفسه ، فلحق ببنى بدر بن فزارة ، وأجاره حذيفة بن بدر وأخوه حمل بن بدر ، وغضب لذلك الربيع بن زياد ولكن بنى بدر لم يأبهوا لغضبه ، وظل قيس بينهم هو وعشيرته ينعمون بمودتهم وجوارهم ، إلى أن تراهن رجل[3] من عبس

---

(١) راجع شعراء النصرانية ص ٩١٧ ، والعقد الفريد ج ٣ ص ٣١٣ ، وابن الأثير ج ١ ص ٣٤٣ والنقائض ص ٨٣ ، والأغانى ج ٨ ص ٢٤٠ ، وأيام العرب ص ٢٤٦

(٢) بعض الروايات تقول إن داحس والغبراء كان ملكا لقيس ولكن أكثر الروايات تقول : إن داحس لقيس والغبراء لحمل بن بدر الفزارى ، وأن الرهان كان بين داحس والغبراء .

(٣) قيل هو الورد أبو عروة بن الورد ، وقيل اسمه قرواش .

مع حذيفة بن بدر فى غيبة قيس ، وكان الرهان بين داحس جواد قيس ، وبين الغبراء فرس حمل بن بدر ، فلما بلغ قيساً النبأ أبى أن يمضى الرهان لأنه سيجلب شراً هو فى غنى عنه ، ولكنه حُمِل عليه حملاً .

وكانت الغاية مائة غلوة(١) ، والمضمار(٢) أربعين ليلة ، والمجرى من ذات الإصاد والرهان على عشرين من الإبل ، فلما جرت الخيل ، سبق داحس سبقاً بيناً ، ورأى حذيفة أنه سيحوز السبق ، وكان قد أعد له كميناً فإن جاء سابقاً ردوه عن وجهه ، فلما رأى الكمين داحساً جاء مجلياً لطموه على وجهه ، فسبقته الغبراء . واختلف قيس وحذيفة ، وادعى كل منهما أن له الحق فى أخذ الرهان ، ورأى قيس أن بنى بدر قد ظلموه حقه ، وأنهم استضعفوه لأنه كان نازلا بهم محتمياً بجوارهم ، ففارقهم هو ومن معه من بنى عبس .

ولكنّ حذيفة اشتط فى ظلمه ، وأرسل أحد أولاده يطالب قيسا بالسَّبْق فلم يصادفه فقالت له امرأته : ما أحب أنك صادفت قيساً ، فرجع إلى أبيه فأخبره بما قالت فرده ثانية إلى قيس يطالبه بالسبق ، فقتله قيس ، وعادت فرسه إلى أبيه عائرة ، ونادى قيس يدعو قومه للرحيل ولما علم حذيفة أن ولده قد قتل ركب فى قومه إلى منازل قيس وقومه فرآهم قد رحلوا ، ورأى ابنه قتيلا فواراه التراب ، واحتمل الناس ديته مائة من الابل ، وهدأت النفوس قليلا .

وكان مالك بن زهير أخو قيس مقيماً فى بنى فزارة ، وقد أرسل إليه قيس يحذره غدرهم بعد أن قتل ابن حذيفة بن بدر الفزارى بقوله :

أمالكَ لا تأمن فزارةَ واخشها ... فإنك إن تأمن فزارة هالكُ

ولكن مالكا رد عليه بقوله :

يا قيس حسبك ما أتيت تخلنى ... وبنى فزارة إننى متماسكُ
أترى حذيفة آخـــذى بجريرة ... لم تجنها كفى ، وأنت الفاتك ؟

---

(١) الغلوة : رمية بالنشابة
(٢) تضمير الخيل : إعدادها للركض .

بيد أن حذيفة أخذ مالـكا بجريرة قيس ، أرسل إليه كوكبة من الفرسان قتلوه على غِرَّة منه . فعظم مقتله على عبس كلها ، وقال قيس يحرض الربيع بن زياد على الأخذ بالثأر :

أينجو بنو بدر بمقتل مالك ... ويخذلنا فى النائبات ربيعُ
وكان زياد قبـله يُتّقى به ... من الدهر إن يومٌ ألم فظيع
فقل لربيع يحتذى فعل شيخه ... وما الناس إلا حافظ ومُضيع
وإلا فما لى فى البـلاد إقامة ... وأمر بنى بدرٍ علىَّ جميع

فلبى الربيع نداءه وقال :

فإن تك حربكم أمست عواناً ... فإنى لم أكـن ممن جناها
ولـكن ولد سَوْدَةَ أرثوها ... وحشوا نارها لمن اصطلاها
فإنى غير خاذلـكم ولـكن ... سأسعى الآن إذ بلغت مداها[1]

وبذلك اتحدت بنو عبس ، واستعدوا لقتال بنى ذبيان .

والتقى الجمعان ، واقتتلوا قتالا عنيفاً فى يوم (المريقب) ، وقُتل من بنى ذبيان عوف بن بدر ، وقتل عنترة ضمضم[2] أبا الحصين المرى ، والحارث بن بدر ، وأسر الربيع بن زياد حذيفة بن بدر ، وأراد أحد بنى عبس قتله ، ولـكن تجمع الرجال عليه فلم يصنع السيف به شيئاً ، وانتهت هذه المعركة بالصلح ، ودفعت ديات القتلى ، وأخذ حذيفة مائتين من الإبل فى مقابل الضربة التى ضُربها .

ولـكن هذا الصلح لم يدم طويلا ، إذ أن مالك بن بدر خرج يطلب إبلا له فرماه أحد بنى عبس بسهم فقتله ، ونشبت الحرب بين القبيلتين مرة أخرى ، ودرت الدائرة

---

(١) تنسب هذه الأبيات إلى عنترة بن شداد العبسى راجع شعراء النصرانية ص ٧٩٩ .

(٢) وفى ذلك يقول عنترة :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر ... للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمى عرضى ولم أشتمهما ... والناذرين إذا لم القهما دمى
إن يفعلا فلقد تركت أباهما ... جزر السباع وكل نسر قشعم

على عبس فى (ذى حسى) ، واتبعتهم ذبيان ، فرضى بنو عبس أن يودعوا لديهم رهائن من أولادهم ، حتى يتبين وجه الحق فى أسباب العداوة ، ومن المعتدى ومن المظلوم ، وأودعت الرهائن عند سبيع بن عمرو (من بنى ثعلبة بن زيد بن ذبيان) ولكن ما لبث سبيعٌ أن مات . وفرط ابنه مالك فى الودائع وأسلمها إلى حذيفة ابن بدر فى اليعمرية[1] ، وأحضر أهل الذين قتلوا من ذبيان ، وجعل كل يوم يبرز غلاماً فينصبه غرضاً ، ويرميه بالنبل ، ويقول : ناد أباك ، فينادى أباه مستغيثاً ، ولا مغيث حتى يمزقه النبل .

فامتلأت قلوب بنى عبس على إثر ذلك إحناً ، وحقداً ، وراحوا يعدون العدة للانتقام ، وخرج قيس بن زهير فى جماعة ، فلقوا ابناً لحذيفة ، ومعه فوارس من ذبيان فقتلوهم ، فجمع حذيفة قومه ، وسار إلى بنى عبس ، وهم على ماء يقال له : عُراعر فاقتتلوا ، وكان الظفر لبنى ذبيان فى ذلك اليوم .

وجدّ حذيفة فى الحرب ، وكرهها أخوه حَملُ بن بدر ، وندم على ما كان من قتل الغلمان ، ولكن حذيفة مضى لطيته يحشد جموع ذبيان وحلفائها بنى أسد وسار نحو بنى عبس ، بيد أن هؤلاء تحاشوا هذا اللقاء ، ورأوا أن لا قبل لهم بهذه الجموع ، وخدعهم قيس — وكان يسمى قيس الرأى لجودة أحكامه ، وصواب رأيه — وأمر قومه أن يسرحوا المال[2] بالليل ، ويأخذوا غير طريق المال ، فلما وصل بنو ذبيان وحلفاؤهم منازل عبس وجدوهم قد رحلوا . فتبعوا أثر المال ، ووردوا أوله على آخره ولم يتركوا منه شيئاً ، ومن ثم هاجمتهم عبس ، وهم فى شغل بهذه الغنائم العظيمة ، وكانوا حريصين عليها ، فلم يقفوا لقتال عبس ، بل كان هم كل واحد من بنى ذبيان أن ينجو بما أصاب من مال ، ولكن لم تدعهم سيوف عبس يهنأون بما أحرزوا . فقتلوا منهم خلقاً كثيراً حتى ناشدتهم ذبيان البقية ، وانهزمت ذبيان وحذيفة معهم .

---

(١) اليعمرية : ماء بواد من بطن نخلة بالشربة .

(٢) المال : الإبل .

ولم يكن لعبس همٌّ غير حذيفة ، فهو مبعث الشر ، ومصدر العدوان والظلم ، فتبعه قيس بن زهير والربيع بن زياد ، وشداد بن معاوية أبو عنترة وبعض الفرسان ، وفاجئوه يستبرد فى جفر الهباءة[1] حين اشتد الحر ، ومعه حمل بن بدر وجماعة من أصحابه ، وحال فرسان عبس بينهم وبين الخيل ، وقتلوا حذيفة وحمل بن بدر ، واستبقوا حصن بن حذيفة لصباه .

ولما رأى قيسٌ حذيفةَ بن بدر وأخاه مقتولين ، حزَّ فى نفسه ذلك وقال يرثى حذيفة بأبياته المشهورة التى تقدم ذكرها ، والتى يقول فى أولها :

تعلم أن خير الناس مَيْتٌ على جفْرِ الهباءة لا يريم
ولولا ظلمه ما زلتُ أبكى عليه الدهرَ ما طلع النجومُ

وهو أول من رثى قتيله ؛ وذلك لما كان بينهما من مودة وقرابة ، وقال أيضاً فى ذلك .

شفيتُ النَّفس من حمل بن بدر وسيفى من حذيفة قد شفانى
شفيت بقتلهم لغليل صدرى ولكنى قطعت بهم بنانى

وجدت ذبيان فى أخذ ثارها ، وحشدت حشداً عظيما من أبناء القبيلة وحلفائها بنى أسد ، وعزموا ألا يتعرضوا للأموال فيشغلوا بها كما شغلوا يوم الهباءة ، فيكون فى ذلك هلاكهم ، وعلم قيس بن زهير بمسيرهم ، فأرسل الظعائن والأموال إلى بنى عامر — على الرغم من أنهم أعداؤه الذين قتلوا أباه — ولكنهم كانوا كذلك أعداء ذبيان ؛ لأن الحارث بن ظالم المرى الذبيانى كان قد قتل خالد بن جعفر الكلابى العامرى كما مَرَّ بنا . وظل أولو الجلد والقوة من بنى عبس ينتظرون بنى ذبيان والتقى الجمعان ، واحتدمت الحرب بينهما ، وهلك خلق كثير ، وظلت المعركة ثلاثة أيام حتى مَلّ بنو ذبيان الحرب ، فارتحلوا عن عبس ، وفى هذه المعارك أبلى عنترة بن شداد بلاءً حسناً

---

(١) الهباء : مستنقع فى بلاد غطفان .

فى الدفاع عن قومه — وتعرف هذه المعارك — بذات الجراجر .

وعلمت عبس أن ذبيان ستعاود الكرة عليهم ، وأن الحروب بينهم لن تخمد نارها ، أو يجف أوارها فرحلت عبس كلها إلى بنى شيبان ، تاركة ديار غطفان ، ولكن مقامهم بين بنى شيبان لم يكن حميداً ، إذ رأوا منهم ما يغض من أنفتهم وعزتهم وأنهم كثيراً ما يتعرضون لأخذ أموالهم ، فرحلوا عنهم إلى اليمامة يطلبون أخوالهم فأتوا قتادة بن مسلمة ، ونزلوا بها زمناً ، ولكنهم ما لبثوا أن ارتحلوا إلى بنى سعد ابن زيد مناة فمكثوا بينهم مدة . ثم إن بنى سعد أتوا ملك هَجَرَ يحرضونه على غزو عبس وأن يأخذهم على غرة ، وهم بين ظهرانيهم ، يعينونه عليهم ، بيد أن بنى عبس تنبهوا إلى هذه المكيدة ، فساروا بالليل تاركين فى منازلهم ناراً عظيمة يخدعون بها أعداءهم فلما هجم عليهم جنود الملك مع بنى سعد فى الصباح وجدوا المنازل خلاء فجدوا فى أثرهم حتى أدركوهم بالفَروق ، فقاتلوهم وردهم بنو عبس على أعقابهم ، وفى ذلك يقول عنترة :

ونحن منعنا بالفَروقِ نساءنا ... نُطَرِّفُ عنها مُبْسِلات غواشيا (١)

ونحفظ عوراتِ النســاء ونتقى ... عليهن أن يلقَيْنَ يوماً مخازياً

ولحقوا ببنى ضَبّة ، فكانوا فيهم زماناً ؛ ثم حدث بينهم وبين ضبة نزاع ففارقوهم وأرادوا الذهاب إلى الشام ، فسمعت بذلك بنو عامر فخافوا انقطاعهم من قيس ، ودعوهم إلى أن يرجعوا ويحالفوهم ، فلبوا دعوتهم ، ولم يشأ قيس أن يكون فى رهط خالد بن جعفر الكلابى ؛ لأن بينه وبين هذا الرهط وِتْراً ، منذ قتل زهير فحالفوا معاوية بن شكل ، وجاوروا بنى شكل مدة ، وهم يرون من قيس بن زهير أَثَرَةً وسوء جوار ، فعاملوه وقومه بالجفاء ، وفى ذلك يقول النابغة شامتاً ببنى عبس :

لحا الله عبساً عبس آل بغيِّض ... كلحى الكلاب العاديات وقد فعل

فأصبحتم والله يفعــل ذاكمُ ... يعزكم مولى مواليكم شكل

(١) التطريف : أن يرد الرجل عن أخريات أصحابه ؛ وأبسل نفسه للموت . وطن نفسه عليه .

وظلوا فى بنى عامر إلى أن أغارت عليهم ذبيان، وتميم، وأسد، والجون الكلبى صاحب هجر، وجنود النعمان بن المنذر، وجمعوا لهم جموعاً عظيمة لا قبل لهم بها ألبها عليهم لقيطُ بن زُرارَة من بنى تميم ليأخذ بثأره فى يوم الرحرحان كما مرَّ. وأخذت عامر وعبس يدبرون أمرهم فأشار عليهم قيس بن زهير بإحدى دواهيه فى مكايد الحروب، وذلك أنه أمر بإدخال النساء والذرارى فى شِعب جبلة، وإظماء الإبل، ومنعها من الرعى، حتى إذا جاءت هذه الجموع الزاخرة، ودخلت عليهم فم الشّعب أطلقت الإبل من عُقلها، وأخذ الرجّالة بأذنابها، فإنها تحن إلى مواردها فتنحدر من الجبل فتحطم كل شىء، والرجالة معها، والفرسان من ورائهم، فلما اقتحم لقيط بن زرارة عليهم فم الشعب فعلوا ما أشار به قيس فكانت هزيمة هذه الجموع، وقتل لقيط، وأسر أخوه حاجب، وقتل معاوية بن الجون الكلبى، وفى ذلك تقول دُختَنوس ترثى أباها لقيطاً:

بَكَرَ النعىُّ بخير خِنْـــدفَ كهلها وشبابها
وبخـــيرها نسَباً إذا ضُمَّتْ إلى أنســابها
وأضرها لعـــدوها وأفكهـــا لرقابهـا

ولكن ذبيان أبت أن تقر بالهزيمة، فأغارت على بنى عامر وفيهم عبس فى يوم شعواء، فاقتتلوا وهزمت عامر، وأخيراً رحلت عبس عن ديار بنى عامر ونزلت بتيم الرباب فبغت تيم عليهم بعد قليل من الزمن، فاقتتلوا، ولكن حروب عبس قد أفنت كثيراً من رجالهم، فتكاثرت تيم عليهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة.

فقال لهم قيس: ارجعوا إلى إخوانكم من ذبيان، فالموت معهم خير من البقاء مع غيرهم، فقالوا: سر معنا، فقال. لا والله، لا نظرت فى وجهى ذبيانية قتلت أباها أو أخاها أو زوجها، أو ولدها، ثم خرج على وجهه.

وجاء وفد عبس إلى ديار ذبيان، ونزلوا على الحارث بن عوف المرى الذبيانى،

وذكروا له ما جاءوا من أجله ، فسعى هو وهرم بن سنان المرى فى الصلح بينهم وبين إخوانهم من ذبيان وتحملا ديات القتلى وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير ، وفى ذلك يقول زهير بن أبى سُلمى مادحا سعيهما هذا .

سعى ساعيا غَيظ بن مرة بعد ما   تبزل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله   رجال بنوه من قريش وجرهم
يميناً لنعم السيدان وجدتما   على كل حال من سَحِيل ومُبْرَم[1]

وبذلك انتهت هذه الحرب الضروس التى مكثت أربعين سنة من سنة ٥٦٨ م إلى سنة ٦٠٨ م[2] ، أى بعد وفاة النابغة بقليل ، وقد شردت فيها بنو عبس وطوفت فى شتى أنحاء الجزيرة العربية ، وقتل من الفريقين خلق كثير ، وقد شهد النابغة الذبيانى كل وقائعها ، وكان حريصا كل الحرص على أن يظل بنو أسد حلفاء لقومه فى هذه الحروب الطويلة ، وله فيهم مدائح مستفيضة ، كما كان يرد مكايد بنى عامر أعداء قومه ويقوم بكل ما تتطلبه القبيلة من شاعرها الفحل : يرثى قتلاها ، ويمدح فرسانها ويشجع حلفاءها ، ويذم أعداءها ، وسنرى أن هذه الحروب قد شغلت جزءاً كبيراً من شعر النابغة الذبيانى وسترد فيه أسماء المواقع والأمكنة والأشخاص الذين مر ذكرهم ، ولذلك حرصنا على أن نورد موجزاً وافياً لهذه الحرب التى كان لها أثر كبير فى حياة الشاعر .

غارات ذبيان وحلفائها على الغساسنة :

وكان لبنى ذبيان حروب أخرى فى ميدان غير ميدان داحس والغبراء ، وذلك أن الصحراء كانت تشح عليهم فى بعض السنين ، وتقل المراعى ، ويشتد القحط ، ويدفعهم

(١) السيدان : الحارث بن عوف ؛ وهرم بن سنان : وكلاهما من ذبيان ؛ وسحيل : الخيط المفتول على قوة واحدة ؛ والمبروم المفتول على قوتين ؛ والمعنى : لنعم السيدان وجدتما حين تفاجئان لأمر قد أبرمتماه وأمر لم تبرماه .

(٢) راجع de Perceval. Essai sur l, histoire des Arabes. P .474
وراجع ديرنبورج ديوان النابغة ص ٢١٥

حب البقاء إلى البحث عن مواضع العشب والكلأ ، وإلى السعى وراء ما يسد الخلة ، ويبقى الرمق ، ولذلك كانوا كثيراً ما يغيرون على أطراف بلاد غسان يسوقون نعمهم أو يَرْعون كلأهم ، وكان الغساسنة يرسلون لهم من يؤدبهم وينكل بهم حتى لا يعودوا وهيهات ! ، فإن الحاجة هى التى تدفعهم فى هذه السبيل ولذلك لم يقلعوا عن غاراتهم حين يحز بهم الأمر ، ويشتد بهم القحط .

وفى كل مرة تدور المعارك بينهم وبين الغساسنة ، فآنا ينتصرون ، وآنا ينهزمون وكان حلفاؤهم من بنى أسد يغيرون معهم ، ويشتركون فى كل حروبهم ، وكثيراً ما يأخذ الغساسنة أسرى من ذبيان ومن أسد .

وهنا نرى النابغة يتوسط لقومه ، ويتشفع لدى الغساسنة وكان أثيراً عندهم مرموق المكانة ، له دالة ومنزلة عظيمة ، فتجاب شفاعته ، ويطلق الغساسنة الأسرى إكراما له .

وكان بنو أسد كذلك يناصرون ملوك الحيرة فى حروبهم مع الغساسنة ، فإذا وقع منهم فى أسر غسان عدد ، هب النابغة يدافع عنهم ، ويتشفع ، ولم يكن ترد له شفاعة وكان هذا يطلق لسانه فى مدح آل غسان ، وقوادهم . ونراه أحياناً يثبط الغساسنة عن غزو قومه أو حلفائهم بعد غارات ذبيان عليهم ، ويحذرهم المخاطرة بجيوشهم فى الصحراء وقتال قوم أشداء أولى بأس وخبرة بالحرب ؛ وأحياناً يحذر قومه عاقبة البغى والعدوان وما أعده لهم الغساسنة من عدة إن هم تجرءوا على مناوشتهم ، وتخطف أطراف دولتهم .

ولقد سجل شعره كثيراً من هذه الأحداث ، وتمثل فيه النابغة رفيع المكانة ، مقبول الشفاعة ، مدافعاً عن قومه وعن أصدقائه ، غير مقصر فى حقوقهم ، على الرغم من أنهم كانوا يحسدونه هذه المكانة ، ولا يتورعون عن إيذاء رهطه بنى يربوع ابن مرة مما جعله يعاتبهم عتاباً مراً ، ويذكرهم بأياديه البيضاء عليهم .

— ٤ —

الحيرة وغسان :

اتصل النابغة الذبيانى ببلاطى الحيرة وغسان ، وكان لهذا الاتصال أثر كبير فى شعره سواء من ناحية الأغراض التى خاض فيها ، أو من ناحية المعانى التى طرقها ولزام علينا أن نعرض فى كلمة موجزة شيئاً من سيرة ملوك الحيرة وغسان ، ولا سيما هؤلاء الذين مدحهم النابغة .

أما الحيرة فيرجع تأسيسها إلى سنة ٢٢٨ م حين رأى ملوك الدولة الساسانية بعد أن وحدوا تحت إمرتهم دويلات فارس ، أن الصحراء تقلق راحتهم ، وأن البدو يغيرون على أطراف مملكتهم ، ولا يحمى هذا الجانب من أرضهم ، ويتصدى لهؤلاء البدو المغيرين — الذين كثيراً ما يلوذون بالصحراء يعتصمون بها ، ولا قبل للفرس بتتبعهم فى هـــذه الفيافى الشاسعة المضلة — إلا عرب مثلهم لهم خبرة بالصحراء ، وبأخلاق أهل البادية وعاداتهم وبطرقهم فى القتال ، فأسسوا دولة الحيرة ترأسها أسرة عربية لتكون حاجزاً يقيهم شرور الفلاة وقُطّانها .

وتقع الحيرة على بعد ثلاثة أميال من الكوفة ، بالقرب من أنقاض بابل القديمة وكان سكانها ثلاثة أنواع : (١) تنوخ ، والأشهر أنهم من عرب اليمن الذين نزحوا شمالا بعد تصدع سد مأرب ، وهم من قبيلة قضاعة والأزد ولخم ، ويرى بعض المستشرقين أنهم عرب عدنانيون ؛ لأن لغتهم قريبة من العدنانية ، ولأن عاداتهم ، وأسماءهم ، وأوثانهم تشبه تلك التى لعرب الشمال ؛ بيد أن هذه أدلة لا تقوم على أساس متين ، فاللغة العدنانية كانت سائدة فى شمال الجزيرة ، وقد تلاشت فى ذلك العهد الذى أسست فيه دولة الحيرة الفروق بين لغة اليمنيين الذين نزحوا إلى الشمال فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد ، وبين لغة العرب العدنانيين الذين اختلطوا بهم وجاوروهم هذه المدة الطويلة وأخذوا عنهم عاداتهم وطرق معيشتهم . وسموا (تنوخ) لأنهم آثروا الإقامة فى هذا

المكان على الرحلة والتجوال ، من تنوّخ فى المكان أى أقام به .

٢ — العباد : وهم سكان البلاد الأصليون الذين وفدت عليهم قبائل اليمن ، وأقاموا معهم ، وأغلب الظن أنهم كانوا عرباً كذلك . وقد كان العباد نصارى على المذهب النسطورى وأغلبهم يحترف الصناعات المختلفة ، ومنهم عدى بن زيد العبادى ، وكانت ثقافتهم أعلى من ثقافة سكان الحيرة ، ومنهم من يعرف الفارسية والآرامية والعربية ، وكان عدى بن زيد ووالده من قبله وابنه من بعده يعملون فى بلاط الأكاسرة ، يترجمون إلى العربية والفارسية .

٣ — الأحلاف : وهؤلاء خليط من القبائل العربية التى ملّت عيشة الصحراء ، والحرب والرحلة ، ولجأت إلى هذا المكان لخصبه ، وتحالفوا مع العباد فسموا كذلك .

ويصحب تأسيس الحيرة شىء من الغموض ، وقد حبكت الأساطير حول جذيمة الأبرش وعمرو بن عدى ابن أخته ، وله قصة مع الزباء ملكة تدمر مشهورة فى كتب الأدب ، ولكنها لا تصل إلى مرتبة التاريخ المحقق . وعمرو بن عدى هذا هو أول الملوك اللخميين . أما جذيمة فكان من قضاعة .

ولكنه عثر أخيراً على قبر امرئ القيس بن عمرو بن عدى ملك الحيرة ، وعليه نقش بالخط النبطى ، وفيه كثير من الكلمات العربية المختلطة بالآرامية ، ويرجع تاريخه إلى ٣٢٨ م ويعرف هذا النقش بنقش (نماره)[1] وقد جاء فيه ما ترجمته :

هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذى تقلد التاج ، وأخضع قبيلتى أسد ونزار وملوكهم ، وهزم مذحج إلى اليوم ، وقاد الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر ، وأخضع معداً ، واستعمل بنيه على القبائل ، وأنابهم عنه لدى الفرس

(١) اسم لقصر صغير للروم ، وهو فى الحرة الشرقية من جبل الدروز بالقرب من دمشق . راجع بروكلمان الفقرة ٢٣ Sem. ch. I. وراجع تاريخ اللغات السامية لإسرائيل ولفنسون ص ١٩٠

والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه إلى اليوم . توفى سنة[1] ٢٢٣ فى يوم ١٧ أيلول (سبتمبر) وفق بنوه للسعادة .

ولسنا نعرف أول ملك من ملوك الحيرة اتصل به النابغة الذبيانى ، وإن كان يروى أنه اتصل بالمنذر بن ماء السماء[2] (٥٠٥ — ٥٥٤ م) ؛ بيد أن شعره ليس فيه ما يدل على هذا الاتصال . والمنذر هذا كان من أشهر ملوك الحيرة ، وقد نافسه لدى الفرس الحارث بن عمرو الكندى ، وتقرب من قباذ ملك الفرس ، وساعده على ذلك أن المنذر رفض اعتناق مذهب (مزدك) ، الذى كان يدعو إلى التنافس والخصام بين الناس وقد استطاع الحارث الكندى أن يطرد المنذر من الحيرة بمساعدة قباذ ؛ بيد أن أيام قباذ كانت قصيرة ، ولما تولى كسرى أنوشروان للعرش — وكان قد تمكن من قتل مزدك وهو بعد ولى العهد — اضطهد أنصار هذا المذهب الإباحى حتى طهر منهم بلاد فارس ، وأعاد المنذر الثالث إلى عرش الحيرة ، فتتبع الحارث الكندى إلى الأنبار فأفلت منه ، ولكنه أسر من قومه ومن عاونوهم جماعة ، وفيهم مالك وعمرو ابنا الحارث . وكان امرؤ القيس الشاعر من بين هؤلاء الأسرى ، ولكنه استطاع النجاة وقد قال فى هذه الحادثة التى أسر فيها قومه وقتلوا :

ملوك من بنى عمرو بن حجر   يساقون العشية يقتلونا

فلو فى يوم معركة أصيبوا   ولكن فى ديار بنى مرينا

ولم تغسل جماجمهم بغسل   ولكن فى الدماء مُرَمَّلينا

وقد غزا المنذر بلاد الروم بتحريض من كسرى ، إذ كانت العداوة على أشدها

---

(١) كان أهل الشام وحوران يؤرخون بالتقويم البصرى (نسبة إلى عاصمة حوران) ؛ وهو يبدأ بدخولها فى حوزة الروم سنة ١٠٥ للميلاد ، فإذا أضيفت إلى ٢٢٣ كان المجموع ٣٢٨ للميلاد وهى السنة التى توفى فيها هذا الملك .

راجع تاريخ الآداب العربية ج ١ ص ٢٦ لجورجى زيدان .

(٢) وهو المنذر الثالث ابن امرئ القيس الثالث ابن الأسود بن المنذر الأول .

بين الدولتين ، وتمكن من اجتياح بلاد الشام حتى وصل إلى أنطاكية ، ورأى الأمبراطور جستنيان الرومانى أن يستعين بالحارث بن جبلة الغسانى لصد عدوان المنذر

ومن ثم ابتدأت سلسلة من الحروب بين هذين الأميرين العربيين كان مدارها النزاع على القبائل المجاورة للطريق الحربى من دمشق إلى ما بعد تدمر ، وكان كل يدعى السيطرة عليها ، وفى إحدى هذه الحروب أسر المنذر ابناً للحارث ثم ذبحه فى الحال تقرباً إلى الآلهة العزى[1] ، ويقال أنه ضحى بأربعمائة مسيحى فى إحدى معاركه لهذه الآلهة . وقد قتل المنذر فى يوم (حليمة)[2] بمقاطعة قنسرين ، على الطريق بين حلب والرقة سنة ٥٥٤ م .

والمنذر الثالث هذا هو صاحب يومى البؤس والنعيم ، وقد ذهب ضحية يوم بؤسه كثير من الناس ، ومنهم عبيد بن الأبرص الشاعر ، وهو صاحب الغريين[3] وثمة قصص كثيرة تروى حول يومى البؤس والنعيم والغريين تغص بها كتب الأدب العربى .

وإذا كان ديوان النابغة لا يدلنا على اتصاله بالمنذر الثالث ، فإن فيه ما يثبت أنه هنأ عمرو بن هند حين توليه عرش الحيرة بقصيدة طويلة — من صحيح شعره الذى رواه الأصمعى مطلعها .

أتاركة تدللها قطام وضناً بالتحية والكلام

ولكن يظهر أن ابن هند لم يأبه لمدح النابغة له ؛ لأننا لا نرى فى الديوان غير هذه القصيدة متعلقة بعمرو بن هند ، مما يدل على أن الشاعر لم يجد منه قبولا فانصرف عنه . ثم إن الشاعر شغل فى هذه الفترة بحروب ذبيان مع الغساسنة ، وقتالهم مع عبس فى حرب داحس والغبراء .

---

(١) راجع Huart. Histoire pes Arabes P. 67.

(٢) سنعود إلى ذكر يوم حليمة عند الكلام على الحارث الغسانى .

(٣) صومعتان بناهما على صديقين كان قتلهما فى سكره فلما أفاق ندم على ما فعل ؟ وبنى هاتين الصومعتان لذكراهما ، وجعل لهما يوم نعيم ، ويوم بؤس ، فكان لا يطلع عليه أحد فى يوم بؤسه إلا قتله

وكان ابن هند هذا صعب المقادة ، فظاً ، ظالماً ، كثير الزهو والكبرياء ، وكان يدعى (مضرط الحجارة) لقسوته . وكانت أمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندى الذى كان ينافس والده المنذر الثالث على عرش الحيرة ، وهى عمة امرىء القيس الشاعر .

وقد امتازت الحيرة فى عهده بأن صارت مقصد شعراء البادية ، فوفد عليه طرفة ابن العبد ، والمتلمس ، والنابغة ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة وغيرهم .

وكان عمرو وقد جعل الدهر — كما يقول الرواة — يومين : يوماً يصيد فيه ، ويوماً يشرب فيه ، فإذا جلس لشرابه أخذ الناس بالوقوف على بابه حتى ينتهى من مجلس أنسه : ويظهر أن طرفة بن العبد أنف من هذه الوقفة ، فقال يهجوه[1] :

فليت لنا مكان المـْلك عمرو رغوثاً حول حجرتنا تدور

قسمت الدهرَ فى زمن رخيٍّ كذاك الدهر يَعْدِل أو يجور

لنا يوم ، وللكروان يوم تطير البائسات ولا نطير

فأما يومهن فيوم سوء تطاردهن بالخسف الصقور

وأما يومنا فنظل ركباً وقوفاً لا نحل ولا نسير

وكان المتلمس كذلك كارها لهذه المعاملة ، فحالف طرفة على هجو عمرو بن هند وظل كلاهما يرميه بكل مقذعة ؛ حتى تخلص منهما بأن أرسلهما إلى عامله بالبحرين : فأما المتلمس فقد عرف ما فى صحيفته ، وأن فيها هلاكه ، وأما طرفة فأبى أن يصدق جرأة الملك على قتله فسعى لحتفه حيث قتله عامل البحرين ، وهى قصة مشهورة فى كتب الأدب .

وعمرو بن هند هذا هو صاحب يوم (أوارة الثانى)[2] المشهور . وكلنا يعلم حادثته

---

(١) راجع العقد الثمين لوليم بن الورد البروسي ص ٦٤

(٢) كان من شأن يوم أوارة هذا ، أن عمرو بن هند كان له أخ أو ابن قتلته جماعة من زرارة خطأ فأقسم ليقتلن منهم مائة ، وجد فى طلبهم فأتى له بتسعة وتسعين رجلا وتعذر عليه أن يجد من يكمل المائة ، فشق لهم أخدوداً وحرقهم فيه ، وفى آخر النهار جاء رجل من البراجم أغرته رائحة الشواء ؛ فظن أن ثمة طعاماً يطهى ؛ فلما سأله عمرو : من أنت ؟ وقال : إنى من البراجمة قال عمرو : « إن الشقى وافد البراجم » وقتله وصارت تميم كلها تعير بذلك . وأوارة اسم لجبل فى ديار تميم ،

راجع تتمة أخبار هذا اليوم فى أيام العرب ص ٢٠٠ وابن الأثير ج ١ ص ٣٣٤ والنقائض ٦٥٣ ، ١٠٨١

مع عمرو بن كلثوم ، وكيف أراد أن يذل أمه بأن جعلها تخدم هنداً والدته ، فلما استغاثت أم عمرو بن كلثوم بقولها : « وا ذلاه يا لتغلب ! » جللّه عمرو بن كلثوم بالسيف فقتله ، وقال قصيدته المشهورة ، ولعل من الأسباب التي هاجته تحيز الملك لقبيلة بكر حين سعى فى الصلح بينها وبين تغلب .

وقد روى صاحب جمهرة شعراء العرب نقلا عن أبى عبيدة بيتين من الشعر ونسبهما إلى النابغة الذبيانى يهدد فيها عمرو بن هند حيث يقول :

من مبلغٌ عمروَ بن هند آيةً ومن النصيحة كثرةُ الإنذارِ

لا أعرِفَنَّك عارضاً لرماحنا فى جُفٍّ ثعلب واردى الأمرار

وذلك حين تعرض صاحب الجمهرة لتفسير كلمة جف حيث قال : الجف . الجمع الكثير من الناس ، قال النابغة وأورد البيتين . ثم قال : يعنى ثعلبة بن عوف بن سعد ابن ذبيان وروى الكوفيون : جف تغلب، وهذا خطأ لأن تغلب بالجزيرة ، وثعلب بالحجاز وأمرار موضع هناك » .

وقد روى ياقوت فى معجم البلدان[1] البيت الثانى منهما ، ولكن هل بلغت الجرأة بالنابغة أن يهدد عمرو بن هند ، وهو المشهور ببطشه وسطوته ، وإبعاده الغارة فى جزيرة العرب ؟ أم هذه أبيات منحولة ؟ . لعل ذلك من باب التحذير ، وقد استعمل النابغة مثل هذا الأسلوب — فى الصحيح من شعره — مع الغساسنة وسواهم

هذا ولا نعرف أن النابغة الذبيانى قد اتصل بعد عمرو بن هند بأحد من ملوك الحيرة إلا النعمان بن المنذر أبى قابوس آخر ملوكهم ، وإن كان ابن قتيبة فى الشعر والشعراء يذكر أن النابغة « كان مع النعمان بن المنذر ومع أبيه وجده وكانوا له مكرمين »[2] بيد أننا لا نرى أثراً لهذا الاتصال فى شعره .

أما النعمان بن المنذر فلا يكاد يذكر فى التاريخ إلا مقروناً باسم النابغة الذبيانى ،

---

(١) ج ١ ص ٣٦

(٢) الشعر والشعراء طبعة الحلبى ص ١١٥

وقد تولى النعمان ملك الحيرة فى سنة ٥٨٠ م بعد أن ظل العرش شاغراً ما يقرب من سنة ، وكانت ولاية العرش تأتى من قبل الأكاسرة ، وقد سعى له فى الملك لدى الأكاسرة عدى بن زيد العبادى (١) .

وكان ترجماناً لهم ، ذا مكانة ، وفيه ثقة ، وكان ينافسه فى الملك إخوته وكانت عدتهم اثنى عشر رجلا عدا النعمان ، وقد اشتهروا بجمالهم وهيبتهم حتى لقبوا بالأشاهيب وفيهم يقول الأعشى :

وبنو المنـذر الأشـاهيب بالحـ ـيرة يمشون غُدوة بالسيوف

وكان النعمان من بينهم دميا أحمر ، أبرش ، قصيراً ، إلا أن كسرى آثره على إخوته حين وفدوا عليه ؛ لأن عدى بن زيد لقَّنه الأجوبة التى تروق لكسرى حين يسأله وإخوته .

وقد اشتهر النعمان بن المنذر بمحبته للأدب وللشعراء ، وكان فى مدة حكمه الطويل الذى دام اثنتين وعشرين سنة خير راع للشعر ؛ إذ وفد عليه النابغة الذبيانى وكان عنده أثيراً ، لا يعدل به شاعراً سواه ، ولنا عودة إلى العلاقة بينهما عند الكلام على حياة النابغة إن شاء الله . وممن وفد عليه ومدحه حسان بن ثابت الأنصارى ، والأعشى ، ووفد عليه لبيد بن ربيعة فى قومه بنى عامر ، وهو بعد يافع لم يشتهر بالشعر ، وكان النعمان يقرب الربيع بن زياد العبسى وينادمه ، وقد مَرَّ بنا ما بين عبس وبنى عامر من عداوة ، فكان الربيع يغض من شأن بنى عامر فى مجلس النعمان ، وينفره منهم ، فيتلوم فى قضاء حاجاتهم ، ولما ضاق بنو عامر بالأمر ذَرْعاً ساطوا عليه لبيداً يهجوه وهو يؤاكل النعمان فى أرجوزة مشهورة منها :

يارب هيجا هى خير من دَعَهْ أكل يوم هامتى مقزعة ؟ (٢)

---

(١) راجع Huart. Histoire des Arabes P. 69.

(٢) لما استوثق بنو عامر من أن لبيداً يستطيع هجو زياد بن ربيعة حلقوا له شعره وتركوا ذؤابتين وألبسوه حلة ثم غدوا به إلى النعمان — فهذا معنى قوله ، هامتى : مقزعة . راجع شعراء النصرانية ص ٧٩٠

نحن بنو أم البنين الأربعة　　ومن خيار عامر بن صعصعه
المطعمون الجفنة المدعدعه　　والضاربون الهام تحت الخيدعه
يا واهب الخير الكثير من سعه　　إليك جاوزنا بلاداً مسبعه
مخبرُ عن هذا خبيرٌ فاسمعه　　مهلا أبيت اللعن لا تأكل معه

ثم أخذ يهجو زياداً حتى نفر منه النعمان ونحاه عن مجلسه .

والنعمان بن المنذر هو صاحب يوم (طِخفة)[١] ويوم (السُّلاّن)[٢] ، ويقال إنه خذل خسرو ملك الفرس فى واقعة (النهروان)[٣] فأسرها فى نفسه ، وعزم على الانتقام منه ، وساعده فى الانتقام زيد بن عدى بن زيد العبادى ؛ لأن النعمان لم يحفظ يد عدى عنده ، وسمع فيه كلام الوشاة وسجنه ، ثم قتله فى السجن ، وما زال ابنه زيد بعد ذلك — وكان قد حل فى مكان أبيه لدى الأكاسرة — يوغر صدر خسرو عليه حتى استدعاه إلى بلاد فارس ، ثم سجنه ، وقتله بخانقين فى قصة معروفة .

وكان النعمان قد أوجس خيفة من خسرو فأودع دروعه ونساءه وأولاده وأمواله عند هانئ بن مسعود الشيبانى ، فلما مات بسجن كسرى ، أراد أن يستولى ملك فارس على ما تركه ، ولكن هانئاً حال بينه وبين ما اؤتمن عليه ودارت بين العرب والفرس بسبب ذلك موقعة (ذى قار) وقد انتصر فيها العرب انتصاراً باهراً على الفرس ، وكان ذلك أول انتصار لهم على هذه الدولة العظيمة فى سنة ٦١١[٤] .

(١) طخفة : موضع فى طريق البصرة إلى مكة وكان هذا اليوم بين النعمان وبين بنى يربوع وكانت لهم ردافة الملك والرديف يجلس عن يمين الملك إذا جلس ، ويردفه وراءه إذا ركب ، وله ربع الغنيمة فى الحرب ، ولما مات عتاب بن هرمى (وكان الرديف) أبى المنذر أن يردف ابنه لصغر سنه ، فثارت بنو يربوع ، فأرسل عليهم الملك جيشاً فيه ابنه قابوس وأخوه حسان ، ولكن جيشه هزم شر هزيمة وأسر ابنه وأخوه فافتداهما بفدية الملوك وهى ألف بعير لكل منهما ، واضطر أن يردف ابن عتاب .

(٢) السلان : موضع فى ديار بنى عامر ، وكان من عادة النعمان أن يرسل (اللطيمة) كل عام إلى عكاظ ، واللطيمة : العير فيها المسك وأنواع الطيب ، فتعرض بنو عامر للطيمته فى إحدى السنين ، ولكنه أعد جيشاً فى العام التالى يحمى اللطيمة وينتقم من بنى عامر ، بيد أن بنى عامر أخذوا حذرهم ونكلوا بجيشه فى يوم السلان هذا .

(٣) راجع Huart, His P. 70　(٤) راجع ج١ الفصل الثانى من تاريخ العرب Sedillot

وبموت النعمان بن المنذر تقوض عرش اللخميين .وتولى ملك الحيرة إياس ابن قبيصة الطائى برهة يسيرة ، فلما اندحر الفرس فى موقعة ذي قار ، ضاع عرشه ، وحكم الحيرة عامل فارسى[1] حتى وطئتها أقدام الجيوش الإسلامية فى سنة ٦٢٨ ، ودخلت فى حوزة المسلمين .

لقد كانت الحيرة — كما رأيت — مقصد أهل البادية ، يقصدونها حين تبخل عليهم السماء ، ويشتد بهم الضر ، فيرجعون إلى ديارهم يحملون من خيرات المناذرة وعطاياهم ما يفرج كربتهم ، ويلهج ألسنتهم بالثناء .

وكانت الحيرة — ولا ريب — على قسط كبير من الحضارة إذا قيست بالبادية ، قد غصت بكنوز آسيا الصغرى مما غنمه المناذرة فى غزواتهم المتتابعة لبلاد الروم ، حتى صار ملوكها لا يقلون رفاهية ونعمة عن ملوك غسان[2] . وقد اشتهروا بالعمارة فمن ذلك القصران المشهوران (الخورنق والسدير) ، وقد ضرب بهما المثل فى الأدب العربى . ولا شك أن اختلاطهم بالفرس قد أفادهم كثيراً من معرفة طرق الحكم ونظامه ، وترتيب الجيوش ، بل كانت هناك كتيبة فارسية تحت إمرة المناذرة تدعى الشهباء ، تعاونهم فى حفظ النظام ، والضرب على يد الخارجين عليهم ، وفى حروبهم الطويلة مع الروم والغساسنة .

وكانت المسيحية منتشرة بين سكان الحيرة . وقد اعتنقها بعض المناذرة ، وهم الذين علموا عرب الحجاز الخط فى الجاهلية ؛ لأن بعضهم كان يجيد الكتابة ولا سيما العباد ، وعنهم نقل عرب البادية عشرات الألفاظ الفارسية التى تمت إلى الحضارة بصلة وقد رأينا كيف كانوا مختلطين كل الاختلاط بالقبائل العربية سواء فى ذلك المجاور لهم ، أو التى تقصدهم من داخل الجزيرة .

---

(١) راجع . Huari His P. 71 أما المنذر الخامس الملقب بالمغرور فقد ولاه أهل البحرين عليهم حين هاجمتهم الجيوش الإسلامية وقتل فى سنة ٦٣٢ .

(٢) راجع : Sdeillot · Histoire Génrale des Arabes الجزء الأول — الفصل الثانى

لقد عاش النابغة حقبة من عمره في حاشية النعمان بن المنذر يؤاكله وينادمه ويحضر مجالس أنسه ولهوه ، ويرى أشياء كثيرة لم يكن ليراها لو عاش فى البادية طول حياته ، حتى لقد قيل : إنه كان يأكل فى صحاف الذهب والفضة . ولقد كان لهذه الحياة التى عاشها النابغة مع النعمان ، والمشاهد التى شهدها ، ومناظر الريف ، وأسباب الحضارة أثر كبير فى شعره ، سنلمسه حين نتعرض لذلك الشعر إن شاء الله .

أما الغساسنة فكانوا يقيمون فى ما يسمى الآن (شرق الأردُن) ، ويمتد ملكهم إلى أطراف العراق ، وإلى خليج العقبة ، ومن مدنهم الشهيرة (جِلَّق) وهى دمشق أو قرية قريبة منها ، و (الجولان) وكانت على حدود البادية من الجنوب . وقد نزح هؤلاء من اليمن عقب انهيار سد مَأرِب ، وهم من الأزْد ، وقد نزلوا على ماء يسمى غسّان بتهامة العسير فنسبوا إليه . وفى ذلك يقول حسان بن ثابت[1] :

إمّا سألتَ فإنا مَعشرٌ نُجُبٌ ... الأزْدِ نسبتُنا والماءُ غسّانُ
شُم الأنوف لهم مجد ومكرمة ... كانت لهم كجبال الطود أركان

ولما ارتحلوا إلى بلاد الشام وجدوا بها (الضجاعمة) وهم قبائل من قضاعة كان يصطنعهم الروم ليدرءوا عنهم شرور البدو ، ويردوا عادية عرب الحيرة ، ويعينوهم فى حربهم مع الفرس . فرضى الغساسنة أن يؤدوا الإتاوة للضجاعمة ، ويساكنوهم فى ديارهم ، ثم ما لبثوا أن اختلفوا على مقدار هذه الإتاوة ، ونشبت بينهم حرب انتصر فيها الروم لصنائعهم الضجاعمة . بيد أن الغساسنة صمدوا لهم ودلوا على أنهم أقوى منهم . فاصطنعهم الروم وآثروهم على الضجاعمة ، وأمدوهم بأربعين ألف جندى من جنود الروم ليعينوهم فى المحافظة على حدود الدولة ، وكانت رئاسة غسان حينذاك

---

(١) وذلك لأن الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء من الأزد ويجتمعون مع الغساسنة أولاد جفنة فى عامر ماء السماء : صبح الأعشي ج ٢ ص ٣١٥

لجبلة بن عمرو ومنحه الإمبراطور الرومانى لقب (فيلارك) . وهى مرتبة تلى مرتبة الملك فى الدولة .

وأول شخصية تاريخية فى هذه الأسرة هى شخصية الحارث بن جبلة ٥٢٩ — ٥٢٧م واشتهر فى تاريخ العرب بلقب (الأعرج) ، وكان يعاصر الأمبراطور جستنيان ، وكسرى أنوشروان والمنذر الثالث ملك الحيرة . وقد ذكرنا آنفاً أن المنافسة كانت شديدة بين الفرس والروم ، وأن الحروب بينهما كانت كثيرة الاندلاع . وقد حرض كسرى المنذر الثالث ملك الحيرة على مناوئة الحارث بن جبلة صنيعة الروم . ودارت بين الملكين معارك عديدة انتصر المنذر الثالث فى بعضها . وهزم الحارث الغسانى والقائد الرومانى بلساريوس فى إبريل سنة ٥٢١ . ولكن ما لبثت رحى الحرب أن دارت مرة ثانية ، وكان النزاع دائماً حول القبائل العربية المحيطة بالطريق الحربى الرومانى ، ولأى الملكين تدفع الجزية ؛ ومن أشهر المعارك التى دارت بينهما (يوم حليمة)[١] بالقرب من قنسرين ، وفيه قتل المنذر الثالث ، وظل طريحاً فى ساح الوغى . وذلك فى سنة ٥٥٤ م[٢] .

ثم ذهب الحارث إلى القسطنطينية فى سنة ٥٦٣ ، ومنح لقب بطريق ، وقد غزا الحارث الجفنى تيماء[٣] ، حيث كان يقيم السموءل بن عاديا ، مطالباً بدروع امرئ القيس الشاعر وأسلحته التى تركها لديه وديعة حين ذهب يستنجد بملك الروم على أخذ ثأره . وقد توفى الحارث فى سنة ٥٧٠م .

---

(١) يروى فى شأن هذا اليوم أن الحارث أمر ابنته حليمة وكانت من أجمل النساء أن تعطر الجنود الذين يمرون بها . وقد وعدهم الحارث بأن من يقتل المنذر يتزوجها فألهب بذلك الحمية فى صدورهم ، وقتله ابن عم لها يدعى (لبيد) ولكنه ما لبث هو الآخر أن قتل فى المعركة ، وقد ضرب بيوم حليمة المثل فقيل : ما يوم حليمة بسر .

(٢) راجع ص ٦٠ من Huart, I, histoire des Arabes

(٣) المصدر نفسه .

وتولى بعد الحارث الأكبر أو الأعرج[1] كما يلقبه العرب ابنه المنذر ، وقد دارت بينه وبين قابوس ملك الحيرة معركة عين أُباغ [2] المشهورة فى كتب الأدب والتاريخ العربية ، وذلك فى سنة ٥٧٠ م حين هب قابوس للأخذ بثأر أبيه المنذر فدارت عليه الدائرة ، وقد ذهب المنذر الغسانى بعد ذلك إلى القسطنطينية ، عقب الجفوة التى كانت بينه وبين الإمبراطور بسبب الخلاف على الإتاوة ؛ ووضع على رأسه الإكليل والتاج ثم عاد فغزا الحيرة وأحرقها فى غيبة ملكها كما يقول عدى بن زيد العبادى :

سما صقر فأشعل جانبيها   وألهاك المروّح والعزيب [3]

ولكن ما لبث الروم أن ارتابوا به فأسروه ثم نفوه إلى صقلية ، ومن ثم تمرد أولاده الأربعة ، وعاثوا فى البلاد فساداً يرأسهم النعمان ابنه الأكبر ؛ بيد أن الدولة الرومانية عز عليها أن يثور هؤلاء ، ويطمع فيهم الفرس وعرب الحيرة ، فقبض على النعمان واقتيد أسيراً إلى القسطنطينية حيث قتل .

وقد دبت الفوضى على إثر ذلك فى هذا الجزء من المملكة الرومانية ، وانتقضت القبائل ، ولكن التاريخ يحدثنا بأن الغساسنة ملك منهم بعد ذلك الحارث السادس المعروف بالأصغر ، ثم عمرو بن الحارث وهو الذى مدحه النابغة الذبيانى بقصيدته البائية المشهورة ، والتى يقول فيها :

على لعمرو نعمة بعد نعمة   لوالده ليست بذات عقارب

وقد تولى الملك من سنة ٥٨٧م إلى سنة ٥٩٧م على وجه التقريب ، وخلفه أخوه

---

(١) يجمع الفرنجة الذين كتبوا عن الغساسنة على أن الحارث الأكبر هو الحارث الأعرج ؛ ويرى بعض مؤرخى العرب أن الأعرج ابن الأكبر ، وأن الأول قبره بصيداء ، والثانى بدمشق . راجع تاريخ العرب القدامى للشيخ محمد فخر الدين بك ص ٥٦

(١) أُباغ بضم الهمزة : على الحدود بين العراق والشام . وقد اختلف فى ترتيب هذه الموقعة فمؤرخو العرب أحياناً يقدمونها على يوم حليمة وأحياناً يؤرخونها وقد اعتمدنا رأى Huart ص ٦٠ ، كما اختلف فى أى ملوك الحيرة تولى المعركة أهو المنذر الرابع أم قابوس بن المنذر الثالث وقد اعتمدنا كذلك رأى Huart

(٣) المروح : الإبل الذاهبة إلى أعطانها ، والعزيب : ما ترك فى مراعيه .

النعمان حتى سنة ٦٠٠م ، وقد مات مقتولا ، ورثاه النابغة بقصيدة مشهورة سنذكرها بعد . ولما غزا خسرو برويز ملك الفرس بلاد الشام [١] (٦١٣ — ٦١٤) واستولى على دمشق وأورشليم ، كان في ذلك القضاء على الدولة الغسانية . بيد أن هرقل ما لبث أن استرد بلاد الشام فى سنة ٦٢٩ . ويظهر أن الغساسنة كان لا يزال لهم بعض النفوذ بين القبائل العربية المجاورة لهم ، فإننا نسمع فيما بعد أن شرحبيل بن عمرو الغسانى قد اعتدى على رسول النبي صلى الله عليه وسلم الحارث بن عمرو الأزدي ، وهو ذاهب إلى ملك الروم يدعوه للإسلام ، وأن ذلك كان السبب فى غزوة مؤتة ثم نسمع عن جبلة بن الأيهم آخر ملوكهم ، وقد دخل فى الإسلام على عهد عمر بن الخطاب ، وقدم المدينة ، ثم تنصر وفرّ إلى بلاد الروم .

لم يعن العرب بتاريخ الغساسنة وأخبارهم مثل عنايتهم بعرب الحيرة ، وذلك لأن عرب الحيرة على الرغم من اقتباسهم كثيراً من ألوان الحضارة الفارسية ، فإنهم ظلوا على اتصال وثيق بعرب البادية كما مرَّ بنا ، وظلوا كذلك على وثنيتهم إلا بعض أفراد منهم ، وكان معظم العرب فى ذلك الوقت وثنيين ، هذا مع المحافظة على الطبع البدوى من الكرم والأريحية والنجدة ، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك آنفاً . ثم إن الغساسنة على مايظهر كانوا أعلى ثقافة من ملوك الحيرة ، وكانت ثقافتهم يونانية ، وهي غريبة عن العرب . فبعدت الفوارق العقلية بينهم وبين عرب الجزيرة . أضف إلى ذلك أنهم لم يملكوا طويلا كما ملك المناذرة بالحيرة ؛ لأن علاقتهم بالروم لا تعدو قرناً وبعض قرن على ما حققه (نولدكه) [٢] ، وكان الملك قبلهم للضجاعمة وثمة سبب آخر وهو أن بلاد الشام كانت بعيدة عن نجد ، ونجد كانت معدن الشعراء ، فبعدت الشقة عليهم فلم يقصدهم إلا من استطاع ذلك أمثال النابغة وحسان ، وقد كانت ديار النابغة متاخمة

---

(١) وإلى هذا تشير الآية الكريمة : (غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) .

(٢) راجع Noldeke, Die Ghassanisschen Fnrstn aus dem Hause Gafna,s,

لبادية الشام ، وكانت يثرب بلد حسان قريبة نوعاً ما من الشام ، فضلا عما بينه وبين آل جفنة من قرابة .

ويظهر كذلك أن لغة هؤلاء الغساسنة لم تكن العربية العدنانية الفصحى ، وأنهم كانوا يتكلمون لغة عربية مشوبة بلهجة نبطية تكثر فيها الكلمات الرومية ، وإن كان هذا لا يحول بينهم وبين فهم اللغة العربية الفصيحة ، ولعل هذا هو السبب فى أنهم لم يشتهروا بأدب أو شعر ، على خلاف أهل الحيرة فقد ظهر فيهم مثل عدى بن زيد العبادى ، وإن لم يكن من فحول الشعراء .

ومن هذا يتضح أن أثر الغساسنة الثقافى فى النابغة خاصة ، والعرب عامة ، لم يكن بذى بال ، اللهم إلا ما رآه فى قصورهم ، وما شهده من أحوال معيشتهم وعاداتهم وحروبهم بما لا يألف نظيرة فى البادية .

ولا ريب أن هؤلاء كانوا على درجة كبيرة من الحضارة ، ولا أدل على ذلك من تلك القصة التى رواها أبو الفرج فى الأغانى ، وذلك : « أن حسان بن ثابت دعى إلى مأدبة سمع فيها غناء رائقة وصاحبتها ، فلما دعى إلى بيته قال : لقد أذكرتنى رائقة وصاحبتها أمراً ما سمعته أذناى بعد ليالى جاهليتنا مع جبلة بن الأيهم : لقد رأيت عشر قيان ، خمس روميات يغنين بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وكان (جبلة) إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين ، وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب ، وأوقد له العود المندّى إن كان شاتيا ، وإن كان صائفاً بطن بالثلج ، وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية يتفضل[1] هو وأصحابه بها ، وفى الشتاء بفراء الفنك[2] وما أشبهه ، ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا وخلع علىّ ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم ، وعلى غيرى من جلسائه ، هذا مع حلم عمن

(١) يتفضل : أي يلبس الثياب الخفيفة وهى لبسة المتفضل كما ورد فى شعر امرئ القيس .

(٢) حيوان شبيه بالثعلب وفراؤه من أجود أنواع الفراء .

جهل ، وضحك وبذل من غير مسألة ، على حسن وجه ، وحسن حديث ، وما رأيت خنى قط ، ولا عربدة ، ونحن يومئذ على الشرك » .

فهذا نوع من المعيشة فرضته البيئة ؛ لأن دمشق ذات جو قارى ، شديدة البرد فى الشتاء عظيمة الحر فى الصيف ؛ وقد نقلوا ألوان الترف عن الروم فى زياراتهم المتتالية للقسطنطينية ، ومن هؤلاء الذين كانوا يجاورونهم ، وكانوا يعنون بتشييد القصور وتخطيط المدن والقرى ، فمن قصورهم المشهورة : القصر الأبيض والقلعة الزرقاء ، وقصر المشتى ، وبنوا عدة أقواس للنصر ، وحمامات عامة ، وقناطر للمياه ومسارح وكنائس .

وكان لكل هذا تأثير على كل من زارهم فى بلادهم ، وقد انعكست بعض هذه المشاهد على مخيلة النابغة ، فنم عليها شعره كما سنرى . وقد اتصل بالحارث السادس أو الأصغر وبعمرو بن الحارث ، وبالنعمان أخيه ، وهم وإن جاءوا فى أخريات الدولة وبعد أن شاب علاقتهم بالروم بعض الشوائب إلا أنهم كانوا لا يقلون ترفاً ومدنية عن آبائهم .

ولعلنا فى هذا الفصل الذى تكلمنا فيه عن بيئة النابغة ، وأفضنا فى الحديث عن مسرح حياته ، وما أثر فيه : من القبيلة والصحراء ، والحروب المتتابعة التى خاضتها قبيلته والبلاد المجاورة التى زارها . وإعطاء صورة واضحة عن الحيرة وغسان ، قد ألقينا بعض الضوء الذى يساعدنا على تفهم شعره ومراميه ، ولولا ذلك لجاء الكلام عن النابغة ناقصاً ، وفهم شعره وأغراضه ونفسيته عسيراً .

ديوان النـــابغة

— ١ —

الاهتمام بجمع الشعر :

ما كاد العرب يستقر بهم المقام فى أوطانهم الجديدة بعد الفتح ، حتى أخذوا يعنون بأسباب الحضارة والتقدم ، والعمل على حفظ تراثهم الدينى والأدبى ، كيلا يطغى عليه هذا الفيض المتدفق من الثقافات الدخيلة ، التى يجلبها إلى أسماعهم ، وتحت أبصارهم كل يوم آلاف الأعاجم الذين يدخلون فى الإسلام .

وكانت الدولة الأموية فى أول عهدها بالخلافة منصرفة إلى تهدئة الثورات الداخلية وإخمادها ، والعمل على نشر سلطانها فى ربوع البلاد العربية ، والديار التى فتحتها ، وفى إرسال الجنود فى شتى الجهات يدفعون بالغزو الإسلامى إلى غايته حتى وصلوا شرقاً إلى داخل بلاد الهند على يد محمد بن القاسم ، وغرباً إلى الأندلس على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد . بيد أن النصف الثانى من عصرهم شهد ابتداء حركة التدوين ولكنها سارت فى بطء وعلى غير نظام ، ولم تثمر هذه الحركة ثمارها الشهية إلا فى العصر العباسى حينما نضجت العقلية العربية واستحصفت ، وتضلعت فى الفهم والتدوين .

ومن أهم ما عنى به علماء اللغة جمع الشعر القديم . أجل ! إن القرآن الكريم قد بهر بفصاحته وأسلوبه الشعراء والأدباء فأفحمهم ، وجعل شعرهم بالنسبة إليه غثاً مرذولا ، وكل الشعر الذى قيل فى صدر الإسلام شعر ضعيف ، ولاسيما شعر هؤلاء الذين كانوا يقطنون المدن ، وتأثروا بالإسلام . أما من كان يعيش فى البادية بعيداً عن تعاليم الدين الجديد ، ولا تزال نوازع الشعر الجاهلى تدفعه وتطلق لسانه ، فقد كان شعره متيناً كالحطيئة وكعب بن زهير .

فلما فشا اللحن بانتشار الموالى ، ومخالطتهم العرب ، وفسد اللسان العربى بعض الفساد ، واحتاج الناس إلى تعلم اللغة حتى ينطقوا بالصواب ، خشى العلماء أن يستغلق القرآن على الفهم فنشطوا فى جمع اللغة وتدوينها ، بل إن الاهتمام بالقرآن هو الذى حفز العلماء فى عصر بنى أمية على شوارد اللغة وآدابها وأشعارها ليستنير بها المفسرون فى تفسير آياته وتوضيح معانيه .

وكان جل اهتمام العلماء موجها من أول الأول إلى الشعر الجاهلى ؛ لأنه أقدم وثيقة للغة العربية ، وأقوم مصدر لفهم غريبها ، ثم إنه يبين أحوال العرب الاجتماعية فى صور زاهية جميلة ، ويفصح عن أخلاقهم فى صدق وصراحة وبساطة وإخلاص بل إنه ينهج هذا النهج فى كل ما يتناوله من أغراض ، فاستعان العلماء به — وهذه حالته — على صبغ ألوان الحضارة الجديدة صبغة عربية ، وجعل اللغة تنهض بكل ما يتطلبه هذا النوع الحديث من الحياة فتعبر عنه أدق تعبير وأكمله ؛ فتوسعوا فى استعمال الكلمات العربية القديمة وأوجدوا لها معانى اصطلاحية لم تكن تعرفها من قبل : كالفاعل والمفعول ، والظرف فى النحو ، والمديد والبسيط والرمل فى العروض ، وما شاكل هذا : ولم يكن العربى فى العصر الأموى يدرك من هذه الكلمات مدلولاتها الاصطلاحية ولقد رويت نوادر طريفة للأعراب مع العلماء لجهل الأولين بهذه الكلمات الفنية ؛ والحق إن العرب جدوا فى هذا جداً يذكر لهم بالفخر ، حتى لتقرأ الفقه كله فلا تجد فيه كلمة أعجمية بل تقرأ المنطق وهو علم دخيل فلا تجد فيه لفظة أعجمية بل صيغ بألفاظ عربية بحتة .

كان لعلماء اللغة طرق شتى فى جمع الشعر فمنهم من وقف نفسه على شاعر فرد يجمع شعره ، ويرويه ، ومنهم من اهتم بشعراء قبيلة معينة كأشعار الهزليين ، وبعضهم يجمع قصائد خاصة لبعض الشعراء كالمفضليات للضبى ، أو يختار قطعاً وقصائد لشعراء عدة فى أغراض خاصة كحماسة أبى تمام .

ومن هذه المجموعات الشعرية التى رويت فى هذا العصر تلك المجموعة التى تضم شعر امرىء القيس ، والنابغة ، وزهير ، وطرفة ، وعلقمة ، وعنترة وهى مجموعة قيمة

لأن هؤلاء الشعراء منذ ظهروا على مسرح الحياة ، وهم فى المرتبة الأولى عند نقاد الأدب العربى ، وقد أخملوا كثيراً من شعراء زمانهم ، ولم يلحقهم من أتى بعدهم ، وكان لهم تأثير قوى على الأدب العربى ؛ وعلى الرغم من أنهم وجدوا طريق الشعر معبداً من ذى قبل ، وأسلوب القصيدة معروفاً إلا أنهم أمدوا الشعر بفيض من التعبيرات الجميلة والأساليب الممتازة ، والكلمات الكثيرة ، والآراء المتنوعة المبتكرة ، والصور الزاهية الجديدة ، مع افتنان فى طريق العرض والوصف ؛ وبذلك رفعوا من شأن القصيدة العربية ، وجعلوها مثلا أعلى يحتذيه الشعراء من بعدهم ، ولا يحاولون الخروج عما رسموه لهم على الرغم مما عرفوه من آداب الأمم التى خضعت لهم بعد الفتح كالفرس والروم والهنود .

وقد اهتم الرواة جد الاهتمام بالشعر الجاهلى لسبب آخر ، وهو أن لغة هذا الشعر لغة قوم لم تفسد ألسنتهم ، وهم حجة فى كل ما نطقوا به ، فلما استغلقت بعض الكلمات لغلبة العجمة على الناس ، ولتغير البيئة بالقوم فى مواطنهم الجديدة ، وبعد العهد بينهم وبين حياة البادية لجئوا إلى الشعر الجاهلى يستشيرونه فى تفسير هذه الكلمات ومواضعها من الجمل ، وطريقة التعبير بها ، وكان هؤلاء الشعراء الذين وضعت هذه المجموعة دواوينهم فى الصدارة من ثبت الشعراء الجاهليين ، بل شعراء العربية قاطبة ؛ وذلك لأنهم — فضلا عما تقدم — لم تكن حياتهم محدودة راكدة ليس فيها إلا حوادث البادية المألوفة كما كان حال غيرهم من الشعراء ، بل شهدوا حوادث لها أثر فى تاريخ الأمة العربية ، وذات أثر فعّال فى مقومات شخصيتها ؛ واتصلوا بأشخاص لهم وزنهم فى التاريخ ، وبذلك كان شعرهم موضع اهتمام منذ قيل ، ووجد فيه علماء اللغة ، وطلاب الأدب والمعانى ، جل طلباتهم ؛ فعكفوا على درس شعرهم منذ جمع قبيل منتصف القرن الثانى للهجرة فى كل صقع حل به العرب ، وشرح شعرهم عشرات من العلماء والأدباء وليس بصحيح ما قيل من أن الاهتمام بشعرهم كان وقفاً على أهل المغرب ، وربما نجم هذا الظن من كثرة المخطوطات التى عثر عليها بخط مغربى ؛ فإن ثمة نسخاً أخرى وجدت بالخط النسخى ، كما أن المشارقة عنوا جد العناية بشرح

شعرهم[1] وقد نشر هذه المجموعة وليم بن الورد البروسى W. Ahlwardt سنة ١٨٧٠م بلندن ، وكتب لها مقدمة قيمة بعد أن راجع عدة مخطوطات ، وقد جاء فى مقدمته : « إن هذه المجموعة رواها أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشَّنْتَمَرى النحوى اللغوى ٤١٠ — ٤٧٠ هـ ، وله عليها شرح كامل ، وقد قال فى مقدمتها : إنه اعتمد القصائد التى رواها الأصمعى [2] ، وعدها صحيحة ، وأضاف إلى كل شاعر ما رآه بعض الرواة الثقات غير الأصمعى صحيحاً ، وقد كان الأصمعى يعرف هذه القصائد كذلك ، بيد أنه شك فيها أو رآها منحولة .

ويظهر أن الأصمعى كان له شرح على هذه المجموعة ، يدل على ذلك أن الأعلم الشنتمرى كثيراً ما يرجع إلى تفسير الأصمعى فيقول : الأصمعى يفسر هذه الكلمة بكذا والأصمعى لا يعترف بهذا البيت ، وغير ذلك من التعليقات التى اعتمد فيها على الأصمعى .

وثمة نسخ أخرى تضم دواوين بعض شعراء هذه المجموعة ، مثال ذلك : شعر زهير بن أبى سلمى فقد رواه ثعلب [3]، وقد روى أبو بكر محمد بن القاسم المعروف بابن الأنبارى [4] ديوانى زهير والنابغة وشرحهما .

وجمع السكرى [5] دواوين امرئ القيس ، وزهير والنابغة . وإن كان يلوح أن (الأعلم الشنتمرى) لم ينتفع بمجهودات من سبقه ؛ إذ لم يشر إليهم قط . أما القصائد

---

(١) من مقدمة وليم بن الورد البروسى على هذه المجموع ، وهذه المقدمة كتبت باللغة الإنجليزية حيث ترجمها من الألمانية العلامة (نيكلسون) ، وسماها ابن الورد « العقد الثمين » . راجع المقدمة ص ٣.

(٢) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن على بن أصمع بن مطهر البصرى توفى سنة ٢١٠ هـ .

(٣) هو أبو العباس أحمد بن يحي بن سيار الشيباني المعروف بثعلب ٢٠٠ — ٢٩١ هـ .

(٤) توفى سنة ٣٢٨هـ

(٥) هو أبو سعيد الحسن بن الحسين بن عبد الله بن عبد الرحمن العتكى السكرى ٢١٢ — ٢٧٥ هـ أو ٢٩٠ هـ .

التى لا شك فيها الأصمعى فقد أثبتها (الأعلم) بناء على أدلة ظهرت له ، وقد اعتمد فى شعر النابغة ما رواه الطوسى[١] عن ابن الأعرابى[٢] » .

وقد وجد (وليم بن الورد) كثيراً من الأبيات منسوبة إلى هؤلاء الشعراء فى مختلف كتب الأدب ، فاسترعى ذلك نظره ، وأخذ يتساءل : هل كل هذه الأبيات مزورة ؟ ومن زوّرها ، ولماذا ؟ وصارت هذه الأسئلة تلح عليه ردحاً طويلا من الزمن ، وهو يرى هذه الأبيات ترد فى كتب أخرى منسوبة إلى هؤلاء الشعراء أنفسهم فاستنتج من ذلك أنها ليست مزورة ، وأن الأعلم رفضها عن غير قصد ، لأنها ليست مما رواه الأصمعى ، وقد تكون من مرويات غيره . ورأى من جهة أخرى أن استشهادات ابن قتيبة فى (الشعر والشعراء) وأبى الفرج فى (الأغانى) والجوهرى فى (الصحاح) لا تقتصر على ما اعتمده الأعلم الشنتمرى من رواية الأصمعى .

ويستدرك ابن الورد فيقول : « إن بعض هذه الأبيات مزور لا ريب فى ذلك ، وبعضها جاء من اختلاط الأسماء ، ويضرب على ذلك مثلا كلمة (بجل) فالجوهرى يستشهد على تفسيرها ببيتين من الشعر وينسبهما إلى زهير فيتبادر إلى الذهن أنه زهير ابن أبى سلمى ، ولكن ابن قتيبة ينسبهما إلى زهير بن جناب[٣] ، ويقع هذا التشابه فى اسم النابغة ، ففى نسخة باريس من هذه المجموعة تجد البيتين الآتيين منسوبان إلى النابغة الذبيانى :

فتى تمّ فيه ما يسر صديقه ... على أن فيه ما يسوء الأعاديا

فتى كملت أخلاقه غير أنه ... جواد فما يبقى من المال باقيا

ولكنهما فى نسخة أخرى ينسبان إلى النابغة الجعدى .

وقد يكون التزوير ناجماً عن خطأ فى الرواية ، فالبيت الآتى لا شك أنه من شعر الحطيئة ، ولكنه منسوب للنابغة :

---

(١) هو على بن عبد الله بن سنان التيمى الطوسى توفى سنة ٢٤٠ هـ وكان تلميذاً لابن الأعرابى

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابى توفى سنة ٢٣١ هـ ، وهو من رواة الكوفة

(٣) هو شاعر جاهلى قديم من كلب راجع ترجمته فى الشعر والشعراء ص ٣٣٩ ط الحلبى .

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نارٍ عندها خير موقد

ولكن معظم هذه الأبيات صحيحة ، ونسبتها إلى قائليها نسبة لا ريب فيها .

وقد اعتمد ابن الورد فى إخراج هذه المجموعة على عشر مخطوطات أشهرها :

١ ، ٢ — مخطوطتا باريس رقم ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، والثانية منهما أحسن من الأولى خطاً وقد رجع إليها فى معظم الأحيان ، ويرجع تاريخها إلى سنة ٥٧١ هـ ، أما الأولى فترجع إلى القرن الحادى عشر الهجرى .

٣ — النسخة الغوطية ، وترجع إلى سنة ١١٣١ هـ ، وفى كثير من الأحيان تتفق مع المخطوطة الباريسية رقم ١٤٢٥ ، وهى مخطوطة جيدة ويمكن الاعتماد عليها . وهذه المخطوطات الثلاث بخط مغربى .

٤ — مخطوطة من القرن الحادى عشر الهجرى ، وعليها تعليقات لابن النحاس [1]

٥ — مخطوطة أخرى عليها تعليقات لابن النحاس ، وللزوزونى فى القصائد المعروفة بالمعلقات .

٦ — مخطوطة بطرسبورج ، ٧ — مخطوطة (سبرنجر) وفيها جمهرة أشعار العرب

وقد بذل ابن الورد مجهوداً قيماً فى إخراج هذه المجموعة التى تضم مارواه الأصمعى من أشعار هؤلاء الفحول الستة ، ولكنه لم ينشر معها شرح الأعلم الشنتمرى عليها ؛ وبعد أن فرغ من تدوين ما رواه الأصمعى ألحق به ماعثر عليه فى كتب الأدب ، لكل شاعر من هؤلاء الشعراء تحت عنوان (الشعر المنحول) ، وقد لا يكون كل هذا الشعر منحولا مزوراً كما مرّ بنا ، ولكنها رواية غير الأصمعى ، ثم أشار فى ملحق آخر إلى اختلاف الروايات فى بعض الألفاظ ، واختلاف النسخ ، وكذلك ترتيب الأبيات فى القصائد مشيراً إلى كل مخطوطة ، وفى ملحق ثالث أثبت ما رواه الأعلم الشنتمرى وغيره من مقدمات القصائد التى تلقى ضوءاً على مناسباتها ، والأسباب التى دعت إلى

(١) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادى المصرى المتوفى سنة ٣٣٨ هـ

قولها . وقد روى الأصمعى فى هذه المجموعة أربعاً وعشرين قصيدة للنابغة الذبيانى فحسب ، ولكن ابن الورد أضاف سبع قصائد أخرى من مرويات غير الأصمعى (١) ثم زاد في ملحقه للنابغة سبعاً وخمسين قطعة شعرية وواحدة نثرية ، وهذه القطع فيها البيت الواحد وفيها القصائد الطويلة مثل قصيدته التى أولها :

عوجوا فحيوا لنعمٍ دِمْنَةَ الدار　　ماذا تحيون من نؤدى وأقفار

ومن كتب الأدب التى اعتمد عليها فى هذه الأبيات المنسوبة إلى الشعراء : الصحاح للجوهرى ، وأمالى القالى ، وشرح مغنى اللبيب للسيوطى ، وكتاب الأغانى ، وشرح المفضليات للمرزوقى ، وجمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب ، ونضرة الإغريض لأبى على مظفّر بن الفضل الحسينى ، وشروح قصائد ودواوين مختلفة .

وقد عرفنا رأيه فى بعض هذه الأبيات ، ولكنه يرى أن معظمها صحيح النسبة

هذا وقد نشر (ديرنبورج) Derenbourg فى سنة ١٨٦٨ م فى المجلة الأسيوية (٢)

ديوان النابغة الذبيانى نقلا عن مجموعة الأعلم الشنتمرى وأضاف إليه القصائد السبع التى رواها الطوسى عن ابن الأعرابى ، ثم أفرد هذا الديوان فى كتاب خاص (٣) ، وقد اعتمد على مخطوطتى باريس اللتين أشرنا إليهما آنفاً ، وعلى مخطوطة فينا رقم ٤٤٦ وهى بخط مغربى وعليها شرح لأبى بكر البطليوسى (٤) وقد قدم (ديرنبورج)

---

(١) من مثل ما رواه أبو عمرو بن العلاء ، والمفضل الضبى ، وأبو سعيد السكرى والطوسى عن ابن الأعرابى وغيرهم من الثقات ، وبذلك صار ديوان النابغة ٣١ قطعة غير الملحق .

(٢) Journal Asiatique عدد سبتمبر سنة ١٨٦٨ م .

(٣) tirag à part باريس سنة ١٨٦٩ .

(٤) هو أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسى وتوفى سنة ٥٢١ م ، وقد طبعت هذه المجموعة مع شرح البطليوسى بالمطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٢٩٣ هـ وفيها خمسة دواوين فقط من شعراء هذه المجموعة .

وقد نشر الحلبى مع شرح للكلمات الغريبة ، وتراجم موجزة للأستاذ مصطفى السقا هذه المجموعة فيها دواوين الشعراء الستة كما رواها الأعلم الشنتمرى .

لديوان النابغة بترجمة وافية منقولة عن كتب الأدب كالشعر والشعراء لابن قتيبة ، والأغانى لأبى الفرج وغيرهما ، مع رجوع إلى ما كتبه المستشرقون أمثال (دى پرسفال) عن العرب فى الجاهلية ، وله فيها مجهود خاص يستحق الثناء .

ثم أصدر (ديرنبورج) فى سنة ١٨٩٩ ملحقاً لديوان النابغة بعد أن عثر على المخطوطة رقم ٦٥ من مجموعة Schefer فى مؤتمر المستشرقين بباريس سنة ١٨٩٧ ، وقد كتبت هذه المخطوطة فى ساوة[1] ببلاد فارس بخط أبى القاسم محمد بن أبى القاسم الخاسى فى التاسع من جمادى الآخرة سنة ٤٩٢ هـ . ويقول ياقوت فى معجم البلدان : «كان بساوة أكبر مكتبة فى العالم ، وقد بلغنى أن التتار أحرقوها » وقد عثر أبو القاسم فى هذه المكتبة على هذه النسخة القيمة فنقلها . وفى هذه النسخة ثمان وخمسون قصيدة وقطعة للنابغة الذبيانى بما فى ذلك القصائد السبع التى أضافها الطوسى عن ابن الأعرابى كما وجدت فى مخطوطة (بطرسبورج) وبهامش هذه النسخة كتاب مجمع الأمثال للميدانى ، وهى مكتوبة بخط جميل . وفى مخطوطة (ساوة) تجد مثلا القصيدة المشهورة .

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصب

تسعة وعشرين بيتاً ، بينما هى فيما نشره ابن الورد عن الأعلم الشنتمرى ، وفيما نشره دير نبورج فى سنة ١٨٦٨ لا تزيد عن اثنى عشر بيتاً ، وتراها فى مخطوطة بطرسبورج عشرين بيتاً .

وقد وجد (دير نبورج) فى مخطوطة ساوة زيادات ليست فى مخطوطة بطرسبورج غير القصيدة السابقة ، وليست فى ملحق ابن الورد ؛ ولذلك قام بنشر هذه المخطوطة فيما يتعلق بديوان النابغة فحسب ، سالكاً سبيل الاختصار ، فالقصائد التى سبق له نشرها أونشرها ابن الأرد ، أشار إليها دون أن يذكرها ، ومعلقاً على ترتيب الأبيات

---

(١) تقع ساوة بين همذان والرى .

واختلافها فى المخطوطات العديدة . أما القصائد التى لم تنشر من قبل فقد أوردها بأكملها مع المقدمات التى تشرح ظروف القطعة وأسباب قولها ، وكذلك الزيادات التى اختصت بها مخطوطة (ساوة) فى القصائد التى رواها الأصمعى أو الطوسى ، أو رواها ابن الورد فى ملحقه.

وقد نشر الأب لويس شيخو فى شعراء النصرانية ديوان النابغة كما رواه الأعلم الشنتمرى وأضاف إليه ملحق ابن الورد . ولو كان من همى أن أنشر شعر النابغة كله فى هذا الكتاب لرجعت إلى ملحق (ديرنبورج) هذا الذى نشر فيه مخطوطة (ساوة) وذكرت القصائد بأكملها دون إشارة إلى ما سبق نشره ، وأضفت القطع الجديدة التى اختصت بها هذه المخطوطة ، وعلقت على كل بيت بما فيه من روايات مختلفة فى شتى المخطوطات .

بيد أنى هنا أترجم للنابغة ، ولست بصدد نشر ديوانه ، وكل ما يعنينى فى هذا المقام أن ثمة أربعة وعشرين قصيدة قد أثبتتها جميع المخطوطات وتلك القصائد هى التى رواها الأصمعى ، ثم سبع قصائد أخرى أثبتتها مخطوطة (بطرسبورج) ومخطوطة (ساوة) وهى ما رواه الطوسى عن ابن الأعرابى ، وبذلك تكون القصائد التى يرى الرواة الثقات أنها للنابغة الذبيانى ، بغض النظر عن اختلاف الروايات فى بعض الكلمات وبعض الزيادات ، إحدى وثلاثين قصيدة ، وهى التى ستكون موضع دراستنا فى شعر النابغة ؛ وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما أورده ابن الورد فى ملحقه ، وما انفردت به مخطوطة (ساوة) ولجأنا إلى الاستشهاد به عند الترجمة للنابغة ، فسنذكر أن هذه الأبيات منسوبة إليه ، أو ليست من رواية الأصمعى والطوسى ، حتى نكون فى استنتاجاتنا على حذر .

وإذا عرفت أن الأصمعى كان متزمتاً يضيق ولا يجوز إلا أصح اللغات ، ويلح فى دفع ما سواه ، وأنه كان شديد التأله ، لا يفسر من القرآن ولا من اللغة شيئاً له نظير

واشتقاق فى القرآن ، وأنه كان يتحرج فى الحديث ، ولا ينشد من الشعر ما كان فيه ذكر الأنواء ولا يفسره ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم « إذا ذُكرت النجومُ فأمسكوا » وأنه لم ينشد أو يفسر شعراً فيه هجاء ، أدركت أى راوية كان الأصمعى فى تثبته وتحقيقه ، وتحرجه .

ولقد تعقب الأزهرى[1] فى كتابه التهذيب رواة الشعر واللغة ، فتفقد كتبهم وتأمل نوادرهم ، ونظر فى الكلام المصحّف ، وأخذ يطلب مواضع الثقة فيما يروى عنهم ، ثم إنه بعد أن أمعن فى ذلك واستقصى قال : إنه وجد عُظم ما روى لابن الأعرابى ، وأبى عمرو الشيبانى ، وأبى زيد ، وأبى عبيدة ، والأصمعى معروفاً فى الكتب التى رواها الثقات عنهم ، والنوادر المحفوظة لهم ، فخص هؤلاء بالثقة دون سائر الرواة ووصفهم بالإتقان والتبريز[2] .

وكان الأصمعى أعرف الرواة بالتصحيح والمنحول من الشعر ، ولم يكن شاعراً حتى يتزيد ويختلق كما فعل غيره ، ولذلك نرى أن ما رواه عن النابغة الذبيانى أصح شعر يروى له ، وليس معنى ذلك أن هذا الشعر كله روى كما قاله النابغة دون تحريف أو زيادة أو نقصان ، فإن طول العهد بين قائله وراويه يدعو إلى شىء من هذا ، ولا سيما وهو يروى من الذاكرة . وهذ شأن الأدب القديم كله عند مختلف الأمم وقد أثبت كثير من علماء الغرب صحة الإلياذة وهى تزيد عن ستة عشر ألف بيت ، ولم يروا عجباً فى أنها ألقيت من الذاكرة وتداولتها الأجيال المتعاقبة بالرواية حتى دونت ، وقد ذكر مترجم الإلياذة طرفاً من الرواية فى الأدب الغربى قديمه وحديثه[3] تجعلنا نعتقد أن الرواة الثقات فى الشعر العربى قد نقلوا شعراً صحيحاً لا تزيد فيه ولا افتراء . وإذا كانت ثمة أبيات وضعها النحاة

---

(١) توفى الأزهرى سنة ٣٧٠ هـ .

(٢) راجع تاريخ آداب العرب للرافعى ج ١ ففيه فصل ممتع عن الرواة .

(٣) راجع مقدمة الإلياذة للبستانى ص ٣٥ وما بعدها .

أو رواة الأخبار والأنساب ، أو من استقلوا أشعار أسلافهم فقد كان للرواة بصر ودراية بالشعر الصحيح والمنحول تجعلهم يتحرجون من رواية هذا الشعر البين الزّيف ، على أن ما وضع قليل لا يدعو إلى الطعن فى الشعر الجاهلى كله . وقد تعرض غير واحد من جلة العلماء للبحث فى هذا الموضوع والرد على من شك فى الشعر الجاهلى جملة[1] ، وقد فطن العلماء قديماً إلى هذا الشعر الموضوع وذكروه ونبهوا عليه ، فالشك فيه اليوم شك لا يقوم على أساس صحيح ، وقد ذكرنا فى غير هذا الموضع بعض الأسباب التى دعت إلى هذا الشك ، ودحضناها بما فيه الكفاية .

---

(١) من الكتب القيمة فى هذا الموضوع كتاب النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى للأستاذ محمد الغمراوى ، وكتاب نقض كتاب فى الأدب الجاهلى للأستاذ السيد محمد الخضر حسين ، وكتاب الشهاب الراصد لمحمد لطفى جمعة .

النابغـــة الذبيانى

– ١ –

اسمه ولقبه :

هو زياد بن معاوية بن ضِباب بن جناب[١] بن يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف ابن سعد بن ذُبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان .

وأمه عاتكة بنت أنيس الأشجعى[٢] . ويكنى بأبى أمامة ، وبأبى ثُمامة[٣] ، وبأبى عَقْرب ، وهذه أسماء بناته[٤] ، لأننا نعلم من شعره أنه كان له بنت تسمى (عقربا) وأنها أُسِرت فى إحدى المعارك التى دارت بين ذبيان والغساسنة ، وأن القائد الغسانى (وائل بن الجُلاح) لما علم أنها ابنة النابغة أطلق سراحها وسراح كل الأسرى إكراماً للنابغة ، فمدحه الشاعر بقصيدة مشهورة سنعود إليها إن شاء الله . ونراه كذلك فى بعض القصائد يخاطب (أمامة) من مثل قوله : « كلينى لهم يا أميمة » .

وكان يلقب بالنابغة ، وقد ذهب النقاد فى تأويل هذا اللقب مذاهب شتى فبعضهم يقول[٥] : إنه سمى بالنابغة لقوله :

وحلَّت فى بنى القين بن جَسرٍ[٦] فقد نبَغَتْ لنا منهم شئون

---

(١) هذه رواية الأغانى ج ٩ ص ١٥٤ ، وفى شرح القصائد العشر للتبريزى ص ٢٩٠ وفى الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١٥ ط الحلبي : هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر .

(٢) وأشجع : بطن من غطفان وهم عرب المدينة . صبح الأعشى ص ٣٤٤

(٣) راجع التبريزى شرح القصائد العشر ص ٢٩٠

(٤) ويرى الأصمعى أن لقبه أبو ثمامة وأن ثمامة اسم رجل . راجع دير نبورج ص ٢٠٥

(٥) الشعر والشعراء ص ١١٥ ، والأغانى ج ٩ ص ١٥٤ ، وخزانة الأدب ج ٢ ص ١١٦

(٦) فى القاموس : جسر بفتح الجيم حى من قضاعة . ورويت فى دير نبورج ص ٢٠٦ بضم الجيم وكذلك فى شعراء النصرانية ص ٦٤٠

وفضلا عن أن هذا البيت ليس مما رواه الأصمعى فى ديوانه ، فليست له قيمة أدبية حتى يشيع فيشتهر الشاعر به ، وأغلب الظن أنه صنع لتعليل هذا اللقب[١] .

وقيل : لأنه قال الشعر بعد أن كبرت سنه ، ومات قبل أن يُهْتَر[٢] ، على أن هذا الرأى يدحضه شعره ، ففى كثير من القصائد ترى حرارة الشباب وثورته ، وعاطفته وميعته وقوته ، وقد رأينا أن النابغة مدح عمرو بن هند سنة ٥٥٤ م بل يقال إنه اتصل بالمنذر الثالث والد عمرو بن هند فى أخريات أيامه ، ونراه شهد نهاية النعمان بن المنذر أبى قابوس سنة ٦٠٢ م . فيكون قد ظل يترنم على قيثارة الشعر ما يقرب من خمسين عاماً ، وهى مدة ليست بالقصيرة ، ولذلك لا نرى هذا الرأى فى أنه قال الشعر وهو كبير ، وأنه لم يكن له فى شبابه شيء منه .

ويقال إن اللقب مأخوذ من قولهم : نبغت الحمامة إذا تغنت[٣] وترنمت ، وليس هذا بشيء كذلك ؛ فإن كل الشعراء فى الجاهلية كانوا ينشدون أشعارهم ويترنمون بها وعلاقة الشعر بالغناء مشهورة .

وحكى ابن ولاد أنه يقال : نبغ بالماء ونبغ بالشعر ، فكأنه أراد أن له مادة من الشعر لا تنقطع كمادة الماء النابغ[٤]. والمادة اللغوية تدل على التدفق والعلو والظهور وقد يعين على هذا الرأى أن النابغة لم يرث الشعر عن أب أو أم ، أو خال أو عم ، ولم يشتهر أحد من أسرته بقوله كما كان حال زهير بن أبى سلمى ، فمثله كمثل نبع الماء يعلو ويظهر ويتدفق من ذات نفسه ، دون أن يعرف أحد من أين يستمد ماءه[٥] .

ثم إن المادة تدل على الغزارة ، وكان النابغة كثير الشعر إذا قيس بشعراء عصره

---

(١) راجع دير نبورج ص ٢٠٦

(٢) ابن قتيبة ص ١٠٨ ، وخزانة الأدب ج٢ ص ١١٧ ط السلفية ، والعمدة لابن رشيق ، وشعراء النصرانية ص ٦٤٠ . وهتر : ذهب عقله من الكبر ، والمعنى : أن مدة قوله الشعر كانت قصيرة ، لأنه بدأ به وهو رجل كامل ، وتوفى قبل أن يخرف .

(٣) خزانة الأدب ص ١١٦ ج ٢

(٤) نفس المصدر والاشتقاق لابن دريد ١٧٥

(٥) دير نبورج ص ٢٠٨

فقد روى له الأصمعى أربعا وعشرين قصيدة ، وزاد عليها الطوسى عن ابن الأعرابى سبعاً ، عدا المقطعات الكثيرة التى رواها ابن الورد نقلا عن كتب الأدب ، والتى يرى أن معظمها صحيح النسبة كما مرّ بنا . ولذلك نرجح أنه سمى بالنابغة لكل هذه الأسباب مجتمعة .

ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن عدة شعراء آخرين لقبوا بهذا اللقب ، فلم يكن وقفاً على النابغة الذبيانى ، وأن التعليل الصحيح للقبهم هذا هو العلو والظهور والشهرة من غير سابق وراثة ، وهؤلاء الذين اشتهروا بلقب النابغة ذكرهم الآمدى فى المؤتلف والمختلف وهم[1] : النابغة الذبيانى هذا الذى نترجم له ، والنابغة الجعدى الصحابى ، ونابغة بنى الديان الحارثى ، والنابغة الشيبانى ، والنابغة الغنوىّ والنابغة العَدْوانىّ ، والنابغة الذبيانى أيضاً وهو نابغة بنى قتال بن يربوع ، والنابغة التغلَبى[2] واسمه الحارث

— ٢ —

سنه وشبابه :

غفل التاريخ عن ذكر ميلاد هذا الشاعر العظيم ، ولم يذكره إلا وهو شاعر ملء الأفواه والأسماع ، ولكننا إذا جهلنا ميلاده ، فإننا نستطيع أن نحدد وقت وفاته ، فقد ذكر صاحب الأغانى[3] أن النابغة حينما سمع بمقتل النعمان بن المنذر على يد كسرى أنو شروان ببلاد فارس قال : « طلبه من الدهر طالب الملوك » ، وتمثل بأبيات ، والأبيات كما رواها ديرنبورج[4] هى :

من يطلب الدهر تُدركه مخالبُه　　　والدهر بالوتر ناج غير مطلوب

ما من أناس ذوى مجد ومَكرُمَة　　　إلا يشُد عليهم شِدَّة الذيب

---

(١) راجع خزانة الأدب ط السلفية ص ١١٩ ج ٢

(٢) النسبة إلى تغلب بكسر اللام تغلبى بفتح اللام كما فى القاموس .

(٣) ج ٢ ص ٣٩

(٤) ص ٢٤٤ وشعراء النصرانية ص ٨٢٠ ، والعقد الثمين ص ١٦٤

حتى يُبيدَ على عَمْدٍ سَرَاتَهمُ ... بالنافذات من النَّبْل المصاييب

إنى وجدتُ سهام الموت معرضة ... بكل حتفٍ من الآجال مكتوب

والأبيات ليست مما رواه الأصمعى فى ديوانه ، فإما أن تكون منحولة ، وإما أن يكون النابغة قد كبرت سنه ، وعجز عن رثاء النعمان إلا بهذه الأبيات التى لاحرارة فيها ، ولا تنبئ عن وفاء الشاعر لهذا الذى طالما أغدق عليه النعم ، وأسبغ عليه النابغة مدائحه . لقد رثى النابغة النعمان بن الحارث الغسانى سنة ٦٠٠ م ، وذكر فى رثائه أنه قد جلله الشيب وتقدم به العمر :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل ... وكيف تصابى المرء والشيب شامل[١]

فهو قد عاش بعد سنة ٦٠٠ م ، وكان قتل النعمان بن المنذر فى سنة ٦٠٢ [٢]، فلا يبعد أن يكون النابغة قد عاش بعده قليلا ثم مات ، وعلى كل فهو لم يشهد نهاية حرب داحس والغبراء سنة ٦٠٨ م ، ولم يشهد بعثة الرسول عليه السلام سنة ٦١٠ م [٣] وبذلك يكون التاريخ الذى ذكره صاحب شعراء النصرانية [٤] لوفاة النابغة وهو سنة ٦٠٤ م قريباً من الصواب .

ويظهر أنه قد مات وهو كبير السن قد جلله الشيب — وليس الشيب بمانع من التصابى إذا كان المرء قوياً مملوءاً بالحياة والنشاط ، ولا سيما فى تلك البيئة التى عاش فيها النابغة — وما ذكر الشيب إلا لأن قواه قد ضعفت ، فيكون النابغة قد عمر طويلا وأدرك المنذر الثالث ابن ماء السماء ٥٠٥ — ٥٤٤ ومدح خلفاءه من بعده .

وكما غفل التاريخ عن ميلاد هذا الشاعر صمت كذلك عن صباه وشبابه ، وإن كان

(١) استجهلتك : دعتك إلى الجهل

(٢) راجع Huart. his ص ٧٢

(٣) نفس المصدر ص ٨٩

(٤) ص ٦٤٠

قد روى أنه زاحم حاتما الطائى ورجلا من النبيت[1] فى خطبة ماوية ، وانتصر حاتم[2] عليهما ، وأنه قال يزكى نفسه لديها :

هَلاَّ سألتِ بنى ذبيانَ ما حسبى إذا الدخان تَغَشَّى الأشمطَ البَرَما[3]

وهبت الريح من تِلقاء ذى أُرُلٍ تزجى مع الليل من صُرَّادها صِرَما[4]

إنى أتمم أيسارى وأمنحهم مثنى الأيادى وأكسوا الجفنة الأُدُما[5]

وقد رويت هذه الأبيات فى ديوانه ضمن قصيدة طويلة مما يدل على أنه لم يقلها فى هذه المناسبة ، فضلا عن أن الحادثة رويت[6] لزيد الخيل وحاتم وأوس بن حارثة الطائيين .

ويرى (ديرنبورج)[7] أن النابغة إذا كان قد اشترك فى هذه المنافسة فلا بد أنه كان ذا غنى ، والغنى لم يأته إلا بعد أن تكسب بشعره لدى الملوك ، وبذلك يكون قد جاوز حد الشباب .

وإذا كان التاريخ قد غفل عن ذكر شىء من صباه وشبابه ، فهل غفل شعره عن

---

(١) النبيت : أبو حى من اليمن اسمه عمرو بن مالك . القاموس .

(٢) ذكر هذه الحادثة de Perceval ج ٢ ص 613 نقلا عن الأغانى وذكرها (ديرنبورج) صفحة ٢١١ ، وصاحب شعراء النصرانية صفحة ١٠٩ ، وصاحب الروائع .

(٣) البرم : الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر عن بخل أو فاقة ، وخص الأشمط لأنه أجزع للبرد من الشاب ، ولو جعله شابا لدل على شدة البرد وكان أجود فى المعنى ، وإنما قال النابغة ما رأى ، والمعنى : أنه ليس ممن يستخس نفسه بالأخذ فى الميسر فإنما دأبه أن يحضر ذلك ليطعم . قال متمم بن نويرة يرثى أخاه مالكاً .

ولا برما تهدى النساء لعرسه إذا القشع من برد الشتاء تقعقعا

(٤) الصراد : شدة البرد أو السحاب لا ماء فيه ، وصرم : ج صرمه وهى قطع السحاب ، وأرل جبل ببلاد غطفان .

(٥) الأيسار : جمع يسر وهم المتقامرون ، والياسر : الضارب بالقداح . يقول : إن نقص المتقامرون أخذت ما بقى منهم فتممتهم ، ومثنى الأيادى : أى أعطيهم نصيبين .

(٦) راجع خزانة الأدب ط السلفية ج ٣ ص ١٦٠ ، وذيل الأمالى ص ١٠٤

(٧) ص ٢١١

ذكر مغامرات الشباب ؟ وهل حقاً ما يقال من أنه قال الشعر وهو كبير بعدما احتنك وجرب حوادث الدهر ، وخمدت فيه عواطف الشباب ؟

إن فى شعره ما يدل على أنه كان يتغزل ، ويتودد إلى النساء ، ولن يكون ذلك إلا وهو فى ميعة الشباب ؛ لأنه شغل وهو رجل بقضايا قومه وأمورهم ، ثم برحلته إلى الملوك ، اسمعه يقول وقد مر على ديار الحبيبة فوجدها خلاء (١)

عهدت بها سُعدى وفى العيش غِرَّةٌ ... فأصبح باقى ودها يتقضّبُ (٢)

وقد غنيت سُعْدى تثيب بودها ... ليـالى لا يُسطاع منها التجنب

وأبدت سِواراً عن وشوم كأنها ... بقيـة ألواح عليهن مُذهبُ

ديارُهمُ إذ هم لأهلك جـيرةٌ ... وإذ هى لا يسطاع منهـا التجنب

ذكرت سعاداً فاعترتنى صبابةٌ ... وتحتى مثلُ الفحل وجناء ذِعْلِبُ (١)

ويقول : أتاركة تدللهـا قطام ... وضنا بالتحية والكلام

فإن كان الدلالَ فلا تـلَجّى ... وإن كان الوَداعَ فبالسلام

ولكن هذا الضرب من الشعر قليل فى ديوانه مما ينم عن روح جادة لا تشغل بما يشغل به شعراء الغزل واللهو ، والعبث والمجون ، أمثال امرىء القيس ، وعبد بنى الحسحاس ومن على شاكلتهم ، ولعل للحروب العديدة التى خاضتها قبيلته أثر فى انصرافه عما يعنى به الشباب من لهو ومجانة ، وقد رأى أن ذبيان فى حاجة ماسة إلى شاعر فحل يدافع عنها ، ويحمسها حين يحتدم الوغى ، ويذب عنها بلسانه هؤلاء الذين يطعمون فيها أو يقصدونها بسوء من قول أو فعل ، ولا أدل على هذا من انقطاعه عن ملوك الحيرة بعد أن توجه إلى عمرو بن هند حين توليه العرش ، ومدحه بقصيدة طويلة ، ثم شغل عن المديح ، وعن الرغبات الخاصة ، وانصرف بكل قواه يؤازر قبيلته فى المحن التى أصيبت بها كما سنرى فى الفقرة التالية :

---

(١) هذه القطعة وردت فى مخطوطة (ساوة) التى نشرها (دير نبورج) ص ٢٨

(٢) ينقطع ، ويأتى غير منتظم (٣) ذعلب : ناقة سريعة المشى .

— ٣ —

النابغة والشئون العامة :

يقول بعض النقاد القدماء[١] إن النابغة الذبيانى كان من أشراف قومه الذين غضّ الشعر من منزلتهم ، ولا أستطيع أن أجزم برأى فى منزلة النابغة بين قومه ، وهل كان حقاً شريفاً من أشرافهم ، وأن هذا التوسط فى النسب هو الذى دفعه لأن يتشفع لهم لدى الغساسنة ، ويفك أسراهم ، ويصلح بينهم وبين حلفائهم ، ويشير عليهم بالرأى الحازم ؟ أو أن هذه كانت مهمة الشاعر أولا ، ومهمة أى رجل من القبيلة لقى حظوة عند الملوك ، ورأى أن شفاعته مستجابة ، وأن العصبية القبلية تناديه بأن ينهض لنجدة المكروب ، وإغاثة الأسرى .

وما بال يزيد بن سنان بن أبى حارثة يطلق ابنة النابغة[٢] ، ويطعن فى نسبه وأنه من قضاعة ، وليس من ذبيان ، ولو كان النابغة حقاً من أشراف ذبيان ومن أوسطهم نسباً كما يقال ما خفى هذا النسب على أحد ، وما استطاع يزيد ولا تلك الجموع التى تبعته[٣] وتحالف وإياهم على النار ، أن يطعنوا النابغة فى نسبه ، ولا أن يفخر عليه يزيد بقوله معرضاً به :

إنى امرؤٌ من صلب قيس ماجدٌ ... لا مُدّعٍ نسباً ولا مستنكر

وأنا امرؤٌ حرٌ لبيتى أمكُنٌ ... والنبع بين بلادنا والعرعرُ

فيزيد ينفى أن النابغة من قيس ، ويرى أنه من قضاعة ، وقضاعة تنسب إلى اليمن ، ثم من عذرة ثم من ضنّة[٤] ، ويضطر النابغة إلى أن يجيبه بقوله :

---

(١) راجع ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ص ١١٥ ، وخزانة ج ٢ ص ١١٧

(٢) ديوان النابغة ، العقد الثمين ٢١١ ، وشعراء النصرانية ص ٧٠٩ ، ودير نبورج ص ٢١٠

(٣) هم خصيلة بن مرة ، وبنو نشبة بن غيظ بن مرة ، وقد تحالفوا مع يزيد بن سنان على النار ضد بنى يربوع بن غيظ بن مرة رهط النابغة .

(٤) ضنة من عذرة ، وعذرة من قضاعة ، وقضاعة كانت تدعى أنها قيسية ثم تحولت إلى اليمن

جَمِّع مِحَاشَكَ يا يزيدُ فإنني ... أعددت يربوعاً لكم وتميما (١)
ولحقتُ بالنسب الذى عيرتنى ... وتركتَ أصلك يا يزيد ذميما (٢)
عيرتنى نسب الكرام وإنما ... فخر المفاخر أن يُعَدَّ كريما (٣)
حدبت علىّ بطون ضِنَّة كلها ... إن ظالماً فيهم وإن مظلوما (٤)

وليس معنى هذا أن النابغة كان دَعِيّاً فى بنى ذبيان ، وإنما نرجح أن هذه منازعات داخلية بين بطون قبيلة واحدة ، وأنه اضطر إلى أن يستنجد ببنى ضِنَّة من قضاعة فنصروه على يزيد ومحاشه ، وأن يزيد رماه بأنه من قضاعة ؛ لأنه لجأ إلى غير قومه يلتصر بهم ، وكانت العداوة بين قيس واليمن على أشدها منذ العصر الجاهلى ، وقد ظلت متأججة الأوار حتى نهاية الدولة العربية ، وحملوها معهم فى كل بلد نزحوا إليه بعد الفتح الإسلامى . ولقد كانت يد بنى ضنة من قضاعة اليمنية لدى النابغة ورهطه عظيمة فلم يستطع لها جحوداً ، بل وَدَّ أن يلتحق بهم ، ورأى فى هذا مفخرة له ، لأنه إنما يلتحق بنسب كريم .

وسواء كان النابغة من أشراف ذبيان ، أم ليس من أشرافهم ، فإنه أدى رسالته خير الأداء ، وعلى أحسن ما ينتظر من شاعر قبيلة فى محنة . فنراه قبل أن يفسد ما بين بنى عامر وبنى غطفان (عبس وذبيان) ، يحاول أن يتلافى أسباب الخلف بين هذين الحيين العظيمين ، وكانت غطفان وهوازن قد اصطلحوا على غيث أصاب بعض بلادهم أن يأكلوه جميعاً ، فلما حان فناؤه أغارت خيل من هوازن على غطفان ، فأصابوا

(١) المحاش : الذين تحالفوا على النار حتى امحشوا أى احترقوا ، و (تميم) لم يرد تميم بن مرة ؛ وإنما أراد تميم بن ضبة بن عذرة بن سعد بن ذبيان ، وأما بنو يربوع فهم رهطه الأدنون .
(٢) يقول : أنا لاحق بالنسب الذى عيرتنى ولست مثلك تنتفى عن أصلك .
(٣) عيرتنى بنسب كريم وهذا ظفر لى وغنم .
(٤) إن هذه البطون تعطف على فى كل حال وتعيننى .

طائفة من أموالهم ، وكان الكفيل على غطفان عامر بن مالك ، وزُرْعة بن عمرو ، فوجه إليهما هذا العتاب ، وفيه تظهر شخصية النابغة ورسالته القبلية : (١)

أبلغْ عامراً عنى رسولا ... وزُرعة إن نأيتُ وإن دنَوْتُ

أعاتب سَيِّدَىْ قيس جميعاً ... وأخبر صاحبى بما اشتكيتُ

فما حاولتما بقياد خيل ... يصان الوَرْدُ فيها والكميتُ

إلى ذبيان حتى صَبّحتهم ... ودونهم الربائع والخُبَيْتُ (٢)

أثُمَّ تَعَذَّران إلىَّ منها ... فإنى قد سمعتُ وقد رأيتُ

أحار بنَ المغيرة إن قيساً ... أحلوا بالمحارم فادعيتُ

فإن غلبتْ شقاوتُهم عليهم ... فإنى فى صلاحهم سعيتُ

ألا ياليتنى والمرء ميتٌ ... وما يغنى من الحدَثان ليتُ

غرمت غرامة فى صلح قيس ... ولم يتفاسدوا فيما بنيتُ

فهو يحاول أن يصالح بين القبيلتين ، وتتجلى روحه المحبة للسلام والوئام ، ولكن حين قتلت بنو عامر زهيرَ بن جذيمة سيد بنى عبس ، بل سيد غطفان وهوازن ، وأمعن خالد بن جعفر الكلابى العامرى فى طغيانه ، ولج فى عدوانه ، كان النابغة من أشد الناس صرامة وقسوة على زُرعة بن عمرو هذا الذى خاطبه ذلك الخطاب اللين ، وعاتبه هذا العتاب الرقيق . وذلك أن النابغة كان حريصاً على محالفة بنى أسد لقومه ، وقد قدم لهم يداً بيضاء من قبل حين اشتركوا مع المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة فى حرب الغساسنة فلما هُزم المنذر يوم حليمة وقتل ، وأسر عدد كبير من جيشه كان من بين هؤلاء الأسرى رجال من بنى أسد ، فتقدم النابغة إلى الحارث بن أبى شَمِر الغسانى يتشفع فى أسارى بنى أسد فأجاب شفاعته ، وهذا يدلنا على أن النابغة كان بعيد النظر فى اصطناعه المعروف

(١) وردت هذه القطعة فى مخطوطة (ساوة) ص ٣٧ ، وورد بيتان منها وهما الثالث والرابع فى ملحق ابن الورد .

(٢) الربائع : أرض ، والخبيت : كذلك أرض وفيها مات ضابىء بن الحارث البرجمى وكان حبسه عثمان بن عفان .

لأن بنى أسد حلفاء أقوياء يعتمد عليهم فى المحن والشدائد ، ويدلنا على أن النابغة كان منذ يوم حليمة (٥٥٤ م) ذا مكانة وجاه لدى الغساسنة ، وإن لم يسجل ديوانه هذه الحادثة إلا فى أبيات محدودة .

قابله زُرْعة بن عمرو بن خويلد بسوق عكاظ ، وأشار على النابغة بأن يترك قومه حلف بنى أسد ، فأبى النابغة الغدر ، وبلغه بعد ذلك أن زُرْعة يتوعده ، فقال النابغة يهجوه ، ويخوفه من جموع كثيرة سيحشدها له ولقومه ، ولن تكون لهم طاقة بها ، جموع من بنى ذبيان ، وبنى عبس ، وبنى أسد ، وبنى كلب ، جموع مستعدة للقتال لها دراية ودربة بخوض المعارك . ولم نعد نرى النابغة الداعية إلى السلم ، ولكن النابغة الذى يرى من واجبه أن يدفع عن قبيلته الأذى ، ولعل فى ذكره هذه الجموع الكثيرة قبيلة قبيلة ما يثنى بنى عامر عن العدوان ، ويلجئهم إلى السلام ، وذلك حيث يقول :

نبئتُ زُرْعةَ والسفاهةُ كاسمها ... يهدى إلى غرائب الأشعار[1]

فحلفت يا زُرْعَ بنَ عمرٍو إننى ... مما يشُقُّ على العدو ضرارى[2]

أرأيت يومَ عكاظ حين لقيتنى ... تحت العَجاج فما شققتَ غُبارى[3]

إنا اقتسمنا خُطتينا بيننا ... فحملتُ بَرّة واحتملتَ فَجارِ[4]

فلتأتِينْك قصائدٌ وليدفعَنْ ... جيشٌ إليك قوادمَ الأكوارِ[5]

(١) السفاهة : الجهل وهى نقيض الحلم ، غرائب الأشعار : لأنه ليس من أهل الشعر . والمعنى : أن اسم السفاهة قبيح وفعلها قبيح كذلك .

(٢) شق عليه الأمر . صعب عليه وأوقعه فى المشقة . وضرار : مصدر ضار . والمعنى : أقسم أن عدوى يصعب عليه أن ينالنى بأذى .

(٣) العجاج : الغبار . وشق غباره : كناية عن دنوه منه مأخوذ من عدو الخيل .

(٤) برة : اسم للبر وهو معرفة وصفة من البر ، وفجار : اسم من الفجور وصفة من الفجور أى الخصلة البرة ، والخصلة الفاجرة ، وذلك لأن زرعة دعاه إلى الغدر بحلفائه بنى أسد فأبى .

(٥) القوادم : جمع قادمة وهى مقدمة الرحل ، والأكوار : جمع كور وهو رحل الناقة . يهدده بالهجاء وبالغزو ، وعبر بالدفع هنا توسعاً فى المعنى ، لأنهم كانوا يركبون الإبل أحياناً ويجنبون الخيل لحين الحاجة إليها .

رهطُ ابن كوزٍ محقبي أدراعهم   فيهم ، ورهطُ ربيعة بن حذار[(١)]

ولرهط حرّابٍ وقدٍ سَـورَة   فى المجد ليس غرابُها بمُطار[(٢)]

وبنو قُعَيْنٍ لا محالةَ إنَّهم   آتوك غير مُقلّمى الأظفار[(٣)]

سَهِكِين من صدأ الحديد كأنهم   تحت السَّنوّر جِنَّة البقَّار[(٤)]

حولى بنى ديدان لا يعصوننى   وبنو بَغيض كلهم أنصارى[(٥)]

ولما استحر الخلف بين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء ، اشتد حرص النابغة على حلف بنى أسد لقومه ، وقد كثر أعداؤهم ، فلم يعد بنو عامر وحدهم ، ولكن صار بنو عبس كذلك حرباً عليهم ، وطالما تمنى العامريون أن يفرقوا بين ذبيان وحلفائها حتى يستطيعوا غزوهم ، ولا سيما بعد أن تركت عبس ديار غطفان ، وتركوا بنى عمومتهم (ذبيان) ، وقد كانوا جميعاً يواجهون بنى عامر ، بيد أن النابغة لم يغفل عن مكائدهم ، وأخذ يشيد ببطولة بنى أسد وبلائهم فى الحروب ، ويسفه بنى عامر لهذه المحاولة الدنيئة ، وقد ذكروا أنهم مستعدون لمحالفة بنى ذبيان ضد بنى عبس إذا تخلوا عن حلف بنى أسد .

قالت بنو عامر خالوا بنى أسد   يا بؤس للجهل ضراراً لأقوام[(٦)]

---

(١) (كوز) من بنى مالك بن ثعلبة ، وربيعة بن حذار من بنى سعد . ومحقبي : جعلوها كالحقائب لوقت الحاجة إليها .

(٢) حراب وقد : من بنى أسد ، وسورة المجد ، أثره وارتفاعه . وليس غرابها بمطار : كناية عن خصب المكان ، لأن الغراب لا يتحول عنه وفيه ما يشبعه ، والمقصود أن سورة المجد دائمة .

(٣) بنو قعين : حى من بنى أسد ، وغير مقلمى الأظفار : كناية عن كمال عدتهم وعتادهم .

(٤) السهكة : رائحة كريهة من لبس الحديد ومنها رجل سهك ، والسنور : السلاح التام . والبقار اسم موضع كثير الجن ، والجنة : واحدهم جنى . يقول : تغيرت ريحهم من طول لبس الدروع وشبههم بالجن لمضيهم فيما شاءوا وقدرتهم على الحرب والتغلب على أعدائهم .

(٥) بنو ديدان : من أسد ، وبنو بغيض : من عبس ، وهذا قبل أن يختلف الحيان .

(٦) خالوا : يقال خاليته خلاء ومخالاة إذا تركته ، (يا بؤس للجهل) اللام زائدة ؛ وهذه اللفظة تأتى بها العرب على سبيل التعنيف .

يأبى البـــلاء فلا نبغى بهم بدلا ولا نريد خِلاءً بعـــد إحكام[١]

ويرفض هذا العرض ، وإذا كانت بنو عامر تفكر فى صلح ذبيان فلتصالح كذلك بنى أسد :

فصالحونا جميعاً إن بدا لكم ولا تقولوا لنـــا أمثالها عامِ[٢]

إنى لأخشى عليكم أن يكون لكم من أجل بغضائهم يوم كأيام[٣]

وكان النابغة فى حرصه على بنى أسد سياسياً ماهراً ، وهو لا يفتأ يشيد بأعمالهم المجيدة ويهنئ قومه بأن ديارهم خلت لهم بعد جلاء بنى عبس عنها ، ولم يبق بها إلا بنو أسد يحمونها ، وهذا اعتراف منه يشجع بنى أسد على نصرته :

ليهنئ بنى ذبيان أن بلادهم خلت لهم من كل مولى وتابع[٤]

سوى أسد يحمونها كل شارق بألفى كمى ذى سلاح ودارع[٥]

ويعزو لبنى أسد إجلاءَ بنى عبس إلى بلاد باهلة

فدع عنك قوماً لا عتاب عليهم هم ألحقوا عَبساً بأرض القعاقع[٦]

وكيف يترك حلف بنى أسد ، وبعض بنى ذبيان يتقاعسون عن نصرة قومهم فى حربهم الشعواء .

فما أنا فى سهْم ولا نصْر مالك ومولاهم عبدِ بن سعد بطامع[٧]

وقد استطاع بنو ذبيان بفضل هذا الحلف أن يصمدوا فى هذه الحرب الطويلة ، وأن يظلوا فى ديارهم بينما أخذت بنو عبس تطوف أنحاء الجزيرة العربية من الشمال

(١) البلاء : الاختبار والتجربة ، والخلاء المتاركة ، والمراد هنا نقض الحلف بعد إحكامه .
(٢) عام : مرخم عامر . (٣) أى يوم فى طوله بمثابة أيام ، ويوم الشر طويل .
(٤) المولى : ابن العم ويقصد به بنى عبس ، وتابع : من يتبعهم .
(٥) كل شارق : كل صباح . والكمى : الفارس المدجج بالسلاح .
(٦) أرض القعاقع من بلاد باهلة . راجع ص ٧٦ من هذا الكتاب .
(٧) سهم ومالك : حيان من غطفان ، وعبد بن سعد من ذبيان ، ومولاهم : حليفهم أو ابن عمهم

إلى الجنوب ، تجاور هذه القبيلة حيناً ثم تجد منها جفوة فتتركها إلى غيرها وهكذا ، ومع أن العداء قد اشتد بين عبس وذبيان وطالت مدته ، وشهد النابغة الحرب من أولها فإنه لم يتعرض لهجاء عبس أبداً ، وكيف يهجوهم وهم قومه ، وطالما شاركوا بنى ذبيان البأساء والضراء ، ولهم جميعاً أعداء يكرهونهم سويا ؟ ولقد حزّ فى نفس النابغة حقاً أن رأى بنى عبس يهجرون ديارهم ويلجئون إلى أعدائهم العامريين ، وهم الذين قتلوا زهير بن جذيمة سيد غطفان كلها ، وهنا نراه يتحسر على فراق بنى عبس ، ويحاول أن يجعل قومه يشاركونه الحسرة والألم ، بوصفه جموع عبس ، وشجاعتهم ، وأنهم بانضمامهم لبنى عامر قد فقدت ذبيان أخوتهم .

أبلغ بنى ذبيان أنْ لا أخا لهم ... بعبسٍ إذا حلّوا الدِّماخَ فأظلما(١)

بجمع كلون الأعبلِ الجونِ لونُه ... ترى فى نواحيه زهيراً وحذْيما(٢)

هم يردون الموت عند حياضه ... إذا كان وِرد الموت لا بدأ كرما

ويعير بنى عبس هذا الهوان ، واللجوء إلى أعدائهم الألداء :

جزى اللهُ عبساً عَبْسَ آل بغيّضٍ ... جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

أأصبحتم والله يفعل ذاكمُ ... يَعُزُّكم مولى مواليكم شَكَلْ(٣)

ولم يكن هذا شعور النابغة وحده نحو بنى عبس ، بل كان شعور قبيلته كلها وعلى رأسها آل بدر ، ولقد همّ عيينة(٤) أن ينقض حلف بنى أسد لأنهم قتلوا رجلين من بنى عبس انتقاماً لمقتل نضلة الأسدى ، ولكن النابغة كان حكيما لا ينساق وراء عاطفته فهو وإن كان يحب بنى عبس ويود أن يتم الصلح بينهم وبين قومه ، إلا أنه لا يفرط

---

(١) الدماخ : جبال عظام ضخام واحدها دمخ وهى منازل بنى عامر . وأظلم : موضع .

(٢) الأعبل : الجبل الأبيض الحجارة ، والجون : من الأضاد ، وهو هنا الأبيض ، وشبه جموعهم بالجبل الأبيض لأنها تبرق من كثرة السلاح ، وهذا التعظيم تلهيف لبنى ذبيان عليهم .

(٣) بنو شكل من بنى عامر وكانوا قد نزلوا بهم (راجع ص ٧٦) . ويعزكم : أى يغلبونكم فى المعازة ويصيرون أعز منكم والمعنى : أن موالى بنى شكل أعز لديهم منكم وهذه منزلة لا تليق بكم .

(٤) الراجح أنه عيينة بن حصن الفزارى لأن حصناً قد مات ورثاه النابغة .

فى بنى أسد بأى ثمن كان ، ولا يستطيع أن يجحد فضلهم ، ولذلك حذر عيينه مما هم به ، وأخذ يمدح بنى أسد بقصيدة رائعة تعد من عيون الشعر العربى وفيها يقول مخاطباً عيينة :

أَلِكْنى يا عُيينُ إليكَ قولاً	سأهديه إليك : إليك عَنِّى (١)
قوافِىَ كالسِّلامِ إذا استمرَّت	فليسَ يرُدُّ مذهبها التَّظَنِّى (٢)
بهنَّ أدينُ من يَبْغى أذاتى	مداينةَ المدائنِ فليَدِنِّى (٣)
أتخذُلُ ناصرى وتُعِزُّ عَبْساً	أيَربوعَ بنَ غيْظٍ للمِعَنِّ (٤)
كأنكَ مِن جِمالِ بنى أقيشٍ	يُقَعْقَعُ خلفَ رِجليه بشَنِّ (٥)
تكونُ نعامَةً طوراً وطوراً	هُوِىَّ الريح تنسِجُ كُلَّ فَنِّ (٦)
تَمَنَّ بعادَهُمْ واستَبْقِ منهم	فإنك سوف تترك والتمنى (٧)

(١) ألك بين القوم ألكا من باب ضرب وألوكا أيضاً ترسل واسم الرسالة مألك بضم اللام ومألكة ولامها تضم وتفتح . والمعنى : إنى أرسل يا عيين إليك قولا سأهديه إليك . إليك عنى : أى تنح وخذ حذرك .

(٢) السلام : جمع سلمة على وزن كلمة وهى الحجر ، والتظنى : إعمال الظن وأصله التظنن والمعنى : أن هذه القوافى كالحجارة فى قوتها ، وإذا أطلقت فلن يردها عن وجهها التردد والظن .

(٣) أدين : أجزى . فليدنى من شاء فلن يستطيع ذلك ، أو أنا له كفء وند .

(٤) يربوع بن غيظ : رهط النابغة : والمعن من يدخل فيما لا يعنيه ويتعرض لكل شىء ، ويروى ويربوع : والمعنى يا يربوع بن غيظ لهذا العابث — فالهمزة للنداء ويربوع منصوبة وهذا جائز لأنها وصفت بابن — ولكن من يدخل فيما لا يعنيه ، حتى لا تؤذى من جراء عبثه وفضوله ، وفى هذا توبيخ وتقريع شديد لعيينة ، وحرص من النابغة على مصلحة رهطه .

(٥) أقيش : أبو حى من عكل ، وجمال بنى أقيش غير عتاق وتنفر من كل شىء . والشن : القربة الخلق الصغيرة ، وقعقع الشىء : صوت ، وفلان يقعقع له بالشنان : يروعه مالا حقيقة له . والمعنى يؤنب عيينة على فزعه وتفكيره فى نقض حلف بنى أسد لأن عبساً غاضبة لمقتل رجلين منها فى مقابل نضلة الأسدى وهذا تمام ثقة من النابغة بأسد .

(٦) تكون مثل النعامة فى نفورها وفزعها وجريها ، وأحياناً تهب كالريح التى تنسج على الأرض طرائق مختلفة . ويريد أنه يأتى بأشياء غير معقولة ويهب فجأة كالريح .

(٧) بعادهم : هلاكهم ، واستبق نفسك منهم وسوف تجد نفسك وحيداً ولن يفيدك التمنى شيئاً .

لدى جَرْعاءَ ليْس بها أنيسٌ   وليس بها الدليلُ بمطمئن (١)
إذا حاولتَ فى أسدٍ فجوراً   فإنى لستُ منك ولستَ منى
فهم دِرْعى التى استلأمت فيها   إلى يوم النِّسار وهم مِجَنى (٢)
وهم وردوا الجِفار على تميم   وهم أصحاب يوم عكاظ . إنى (٣)
شهدت لهم مواطن صادقات   أتيتهم بوُدِّ الصدرِ منى
وهم ساروا لحُجر فى خميس   وكانوا يوم ذلك عند ظنى (٤)
وهم زحفوا لغسانٍ بزحف   رحيبِ السَّربِ أرعنَ مُرجَحِنّ (٥)
بكل مُجرَّب كالليث يسمو   على أوصال ذيَّال رِفَنّ (٦)
وضمرٍ كالقداح مُسوَّمات   عليها معشرٌ أشباه جِنّ (٧)
غداةَ تعاورَته(٨) ثمَّ بيضٌ   دُفِعنَ إليه فى الرَّهَج المُكِنّ
ولو أنى أطعتُكَ فى أمور   قَرَعتُ ندامةً من ذاك سنى

فأنت ترى النابغة فى هذه القصيدة يقف من عيينة ، وأغلب الظن أنه عيينة بن حصن

---

(١) الجرعاء : الفلاة : والمطمئن الآمن .

(٢) النسار : ماء لبنى عامر كانت فيه موقعة . والمجن الترس . واستلأم : لبس اللأمة وهى المدرع كان بنو أسد له درعاً ومجناً فى يوم النسار هذا .

(٣) الجفار : ماء لبنى تميم . ويوم عكاظ كان بينهم وبين قريش .

(٤) حجر آكل المرار والد امرئ القيس الشاعر ، وقد قتله بنو أسد وفى ذلك يقول امرؤ القيس :

أتانى حديث فكذبته   بأمر تزعزع منه القلل
بنو أسد قتلوا ربهم   ألا كل شىء سواه جلل

والخميس : الجيش .

(٥) السرب بالفتح وبالكسر : الطريق . ومسيل الماء ، شبههم بالسيل ، والأرعن : الجبل ذو الأنوف البارزة ، فيشبه الجيش ذا الفضول بالجبل الأرعن . والمرجحن : الثقيل .

(٦) الأوصال : المفاصل أو مجتمع العظام . جمع وصل . ذيال : ذو الذيل . والرفن : طويل الذيل

(٧) شبه الخيل الضامرة بالسهام . مسومات : معلمات لها دراية بالحرب .

(٨) تعاورته : تداولته وتعاقبته . والبيض : السيوف . والرهج : الغبار الثائر : والمكن : الساتر

ابن حذيفة الفزارى ، وكانت له رئاسة ذبيان بعد أبيه ، واشتهر بالحمق ، ووصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأحمق المطاع — ، وقفاً فيه تأنيب وتقريع ، ويصفه بالحمق والفزع لأوهى الأسباب ، ويشبهه بالنعامة لجبنها ، والريح الهوجاء فى هبوبها لا تدرى ماذا تفعل ؛ ثم يذكره بمواقف بنى أسد التى شهدها النابغة طواعية ومحبة منه لهم ، فقد أعانوه فى يوم النسار ، واقتحموا الجفار على بنى تميم ، وانتصروا على قريش وهم الذين قتلوا حجراً ملك كندة ، وهم غزوا غسان ، وما أدراك ما غسان ؟ ، وأخيراً يقول له : لو أطعتك فيما ذهبت إليه لندمت ندامة عظيمة . وهذا كلام الشيخ الذى حنكته التجربة للشاب اليافع الذى ورث الرئاسة عن أبيه ، ولا يقدر العواقب .

وعلى الرغم من كثرة المواقع بين عبس وذبيان فلم يتعرض النابغة فى شعره لذكر هذه الملاحم ، ولم يهنئ قومه بانتصارهم حين ينتصرون ، أو يشمت بعبس حين ينهزمون ، أترى النابغة كان قعيد بيته يترقب أنباء القتال عن بعد من غير أن يشترك فى المعمعة ويخوض غمار الوغى ؟ إن فى شعره ما يدل على أنه كان فى الرعيل الأول من المحاربين :

لقد لحقت بأولى الخيل تحملنى ... كَبْداءُ لا شَنَجٌ فيها ولا طَنَبُ[1]

ماريةٌ مثل مَرْيِ الدَّلوِ مِركَضَةٌ ... إذا الحوالبُ فى الأعطان تنحلب[2]

ولقد أصيب يوم القَيْن هو وسنان وبدر بن عقبة بن مالك بن حذيفة فقال يحض خارجة بن سنان ومن معه على النجاة من الأسر :

---

(١) الخيل : الفرسان . كبداء : أصلها القوس ملء اليد وشبه بها الفرس . والشنج : تقبض فى الجلد والطنب : طول فى الرجلين فى استرخاء ، وطول فى الظهر ، وهو عيب .

(٢) المارية : القطاة الملساء . شبه الفرس بالقطاة ثم شبهها بالدلو فى انصبابها . وأصل المرى الإدرار من أمرت الناقة در لبنها . وناقة مرى : غزيرة اللبن . ومركضة : تركض الأرض بقوائمها . وقد وردت هذه الأبيات فى قصيدة له بمخطوطة (ساوة) ص ٢٦

إنا أناسٌ طالبون تِراتنا فالحق بأرضك خارجَ بنَ سنان

لا أعرفن شيخاً يُجَر برجله بين الكثيب وأبرقِ الحنّانِ (١)

أجل ! لم يكن النابغة من الفرسان المعلمين مثل عنترة العبسى ، وعامر بن الطفيل وأضرابهما ، ولذلك لم يكن له فى الحروب مواقف يتغنى فيها بشجاعته وفروسيته ؛ ثم إن الحرب الطويلة بين عبس وذبيان كانت حرباً بين إخوة وأبناء عمومة ، ولذلك لم يفخر بانتصارات قومه على بنى عمومتهم ، ولم يتعرض لذكر عبس بسوء إلا فى موضع الشماتة لما أصابهم من الذلة حين لجئوا إلى عدوهم المشترك بنى عامر ، وها هو ذا يشمت بقيس بن زهير وقد قال شعراً يتأسف فيه على ما صارت إليه حال عبس مع بنى عامر :

ابك بكاء السَّداد إنك لن تهبط أرضاً تحبها أبدا (٢)

نحن وهبناك للجَريش وقد جاوزتَ فى الحى جعفر أعدَدا (٣)

ومع أن عنترة كان من الفرسان المغاوير الذين أبلوا فى هذه الحروب الطاحنة بلاء حسناً وكانت له مشاهد صدق فى كل موقعة ، فإنه لم يتعرض لذم ذبيان أو يعيرهم بهزيمة أو يهجوهم مرة ، ولكنه كان يشيد بمواقفه وبطولته ، ولا سيما فى المعارك التى كانت بين غطفان وبنى عامر ، أما حرب داحس والغبراء فكان يتغنى فيها بانتصاراته على حلفاء ذبيان كتميم وأسد دون أن يمس بنى عمومته بسوء . وموقف النابغة وعنترة فى هذه المعارك ، وعدم تعرضهما لوصفها ، وهجاء مناوئيهم والشماتة بهم ، أو تحميس قومهم إبان المعركة ، يرجع إلى أنها كانت حرباً عارضة ، أسف الجميع لنشوبها بين أبناء عمومة تربطهم صلات النسب والقربى وطول العشرة ، ولذلك لم يلبث بنو عبس

(١) الأبرق والبرقة بضم الباء : الأرض الغليظة أو الرمل . وأبرق الحنان : مكان .

(٢) السداد : الاستقامة والتوبة وقد ورد هذان البيتان فى شعراء النصرانية ص ٩٣٠

(٣) الجريش . الرجل الصارم النافذ ويقصد أنه تركه لمن يسومه الخسف وسوء العذاب وإن جاوز فى عدده بنى جعفر بن كلاب وهو أبو رهط من عامر ، وفى ذكر جعفر تعريض وتذكرة بوترهم القديم لدى بنى جعفر بن كلاب .

أن ندموا على تطوافهم بالجزيرة العربية ونزولهم بشتى القبائل ، وأدركوا أن بنى عمومتهم أبر بهم من سواهم ، وأن نارهم أبرد من جنة غيرهم ، ولم يشهد النابغة خاتمة هذه الحرب الضروس ، ولكن شهدها زهير بن أبى سلمى ، وأغلب الظن أن عنترة قد رأى هذه النهاية ، ولكنه كان شيخاً كبيراً حينذاك .

وإذا كان النابغة قد خص بعداوته بنى عامر ، وبمحبته بنى أسد فإنه كان يعبر عن شعور قبيلته كلها ، إلا من حاول أن يشذ منها وهم قليل . ولقد وقف بجانب قومه فى غاراتهم المتتابعة على ديار الغساسنة ، ينصحهم ، ويشجعهم ، ويثبط همم غسان عن غزوهم ، ويخوفهم من الجموع التى أعدها هؤلاء لهم ويريد أن يوفق ما استطاع بين محبته لقومه ، وحرصه على إرضاء الغساسنة ، فهو يعتذر إن أجرم قومه ، وينفى عنهم العدوان أحياناً . وكان يعز عليه ويحز فى نفسه أن يرى نساء قومه أسرى فى يد الغساسنة ، اسمعه يقول حين أغار قومه على (ذى أُقُرٍ) — وهو واد خصيب كان قد حماه النعمان بن الحارث الغسانى ، وقد نهاهم النابغة عن هذا العدوان فلم ينتهوا ، وعيروه خوفه من النعمان ، وقد وجه إليهم الغساسنة من أدبهم على تجرؤهم هذا ، وفى ذلك يقول النابغة :

لقد نهيتُ بنى ذبيانَ عن أُقُرٍ ... وعن تَرَبُّعِهم فى كل أصفارِ (١)

وقُلْتُ يا قومِ إنَّ الليثَ منقبضٌ ... على براثنه للوثبة الضارى (٢)

لا أعرفنْ رَبْرَباً حُوراً مدامِعُها ... كأن أبكارها نِعاجُ دُوّارِ (٣)

---

(١) التربع : الإقامة فى الربيع ورعى ما أنبته الغيث ، وأصفار : يقول الأصمعى إنها جمع صفر — يريد الشهر — وكان حينئذ فى الربيع ، ويقول البطليوسى : حين يصفر الماء ويتربل الشجر ويبرد الليل وذلك فى آخر الصيف . وفى القاموس الصفرية — تولى الحر وإقبال البرد .

(٢) الضارى : المعتاد . يصف الملك بأنه مستجمع للغزو والوثوب فعل الأسد الضارى .

(٣) الربرب — القطيع من البقر ، وحوراً : واضحات البياض والسواد وهو جمع حوراء والحور : شدة البياض فى شدة السواد ؛ ودوار ما استدار من الرمل . أى لا تكونوا فى مكان تسبى فيه نساؤكم .

يَنظُرْنَ شَزْراً إلى مَنْ جاءَ عن عُرُض ... بأوجه مُنكرات الرِّق أحرارِ[١]

خَلْفَ العضاريط لا يُوقَيْنَ فاحشةً ... مُستمسكات بأقتابٍ وأكوارِ[٢]

يُذرين دمعاً على الأشفار منحدراً ... يأمُلنَ رِحْلةَ حِصنٍ وابن سيارِ[٣]

فى هذه الأبيات تبشيع للحالة التى سيكون عليها نساء ذبيان وبناتها حين يسقن إلى الأسر يلتفتن يمنة ويسرة رجاء أن يرين من ينقذهن ، ولهن وجوه لم تتعود العبودية وتستنكرها ، وقد تركن للأتباع والأجراء يعبثون بهن ، ولا يستطعن اتقاء الفاحشة لأنهن مملوكات ، ولا يملكن إلا سح الدموع من العيون . وأملهن فى أن يتقدم حصن ابن حذيفة سيد ذبيان وابن سيار لفك أسرهن . وهذا الوصف الذى ساقه النابغة للأسيرات المقهورات يهز مشاعر القوم ، ويجعلهم يحجمون عن العدوان ، ولكنها الحاجة الملحة ، وبخل السماء ، وجدب الأرض ، وقلة المرعى وشدة الجوع كانت تدفعهم دفعاً إلى المغامرة فى سبيل الحياة ، وحفظ الرمق ، وتطغى عليهم فلا يفكرون فى المصير .

وإذا كان النابغة يحذر قومه من هذا المصير البشع لنسائهم الحرائر ، ويخوفهم بطش الغساسنة ، فإنه كان يخوف الغساسنة بأس قومه ، وحلفائهم إذا عزموا على غزوهم ، وكان النابغة يحالف بنى عذرة (من قضاعة) فى حرب الغساسنة وهم يقيمون قريباً من ديارهم ، وهذه سياسة منه ، وقد عزم النعمان بن الحارث الغسانى على غزو بنى حُنٍّ بن حزام ، وهم من (عُذرة) ، وكانوا قبل ذلك قتلوا رجلا من طيء ،

---

(١) الشزر : النظر بمؤخر العين ، والعرض : الجانب والناحية .

(٢) العضاريط الأتباع والأجراء . والأقتاب : عيدان الرحل ، والأكوار : الرحال .

(٣) الأشفار : ج شفر وهو هدب العين . يعنى دمعهن منحدر على الخدين ، قال ابن الأعرابى : كان يقال لبنى سيار الشوك منهم قطبة وعوسجة وقتادة وطلحة وكان قطبة سيدهم وخزيمة فارسهم .

وأخذوا امرأته ، وغلبوا على وادى القرى وهو كثير النخل ، ونهاه النابغة عن غزوهم وأخبره أنهم فى حرّة ، وبلاد شديدة ، فأبى ، فبعث النابغة إلى قومه يخبرهم بغزو النعمان ويأمرهم أن يمدوا بنى حن ففعلوا ، وبذلك هزموا غسان فقال النابغة :

لقد قلتُ للنعمان يوم لقيته ... يريد بنى حُنٍّ ببُرْقَةِ صادر(١)

تجنب بنى حُنّ فإن لقاءهم كريهٌ ... وإن لم تلق إلا بصابر(٢)

همُ منعوا وادى القرى من عدوهم ... بجمع مُبيرٍ للعدو المكاثر (٣)

وعلى الرغم من ذلك فإن النابغة كان يتمتع بمنزلة عظيمة لدى الغساسنة ورجالهم وأغلب ظنى أن هذه المنزلة لا ترجع إلى أنه شاعر يثنى عليهم ، ويشيد بأعمالهم المجيدة فحسب ، ولكن لأن النابغة فى ذلك الوقت صار رجل سياسة قد جمع حوله وحول قبيلته أحلافاً أقوياء ، وفى استطاعتهم أن يقضوا مضاجع الغساسنة ، وأن يغيروا على أطراف دولتهم فى كل آونة ، وأن يعينوا أعداءهم المناذرة فى تلك الحروب الطويلة التى طالما شنوها عليهم ، والتى أوردنا طرفاً منها آنفاً . فارضاء النابغة ، واصطناع السياسة والدهاء معه ، وإكرامه بفك الأسرى الذين يقعون فى أيديهم تهدئة لتلك القبائل ، ونشر للأمن والسلام فى أطراف دولتهم ، وبجانب هذا مدحٌ من النابغة الشاعر المسموع الكلمة فى قبيلته وحلفائها لهم ، وإذاعة لأريحيتهم وكرمهم فتحبهم القبائل ولا يمالئون أعداءهم . ولقد أغار النعمان بن وائل بن الجُلاح ذات مرة على بنى ذبيان وأسر منهم عدداً . وكان فى هذا السبى عقرب بنت النابغة فلما عرفها قال لها : والله ما أحد أكرم علينا من أبيك ، وما أنفع لنا عند الملك ، ثم جهزها وخلاها ثم قال : والله ما أرى النابغة يرضى بهذا منا ، فأطلق له سبى غطفان وأسراهم .

---

(١) البرقة : الأرض ذات الرمل والحصى ، وصادر : اسم موضع .

(٢) أى برجل صابر ، فإنهم أشد صبراً ممن يلقاهم وإن بلغ الغاية فى الصبر .

(٣) مبير : مهلك .

وكان النعمان بن الُجلاح هذا قائداً للحارث بن أبى شمر الغسانى ، فلم يكد النابغة يسمع بهذه الأريحية ، وبإكرامه وهو غائب ، حتى أثنى على ابن الجلاح ، واصفاً غزوته لبنى ذبيان ، وكيف سبى البنات الغرائر ، واستطرد إلى وصف حالتهن وهن فى الأسر ، ثم قال : إن الشكر أصبح واجباً عليه ولا بد من رحلة يقوم بها لتقدمة هذا الشكر ، وهو وإن لم يسبق له أن مدح رجلا من السوقة . وإنما كان مديحه وقفاً على الملوك ، إلا أن ابن الُجلاح هذا أطلق بفعاله الكريمة لسانه بالثناء عليه ، وفى ذلك يقول :

لعمرى لنعم الحىُّ صبَّح سِرْبنا ... وأبياتَنا يوماً بذات المراود[1]
فآب بأبكار وعُون عقائلٍ ... أوانِس يحميها امرؤ غير زاهد[2]
يخططن بالعيدان فى كل مقعد ... ويَخبأن رمّانَ الثُّدِىّ النواهد[3]
ويَضربنَ بالأيدى وراء برَاغِزٍ ... حِسانِ الوُجوه كالظباء العواقد[4]
غرائرُ لم يلقين بأســاءَ قبلها ... لدى ابن الُجلاح ما يَثقنَ بوافدِ[5]
أصاب بنى غيظٍ فأضحوا عباده ... وجلَّلها نُعْمى على غير واحد[6]

---

(١) صبح القوم : أغار عليهم صبحاً ، والسرب : الجماعة ، وذات المراود : موضع بديار غطفان

(٢) العون : ج عوان وهى المرأة المتزوجة وعقائل : ج عقيلة وهى التى يحافظ عليها ، وغير زاهد إما ذلك الذى أسرهن فهو يعبث بهن ، وإما أنهن كن فى حماية من لا يقتر عليهن ويمتعهن بكل متع الحياة ، والأول هنا يناسب المعنى العام .

(٣) فى هذا البيت تصوير بديع لهـؤلاء النسوة وهن يخططن بالعيدان فى كل منزل تنزل به قافلة الأسرى شأن المهموم الذى غلبه الحزن . وهن مع ذلك فى غاية الحياء .

(٤) البراغز : ج برغز كجعفر وقنفذ وهى بقر الوحش أو أولادها يقول : إن بقر الوحش أو أولادها لا ينفر منهن بل يتقبل عبثهن معه ويضربن بأيديهن ظهور هذه الأبقار وذلك لملاحة هؤلاء النساء كأنهن الظباء التى تثنى أعناقها وهى أملح فى هذا الشــكل .

(٥) غرائر : ج غريرة وهى الساذجة التى لا تجربة لها ، وما يثقن بوافد : انقطع أملهن من الخلاص لأنهن فى حوزة هذا الرجل الشجاع .

(٦) بنو غيظ : رهط النابغة ، وجللها نعمى . يشير إلى أنهم بعد أن صاروا أرقاء له فك أسرهم وأنعم بذلك على غير واحد .

فلا بُدَّ من عوجاء تهوى براكب ... إلى ابن الجلاح سيرُها الليلُ قاصدِ[١]

تخب إلى النعمان حتى تنــاله ... فِدىً لك من ربٍ طريفي وتالدى[٢]

فسكَّنتَ نفسى بعدما طار رُوحها ... وألبستَنى نُعمى ولستُ بشاهدِ[٣]

وكنتُ امرأً لا أمدَحُ الدهر سُوقةً ... فلستُ على خيرٍ أتاك بحاسد[٤]

علوتَ مَعَداً نائلا ونكايةً ... فأنت لغيث الحمد أولُ رائد[٥]

ولم يختص النابغة بجاهه وشفاعته قومه وحدهم ، بل كان يتشفع لأحلافهم ولاسيما بنى أسد ، وقد رأينا حرصه عليهم وعلى مرضاتهم ، فقد أغار الحارث ابن أبى شمر على بنى أسد منتقماً منهم لغارة سابقة على حماه ، وكان النعمان بن الحارث واجداً على حصن بن حذيفة الفزارى معتقداً أنه هو الذى يحرض القبائل على انتقاص أطرافه ، والتعدى على أملاك غسان ، وأنه هو الذى قادهم فى العام السابق لهذه الغزوة ، وقد أسر الحارث عدداً كبيراً من بنى أسد وفزارة ، فلما ذهب النابغة ليتشفع لهؤلاء الأسرى قال له الحارث : ما رمى بنى أسد إلا حصن وقد بلغنى أنه لايزال يجمع علينا الجموع ليغير على أرضنا ، وقال النعمان بن الحارث — وكان شديداً غليظاً — : إن حصناً عظيم الذب إلينا وإلى الملك ، فنفى النابغة التهمة عن حصن :

---

(١) العوجاء : الضامرة من الإبل ، وقاصد : صفة لراكب ، وتقدير البيت : تهوى براكب قاصد إلى ابن الجلاح سيرها الليل . وبذلك لايكون فى البيت إقواء كما فى بعض الروايات حيث رويت قاصد بضم الدال

(٢) والنعمان . هو ابن وائل بن الجلاح . والطريف : المال المستحدث ، والتالد : المال الموروث

(٣) كان النابغة فى قلق على بنته وقومه ، فسكن نفسه بإطلاق الأسرى إكراماً له ولبنته ، وهو غير موجود ، وهذا نهاية الكرم .

(٤) قد يخيل إلينا أن هذا البيت فيه شيء من قلة الذوق ، لأنه يصفه بأنه من السوقة ويقول : إنه لم يمدح سوقة قبل اليوم . ولكن هذا الأسلوب مستساغ فى عصر النابغة لأن السوقة معناها الرعية أى دون الملك ، وهذه اللفظة للواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، ومما يدل على أن ليس فى البيت إهانة أنه قال فى الشطر الثانى : إنه لا يحسده على هذا الخير العظيم الذى جعله يلهج الألسنة بالثناء عليه ويكون أول رجل فى الرعية يمدحه شاعر مثل النابغة ؛ وذلك لأن المديح لم يكن قد ابتذل ، إذ كان فى أول عهده .

(٥) معداً : أبو العرب المستعربة ، ومنهم كان وائل بن الجلاح ، ونائلا : عطاء ، ونكاية : تنكيلا بالأعداء . وفى الشطر الثانى تأكيد لمعنى البيت الذى قبله .

وفى ذلك يقول مدافعاً عنه وعن بنى أسد ، واصفاً انتقام الغساسنة منهم استدراراً لعطف الحارث بن أبى شمر وولده النعمان :

إنى كأنى لدى النعمان خبّره … بعض الأودّ حديثاً غيرَ مكذوب[1]

بأنّ حصناً وحياً من بنى أسد … قاموا فقالوا : حمانا غير مقروب

ضلت حلومهم عنهم وغرّهم … سَنُّ المعيدى فى رعى وتعزيب[2]

قاد الجياد من الجولان قائظةً … من بين منعلة تزجى ومجنوب[3]

إلى أن يقول :

وما بحصن نُعاسٌ إذ تؤرقه … أصوات حى على الأمرار محروب[4]

ظلّت أقاطيعُ أنعامٍ مؤبّلةٍ … لدى صليبٍ على الزوراء منصوبِ[5]

فإذ وُقيت بحمد الله شرّتها … فانجى فزارَ إلى الأطواد فاللّوب[6]

---

(١) النعمان : هو بن الحارث بن أبى شمر ، والأود : ج ود . قال الأصمعى : كأنى عنده حاضر من علمى بالقصة وقد أخبر بعض وده عن حصن ورهطه ، وعن بنى أسد حافاء قومه بأنهم يسعون عليه ، ويقولون نحن فى أمان فحمانا لا يقرب ولن يستطيع الانتقام .

(٢) الحلوم : العقول ، والسن : حسن القيام على الرعى والماشية ، والمعيدى . تصغير معدى نسبة إلى معد ، والألف واللام فيه للجنس لأنه لا يريد واحداً بعينه ، وخفف الدال لأن الياء مشددة بعدها والتعزيب أن يبيت الرجل بماشيته فى المرعى لا يريحها لأهلها . يقول اغتر هؤلاء الرعاة بانبساط أموالهم فى مراعيها ، وصغرهم تحقيراً لهم وتعظيما لشأن الغساسنة الذين أغار عليهم هؤلاء الرعاة .

(٣) الجولان : على حدود غسان وهى من مدنهم ، وقائظة : غزت فى القيظ وهو وقت لا يغزى فيه لتعذر الماء والكلأ وذلك لشدة عزمه وصبره . ومنعلة : ألبست نعلا لحفائها ، وتزجى : تساق ، والمجنوب : المقود .

(٤) الأمرار : مياه فى ديار بنى أسد والمحروب : الذى سلب ماله ، والمعنى : أن أصوات بنى أسد وقد حربوا وأوقع بهم النعمان لما سمعها حصن الفزارى أرق ألماً وجزع لها .

(٥) الأقاطيع : ج قطيع على غير قياس ، وهى الطائفة من الأبل ، والمؤبلة : التى تتخذ للقنية لا تركب ولا تستعمل ، والزوراء : مسكن بنى حنيفة وهى أدنى بلاد الشام إلى الشيح والقيصوم والمعنى ظلت أنعام بنى أسد فى هذا الموضع .

(٦) اللوب : ج لابة ولوبة وهى الحرة . فزارة لم تغز فى هذه المرة ووقيت شر الغزو ولذلك يدعوها إلى النجاة والاعتصام بالجبال الشامخة والحرار المستعصية على الغزاة قبل أن يتجه إليهم ويوقع بهم .

ولا تلاقى كما لاقت بنو أسد ... فقد أصابتهم منها بشؤبوب(١)

لم يبق غير طريد غير منفلت ... وموثق فى حبال القد مسلوب(٢)

أو حرة كمهاة الرمل قد كبلت ... فوق المعاصم منها والعراقيب(٣)

تدعو قعيناً وقد عض الحديد بها ... عض الثقاف على صم الأنابيب(٤)

وقد استجاب الغساسنة لشفاعته ، وأطلقوا له الأسرى جميعاً ، وبذلك أضاف يداً من أياديه البيضاء على بنى أسد جعلهم يحرصون على معونته ومعونة قومه فى حروبهم كما كان يحرص على مرضاتهم ، ويتغنى بشجاعتهم وعظيم بلائهم .

وهكذا كان يتمتع النابغة بمنزلة لا تدانى لدى بنى غسان جعلته يلهج بالثناء عليهم وما تشفع مرة إلا وقبلت شفاعته ، وأكرم الأسرى ورجعوا إلى ديارهم مزودين بالعطايا والهبات سياسة من الغساسنة ، وإكراماً للشاعر الفحل ، ولا عجب بعد ذلك حين نراه يقول فيهم(٥) :

ولله عيناً من رأى أهل قبة ... أضر لمن عادوا وأكثر نافعاً

وأعظم أحلاماً وأكثر سيداً ... وأفضل مشفوعاً إليه وشافعاً

متى تلقهم لا تلق للبيت عورة ... ولا الضيف ممنوعاً ولا الجار ضائعا

أو حين يقول فى بعض اعتذارياته للنعمان بن المنذر :

---

(١) الشؤبوب : الدفعة من المطر بشدة ، يدعوهم ألا يقيموا بمكان يلاقون فيه ما لاقت بنو أسد

(٢) القد : الشراك يشد بها الأسير ، والطريد : الذى طرده الخوف ، وفى تصويره لحالة بنى أسد تلك وهم ما بين طريد لم ينج من الخوف والفزع فهو بمثابة الأثير ، وما بين مقيد فى أغلال الأسر حفز لفزارة على النجاة ، واستدرار لعطف الغساسنة .

(٣) المعصم : موضع السوار من اليد ، والمهاة : البقرة الوحشية تشبه بها المرأة لجمال عيونها ، ووئيد خطوها .

(٤) قعينا . بطن من بنى أسد ، والثقاف : خشبة تقوم بها الرماح ، والأنابيب جمع أنبوب وهى كعوب العصا . يقول : عض الحديد معاصم هذه المرأة فجعلت تستغيث بقومها .

(٥) هذه الأبيات نشرت فى مخطوطة (ساوة) ص ٥٢ ، وذكر البيت الأخير فى ملحق ابن الورد رقم ٣٣

مـــلوكٌ وإخوان إذا ما أتيتهم أُحـكَّمُ فى أمـــوالهم وأقرَّب

وعلى الرغم من هذه المكانة الممتازة التى كان يتمتع بها النابغة لدى الغساسنة ، فيقضى حوائج قومه ، ويفك العانى ويعين المحتاج ، ويحفظ لقومه أحلافهم مطوقين بمنته ، وجميل أياديه فلا يتقاعسون عن نصرتهم حين يحزبهم الأمر ، ويغير عليهم أعدؤهم فإن قوم النابغة لم يحفظوا له هذه الأيادى المفضلة ، وقد رأينا فيما سبق كيف طلق يزيد بن سيار بنته ، وجمع عليه الجموع يعادون رهطه وعشيرته ، ونسى ونسيت هذه الجموع معه ما يقدمه النابغة لهم من نعم ، ولذلك أطلقها زفرة حارة مستعيراً مثلا خيالياً مشهوراً لدى العرب فى عدم الوفاء ، وفى الغدر والخديعة يصور به حال قومه هؤلاء الذين تنكروا له ، وعادوه من غير جريرة اقترفها . فقال :

ألا أبلغا ذبيـانَ عنى رســالةً فقد أصبحت عن منهج الحق جائره

أجِدَّكُمُ لن تزجروا عن ظُلامة سفيهاً ولن تَرْعَوْا لذى الوُدِّ آصره(١)

وإنى لألقى من ذوى الضِّغن منهمُ وما أصبحتْ تشكو من الوجد ساهره(٢)

كما لقيت ذات الصفا من حليفها وما انفكت الأمثال فى الناس سائره(٣)

فقالت له : أدعوك للعقـل وافياً ولا تُـغْشِيَـنِّى منك بالظلم بادره(٤)

---

(١) الآصرة : العلاقة . (٢) ساهرة : مؤرقة من الوجد .

(٣) ذات الصفا : زعموا أن أخوين خربت بلادهما ، وكانا قريبين من واد فيه حية قد حمته فلا ينزله أحد ، فنزله أحدهما يرعى فيه إبله ، وكان أخوه قد حذره بطش الحية فلم يستمع إليه ، ورعى فيه زماناً ثم نهشته الحية وقتلته ، فأراد أخوه أن يأخذ بثأره ويقتل الحية ، فزعموا أنه حينما قابلها ندمت الحية على ما فعلته ، وصالحته على أن تدفع دية أخيه فى كل يوم ديناراً ، وحلفت له وحلف لها ، وأخذت تعطيه عقل أخيه فكثر ماله ، ثم قال لنفسه ما فائدة هذا المال وأنا أرى قاتل أخى ، فعمد إلى فأس فأحدها ، وترقبها على باب جحرها ، ثم ناداها فخرجت له وضربها بالفأس ضربة أخطأت رأسها وقطعت جزءاً من ذنبها ، وقالت له ليس بيننا إلا العداوة فخذ حذرك منذ اليوم ، ولما أراد أن يقنعها بالعودة إلى ما كانا عليه من صلح قالت له : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك وأنت فاجر لا تبالى بالمواثيق . وهذا هو حديث الحية الذى نظمه النابغة هنا .

(٤) العقل : الدية .

فواثقها بالله حين تراضيا فكانت تديه المال غِباً وظاهره
فلما توفى العقلَ إلا أقلَّه وجارتْ به نفسٌ عن الحق جائره
تذكّر أنّى يجعلُ اللهُ جُنّة فيُصبحَ ذا مال ويقتُلَ واتره (١)
فلما رأى أنْ ثمّر اللهُ ماله وأثّلَ موجوداً وسد مفاقره (٢)
أكبّ على فأس يُحِدُّ غُرابها مذكرة من المعاول باتره (٣)
فقامَ لها من فوق جُحْرٍ مشيد ليقتلها أو تخطىءَ الكف بادره
فلما وقاها الله ضربة فأسه وللبرّ عَيْنٌ لا تُغَمِّضُ ناظرَه
فقال تعالَيْ نجعلِ اللهَ بيننا على مالِنا أو تُنجزى لى آخره
فقالت : يمينُ اللهِ أفعلُ إننى رأيتُك غداراً يمينُك فاجره (٤)
أبى لىَ قبرٌ لا يزال مقابلى وضَربةُ فأس فوق رأسِىَ فاقره (٥)

وبهذا المثل الواضح صور النابغة حاله مع هؤلاء الذين جحدوا فضله ، وحسدوه مكانته وعزته ومنزلته بين القبائل ولدى الملوك .

ولقد رأينا فى هذا الفصل كيف أن شئون القبيلة وسياستها وحروبها قد احتلت جزءاً كبيراً من شعر النابغة ، وتفكيره ، وكذلك كانت مهمة الشاعر الذى يقدر التبعات ويعرف لقومه حقهم عليه ، وقد أفاد النابغة من الاهتمام بالسياسة القبلية مغنمين : أولهما خاص به وهو أنه صار وجيهاً مسموع الكلمة مقبول الشفاعة محبوباً

(١) جنة : مكان يتقى فيه شرها ، وأنى بمعنى متى أو كيف .
(٢) أثل المال : نماه وزكاه ، ومفاقره . جمع : فقر ، وسد مفاقره أى وجوه فقره
(٣) غرابها : حدها . ومذكرة : صلبة جيدة الحديد ، وباترة : قاطعة .
(٤) يمين الله أفعل : على حذف أداة النفى أى لا أفعل .
(٥) قبر أخيه الذى قتلته فهذا القبر يبعث فى نفسه الرغبة فى الانتقام فلا تأمن له بعد ذلك ، وأثر ضربة الفأس تدعوها إلى عدم مصالحته ، وفاقرة : داهية ومهلكة .

من الخلفاء الذين اصطنعهم وأسبغ عليهم فضله ، وإن حسده بعض من أكل الضغن قلوبهم شأن كل المصلحين فى العالم لا يعدمون شانئاً وحاسداً يحقد عليهم ما منحهم الله من فضل وخير ، وثانيهما عام وهو أنه حفظ لقبيلته حلفاءها وعزها فانتصرت فى حروبها ولم ترزأ فى أموالها فزادت قوة وغنًى .

— ٤ —

اتصاله بالنعمان بن المنذر :

تولى النعمان بن المنذر أبو قابوس عرش الحيرة — كما عرفنا — نحو سنة ٥٨١م وكان من الملوك ذوى الهمم العالية ، والعزائم الجبارة ، ظهر ذلك فى محاولته التغلب على الغساسنة ، والانتقام للهزائم التى منى بها قومه على أيديهم من قبل ، ولا سيما يوم حليمة ويوم عين أباغ ، ويوم إحراقهم الحيرة .

وقد أحاط النعمان ملكه بألوان زاهية من الترف ، جعلته مقصد الشعراء من جميع أنحاء الجزيرة ، وأجزل لهم العطاء ، فكانوا يمدحونه ، ويقيمون فى بلاطه ما شاءوا ثم يعودون إلى ديارهم ، وقد غمرهم بجوده يتغنون بمآثره ، وقد ذكرنا آنفاً بعض من وفد عليه من الشعراء ، وطرفا من حياته عند الكلام على بيئة النابغة (١) .

وما أن ذاع صيت النعمان فى أنحاء الجزيرة حتى وجد النابغة — وهو الشاعر الفحل — أن الفرصة مواتية لكى يصل ما انقطع بينه وبين ملوك الحيرة . فترك الغساسنة إلى حين وقدم على النعمان بن المنذر ، فاستقبله بكل ما يليق بهذا الشاعر العظيم من الحفاوة والكرم ، وبهذا السياسى المحنك والزعيم القدير ، مدركاً أن مثل النابغة — وهذه منزلته — لو شاء لرجح كفة المناذرة فى حربهم الضروس مع أعدائهم الغساسنة بانضمام قومه وحلفائهم إلى جيش الحيرة .

---

(١) راجع ص ٨٧ من هذا الكتاب .

وقد وجد النابغة لدى النعمان ما حبب إليه الإقامة ، بل الانقطاع إليه ، على الرغم من أن منح الغساسنة كانت لا تزال تملأ جوانب بيته ، وفيها تحف الذهب والفضة[1] وليس هذا نكراناً لجميلهم ، وجحوداً لأياديهم ، فإن النابغة قد وطد علاقته بهم حتى صارت أخوة ، ثم إنه أدرك مكانته السياسية ، وأنه يستطيع أن يُدِل بها على من شاء دون أن يخشى بأساً من جفوة ، فما عليه إذاً لو توجه للنعمان ينال من عطاياه كما ينال الشعراء ، وفى الحيرة مكان أوسع لشاعريته ، فهى عربية الصبغة ، لا تزال محافظة على كثير من طباع أهل البادية من كرم ونجدة .

ومع أنه انقطع للنعمان بن المنذر ، فإن باب الغساسنة ظل مفتوحاً له يغشاه فى كل آونة ، فلا بدع إن قال فيهم :

ولكننى كنتُ امرأً لى جانبٍ ... من الأرض فيه مسترادٌ ومَذْهَب

ويكاد عهد النابغة الذبيانى مع النعمان يطغى على كل شىء من سيرة هذا الشاعر ، وقد أغفلت كل كتب الأدب العربية حياته قبل أن يتصل بالنعمان ، وكأنما ابتدأت تلك الحياة من يوم أن اتصل به . ويكاد الأدب لا يذكر النابغة إلا مقروناً باسم النعمان ، ولا يتحدث التاريخ عن النعمان إلا وبجواره اسم النابغة ، كما حدث مع المتنبى وسيف الدولة فيما بعد .

أغدق النعمان على الشاعر العظيم جليل الهبات ، وكان نديماً له يؤاكله ، ويجالسه ويحضر أويقات أنسه ولهوه ، ويأكل فى صحاف الذهب والفضة [2] ، ويدخل عليه فى أى وقت شاء دون استئذان ، ويعامله معاملة الصديق لا معاملة التابع ، هذا له موهبته الأدبية وذاك له سطوته وملكه [3] ، وكان النعمان سخياً مع النابغة حقاً يهبه

(١) راجع .de Perceval. 11. P. 502

(٢) الأغانى ج ٩ ص ١٧٢

(٣) ديرنبورج ص ٢٢٢

مئات النوق والخيول ، والجوارى الحسان اللاتى ألفن النعمة ، وفى ذلك يقول النابغة معدداً هذه النعم :

الواهبُ المائةَ المعْكاء زَيَّنها سَعْدانُ توضحَ فى أوبارها اللِّبَدِ (١)
والراكضاتِ ذيول الرَّيْط فانقها بَرْدُ الهواجر كالغِزلان بالجرَدِ (٢)
والخيلَ تَمزَعُ غَرْباً فى أعنتها كالطير تنجو من الشُّؤبوب ذى البَرَدِ (٣)
والأُدْمَ قد خُيِّست فُتْلاً مرافقُها مشدودةً برحال الحيرة الجُدُدِ (٤)

ومع كل هذا الخير العميم لم نسمع للنابغة فى هذه الحقبة التى قضاها مع النعمان ابن المنذر شيئاً من المديح إلا القليل ومن ذلك الدالية التى وصف فيها المتجردة ، ولم يقل هذه القصيدة إلا بعد أن طلب منه النعمان ذلك وسنتعرض لها بعد قليل . فأى سبب حال بين النابغة وبين الثناء عليه ، وهو يتقلب فى أعطاف نعمته ، ويحتل لديه مكانة أوغرت صدور من حوله ؟ هل كان ذلك سياسة منه حتى لا يغضب الغساسنة وهو شديد الحاجة إليهم ، لكثرة ما يقع بينهم وبين قومه من مشكلات تدعوه إلى

---

(١) المعكاء : الغلاظ الشداد وهو اسم يقع على الواحد والجمع ، والسعدان : نبت تسمن عليه الإبل ويغذوها غذاء لا يوجد مثله ، وتوضح : اسم موضع ، واللبد : ما تلبد من أوبارها . والمعنى : إنه يهب الإبل المؤبلة المهملة فى مراعيها التى لم يعمل على ظهورها فنمت أوبارها .

(٢) ويروى : والسابحات ذيول الريط فنقها . والذيول : يقصد بها ما أسبل من الأثواب ، والريط جمع ريطة وهى كل ملاءة لم تكن لفقين ، وفانقها ، وفنقها : نعم عيشها ويقال : جارية فنق أى منعمة ، والهواجر : ج هاجرة وهى الحر الشديد ، والجرد : الموضع الذى لا ينبت شيئاً . والمعنى : إنه يهب كذلك الجوارى اللاتي يرفلن بأذيالهن نعمة حتى إنهن يمشين عليها لطولها ، ثم نعمهن فكن فى منعة من الهواجر فكأنهن الغزلان التى لا تخفى محاسنها .

(٣) تمزع : تمر مراً سريعاً ، وغرباً : حدة ونشاطاً ، والشؤبوب : الدفعة من المطر بشدة والمعنى إنه يهب الخيل الجياد التى هى فى سرعتها كالطير الخائفة من أذى البرد فتلتمس النجاة منه بمضاعفة طيرانها .

(٤) الأدم : البيض من النوق جمع أدماء ، وخيست : ذللت ، والفتلاء : التى بانت مرافقها عن آباطها فهى مندمجة بعيدة عن آباطها ، وإذا كانت كذلك سلمت من الجروح التى تصيب كراكرها إذا صكتها مرافقها فيمنعها بذلك عن السير .

ساحتهم ، فلو تورط فى مدح النعمان ربما أغضبهم وأغلق بذلك باباً طالما ولجه لينقذ أسرى قومه وحلفائهم ، ويعود مثقلا بالهبات الفخمة والعطاء الوفير ؟! أو أن ذلك كان عن أنفةٍ منه وترفع فلم يشأ أن يجعل ثمن صداقته للنعمان وغشيانه مجلسه ومؤاكلته ومنادمته مديحاً يسجل عليه الضعة ، وهو من هو فى قومه ، ويرى أن النعمان فى حاجة إلى مصانعته ؟

ومهما يكن السبب فإن وجود النابغة بحاشية النعمان ، واحتلاله تلك المنزلة الرفيعة لديه ، واختصاصه به ، أوغر صدور بطانته وجعل له حساداً ينفسون عليه هذه المكانة ويتربصون به الدوائر ، فعملوا جهدهم على الوقيعة بينه وبين الملك حتى نجحوا بعد عدة محاولات ، ولا نستطيع الجزم بالسبب المباشر الذى أدى فى النهاية إلى الجفوة بينهما . فقد رووا أن عبد القيس بن خُفاف التميمى ، ومرة بن سعد بن قُريع السعدى نظماً على لسان النابغة هجاءً سفيهاً فى النعمان ، يعرضان فيه بجده لأمه ، وأنه كان صائغاً من فدك ، فقالا :

قبَّحَ اللهُ ثم ثنى بلعن   وارث الصائغ الجبان الجهولا
من يَضُر الأدنى ويعجز عن ضـــر الأقاصى ومن يخون الخليلا
يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو   ثم لا يَرْزَأ العـــدو فتيلا

وكانت أم النعمان سلمى حقاً بنت صائغ من فدك ، يدعى عطية ، ولكن النعمان لم يكن يخفى هذا النسب بل كثيراً ما ذكر الشعراء اسم أمه ولم يعد ذلك عيباً كقول حسان بن ثابت :

وأنا الصقر عند باب ابن سَلْمى   يوم نعمان فى الكبول مقيم[1]

أو قوله :

أنا الزائرُ الصقرُ ابنَ سَلمى وعنده   أُبىّ ونعمان وعمرو وواقـــد

(١) ليس النعمان فى هذا البيت هو النعمان بن المنذر ولكنه شخص آخر يقصده حسان كما ترى فى البيت الثانى .

ولعل إحجام النابغة عن مديح النعمان شجعهم على نظم هذه الأبيات وكأن هذا الإحجام ناجم عن احتقار النابغة للملك . فهو وضيع النسب ، وأمه بنت صائغ ، وربما كان هذا الصائغ يهوديا شأن سكان فدك ووادى القرى ، ثم إنه يجهز الجيوش ولا يضر العدو شيئاً ، وفى هذا تعريض بمحبة النابغة للغساسنة ، ثم هو جبان يضر الأقارب ويعجز عن ضر الأقاصى ، ويخون الخليل كما يزعمون .

ولكن هذه الوقيعة لم تؤثر فى النعمان ولم يستمع إليها ، ولم يذكر لنا الرواة سبباً لعداوة عبد القيس للنابغة ، وإن كان واضحاً أنه الحسد والضغن لما نال من منزلة ، وأما مُرّة فقد ذكروا[1] أنه كان له سيف يدعى ذا الرِّيقة لحسن فِرنده وصفاء جوهره وأن النابغة حسنه فى عين النعمان حتى طلبه من مرة القريعى فلم يستطع حجزه عنه، وأسرها فى نفسه للنابغة حتى وشى به .

ويذكرون سبباً آخر لهذه الجفوة ، وهو أن النابغة وصف المتجردة امرأة النعمان وصفاً فيه كثير من الفحش ، نقل إلى الملك مصحوباً بوشايات الحساد ، فاضطغن عليه، والمتجردة هذه كانت زوجة أبيه ، واشتهرت بجمالها فتزوجها بعد وفاة والده ، وكان أبرش دميم الوجه ، قصيراً ، قبيح المنظر[2] فكان يغار عليها كل الغيرة وحدث أن مرت المتجردة على مجلس النعمان ، وفيه النابغة ، فسقط نصيفها[3] ، فاستترت بيدها فطلب النعمان من النابغة وصفها فقال قصيدته المشهورة التى مطلعها :

من آل مَيّةَ رائحٌ أو مغتدى عجلانَ ذا زاد وغيرَ مزوَّد

وفيها يقول إشارة إلى حادثة النصيف :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

ويظهر أن شانئيه قد وجدوا الفرصة مواتية فزادوا فى هذه القصيدة بعض الأبيات

(١) الأغانى ج ٩ ص ١٥٨
(٢) الأغانى ج ٩ ص ١٥٩ ، والشعر والشعراء ط الحلبى ص ١١٨
(٣) النصيف : الخمار ، والعمامة ، وكل ما غطى الرأس القاموس .

الداعرة (١) التى نجزم بأن النابغة لم يقلها ؛ لما اشتهر به من العفة ، والحنكة السياسية والجد فى شعره ، ويقال : إن المنخل اليشكرى (٢) كان من ندماء النعمان ، وكان يهيم بالمتجردة حباً ، حتى اتهم بها ، وكان على شىء من الجمال ، بل يقال : إن ولدى النعمان منه (٣) وأنه هو الذى دَسَّ هذه الأبيات ورواها للنعمان ، وقال له : لا يستطيع أن يقول هذا إلا من قد جرب ، غَيْرةً منه وحسداً للنابغة .

ومن العجيب أن ابن قتيبة الذى روى حادثة المنخل اليشكرى هذه ، وكذلك صاحب الأغانى لم يفطنا إلى التناقض الذى وقعا فيه ، فإنهما رويا بعد ذلك أن المنخل اليشكرى هذا قد قتله عمرو بن هند بعد أن سجنه ، لأنه كان يشبب بأخته هند ، وقد قال فيها (٤) :

ولقد دخلت على الفتا ... ة الخدرَ فى اليوم المطيرِ

الكاعب الحسناء تر ... فُل فى الدِّمَقْس وفى الحريرِ

فدفعتها فتدافعت ... مشىَ القطاة إلى الغدير

وعطفتها فتعطفت ... كتعطف الظبى الغرير

ولقد شربت من المدا ... مة بالصغير وبالكبير

وشربت بالخيل الإنا ... ثِ وبالمطهمة الذكور (٥)

فإذا سكرتُ فإننى ... رب الخورْنق والسَّدير

وإذا صحوت فإننى ... رب الشويهة والبعير

ياهند هل من نائل ... ياهند للعانى الأسير ؟

وأنه قال قبل مقتله فى سجن عمرو بن هند :

---

(١) تجد بعض هذه الأبيات فى الشعر والشعراء ص ١١٧ — ١١٨

(٢) هو المنخل بن عبيد بن عامر من بنى يشكر (٣) الشعر والشعراء ط الحلبى صفحة ٣٦٥

(٤) راجع الأغانى ج ٩ ص ١٥٩ ، والشعر والشعراء ط الحلبى ص ٣٦٥ ، ٣٦٦

(٥) يريد أنه باعها وشرب بثمنها .

طُلَّ وَسْطَ العِبادِ قتلى بلا جُرْ ... مٍ وقومى يُنَتِّجون السِّخالا (١)

لا رعيتم بطناً خصيباً، ولا زر ... تم عدواً ولا رَزَأْتم قِبالا (٢)

ومعلوم أن عمرو بن هند توفى حوالى سنة ٥٧٠م (٣)، وأن عرش الحيرة قد ملكه بعده قابوس، ثم المنذر، ثم النعمان بن المنذر، صاحب النابغة سنة ٥٨١م.

فهذا التناقض فى رواية المنخل يدعونا إلى الشك فى أنه هو الذى دس هذه الأبيات البذيئة، التى تتجاوز حدود الأدب على النابغة، ثم إن النابغة لم يشر إليه فى اعتذارياته أو هجائه لهؤلاء الذين أفسدوا ما بينه وبين النعمان، وإنما أشار إلى الأقارع عامة، وإلى واحد منهم بخاصة، ولعله مرة القريعى الذى مرَّ ذكره: وكان لا يزال يرتع فى حمى النعمان، ويتمتع بعطائه بعد أن أقصى النابغة، وفى ذلك يقول:

لعَمْرى! وما عَمْرى علىَّ بهينٍ ... لقد نطقتْ بُطلا علىَّ الأقارع

أقارعُ عَوْف لا أحاول غيرها ... وجوهُ قرود تبتغى من تجادُع (٤)

ويقول فى هذا الواشى:

لكلفتنى ذنب امرئ وتركته ... كذى العُرِّ يُكوى غيره وهو راتع (٥)

ولعل ثمة سبباً آخر لم يذكره مؤرخو الأدب (٦). وهو أن الوشاة أوهموا النعمان أن النابغة غير مخلص له، وأنه لا يمدحه ترفعاً وأنفة، أو أنه لا يراه أهلا للمدح، وإنما هو من أشياع الغساسنة، ومدائحه فيهم مشهورة. وقد شجعهم على ذلك صمت

---

(١) طل: أهدر ولم يثأر به. السخال: ولد الشاء من المعز والضأن الواحدة سخلة.

(٢) رزأتم: نقصتم والقبال: زمام النعل، يقال: «ما قطعت له قبالا ولا رزأته زبالا» أى أقل شىء وأدناه، والزبال بكسر الزاى: ما تحمله النملة بفيها

(٣) راجع Huart, His. P.72

(٤) يروى وجوه بالفتح على الشتم، وتجادع: تشاتم.

(٥) العر: بالفتح الجرب، وبضم العين قروح تخرج فى عنق الفصيل، فإذا أرادوا أن يعالجوه كووا بعيراً سليما فيبرأ المريض.

(٦) من الذين فطنوا إليه صاحب الروائع

النابغة ، وعدم ثنائه على النعمان ، وقد بحثنا ذلك آنفاً ؛ وقد أشار النابغة إلى هذا السبب فى أكثر من قصيدة حين أخذ يعتذر للنعمان ، وذلك حيث يقول :

لئن كنتَ قد بلغت عنى خيانةً — لمبلِّغك الواشى أغشُّ وأكذبُ

ولكننى كنت امرأً لىَ جانبٌ — من الأرض فيه مسترادٌ ومَذْهب

ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما أتيتهم — أحكَّمُ فى أموالهم وأقرَّبُ

كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم — ولم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا

فالنابغة يبرر مدائحه للغساسنة ، وأنهم أنزلوه منزلة الأخوة يحكم فى أموالهم ، فوجب عليه شكرهم ، وقد اصطنع النعمان قوماً وقربهم منه ، ولا شك أنه لا يعد شكرهم له ذنباً . ولعل هذه الأسباب مجتمعة هى التى أوغرت صدر النعمان عليه حتى هَمّ بالبطش به لولا أن حاجبه عصاماً ، وكان صديقاً للنابغة ، أنذره قبل أن يتمكن منه فهرب تاركاً كل ما وهبه النعمان من منح وعطايا ، وعصام هذا هو الذى يقول فيه الراجز (١) :

نفسُ عصام سوّدت عصاما — وعلمته الكر والإقداما

وصيرته ملكاً هماما — حتى علا وجاوز الأقواما

وكان من الطبيعى بعد أن فر النابغة من النعمان أن يلجأ إلى قومه يحتمى بهم من بطشه وسلطانه ، وبعد أن مكث فيهم مدة ، وقد ضاعت ثروته التى جمعها فى الحيرة ، تذكر أنه شاعر ، وأن ثمة قوما لم يقصروا فى شأنه يوماً ما ، هم الغساسنة ، وأنه يستطيع أن يسترد ثراءه ومنزلته إذا نزل بهم ، فشد رحاله إليهم ، وكان ذلك بعد سنة ٥٨٧ م ؛ لأن الملك الغسانى الذى وفد عليه النابغة بعد محنته فى الحيرة هو عمرو الرابع بن الحارث السادس الأصغر وقد ملك بعد أبيه سنة ٥٨٧ م وبذلك يكون النابغة قد أقام

---

(١) هكذا قال صاحب الأغانى ج ٩ ص ١٥٨ ، وتنسب هذه الأبيات للنابغة راجع ملحق ابن الورد صفحة ١٨٥ ، ونسبة إلى عصام بن شهبر الجرمى هذا يقال للرجل الذى يبنى مجده بنفسه « عصامى » .

فى حاشية النعمان بن المنذر سبع سنوات على الأقل ، وقد جاء فى العقد الثمين لوليم ابن الورد البروسى تعليقاً على قصيدة النابغة .

لقد نهيتُ بنى ذبيان عن أقر　　وعن تربعهم فى كل أصفار

أن النابغة كان منقطعاً إلى النعمان بن الحارث الغسانى ، ولما مات رثاه النابغة ، وانقطع إلى أخيه عمرو[1] وهذا التعليق المثبت فى أوائل القصائد يُعزى إلى الأصمعى[2] وقد وجده ابن الورد فى مخطوطتى باريس ، وفى مخطوطة (ليْدَن) ، وقد رواه الأعلم الشنتمرى عن الأصمعى ، وليس من وضع البطليوسى شارح هذه المجموعة كما ظن صاحب الروائع[3] معتقداً أن صاحب شعراء النصرانية الذى نقل هذه التعليقات فى أوائل القصائد ، قد أخذها عن الوزير أبى بكر البطليوسى ، والواقع أنه نقلها عن العقد الثمين كما حرره ابن الورد ، ولكن صاحب شعراء النصرانية كثيراً ما ينقل شرح البطليوسى للقصائد ، ومن ثم ظن صاحب الروائع أن التعليقات من وضعه .

ولا شك أن تعليق الأصمعى على القصيدة المتقدمة يفهم منه أن عمرو بن الحارث ملك بعد أخيه النعمان ، وهذا خطأ لم يفطن إليه صاحب شعراء النصرانية[4] فى هذا الموضع كما لم يفطن إليه بعض مؤرخى الأدب ، فإن عمرو بن الحادث هو الذى تولى الملك أولا ، ولما مات فى سنة ٥٩٧ م تقريباً خلفه أخوه النعمان ، وقد رثى النابغة النعمان عند وفاته فى سنة ٦٠٠ كما مر بنا[5] وقد خالف الأصمعى بذلك ما عرف من تاريخ الغساسنة وما روى في الأغانى[6] وفى الشعر والشعراء[7] وفى خزانة الأدب[8] وما عليه جمهور الفرنجة[9]

---

(١) العقد الثمين ص ٢١٠　　(٢) راجع مقدمة العقد الثمين ص ١٢

(٣) انظر الروائع (النابغة الذبياني ص يا) .

(٤) انظر شعراء النصرانية ص ٦٧٨　　(٥) انظر ص ٩٢ من هذا الكتاب .

(٦) انظر الأغانى ج ٩ ص ١٥٩ ط الساسى　　(٧) الشعر والشعراء صفحة ١١٨ ط الحلبي

(٨) خزانة الأدب ج ٢ صفحة ١١٨ ط السلفية　　(٩) راجع Huart. His. P.72
وراجع ديرنبورج صفحة ٢٣١ الهامش رقم ٤ وهو أول الذين فطنوا إلى خطأ الأصمعى هذا .

لجأ النابغة إلى عمرو بن الحارث وما أن وصل إليه حتى قال يصف حالته[١] :

إلى ابن مُحرِّق أعلمت نفسى ... وراحلتى وقد هَدَتِ العيونُ
أتيتُكَ عارياً خَلَقاً ثيابى ... على خوف تُظن بىَ الظنونُ
فألفيتُ الأمانةَ لم تخنها ... كذلك كان نوحٌ لا يخون

ففى هذه الأبيات يصور النابغة حاله أدق تصوير ، فقد كان مستخفياً وأظهر نفسه وراحلته إلى عمرو بن الحارث ليلا ، بعد أن هدأت العيون حتى لا يراه أحد من الناس وهو فى هذه الثياب الخلق ، وفى هذا الاضطراب النفسى ، فيظنون الظنون به ، ووجد عمراً على عهده كريما ، أميناً على صداقته ، لم يتغير وده ، ولذلك ما لبث النابغة أن مدحه بتلك البائية المشهورة ، ولا شك أن أريحية الغساسنة وحسن لقائهم له ، بعد أن تركهم سبع سنين طويلة ، أثرت فى نفسه وهاجت شعوره ، وأطلقت عقدة لسانه ، وهو الذى ضن على النعمان بن المنذر بمدحه طوال هذه السنين ، وبائية النابغة من عيون الشعر العربى الفخم ، وفيها يقول :

كلينى لهم يا أُميمةَ ناصِب ... وليلٍ أقاسيه بطئ الكواكب[٢]
تطاول حتى قلتُ ليس بمُنقَضٍ ... وليسَ الذى يرعى النجوم بآيب[٣]
وصدرٍ أراح الليل عازبَ همه ... تضاعف فيه الحزنُ من كل جانب[٤]

---

(١) هذه الأبيات ليست فى ديوان النابغة ، وقد ذكرها ابن الورد فى ملحقه ضمن أبيات راجع صفحة ١٧٦ ، وراجع دير نبورج صفحة ٢٥١ هامش رقم ٣ وقد ورد البيت الثانى فى الأغانى ج ٩ ص ١٥٥ ومخطوطة ساوة ص ٥٢ ضمن قصيدة طويلة قيل إنها موجهة إلى النعمان بن المنذر .

(٢) كلينى : دعينى من وكله للشىء أى أسلمه له ، وأميمة تصغير أمامة وهى بنته كما مر ، أو تصغير أم ونرجح هنا تصغير أمامة ، وخير ما قيل فى توجيه فتحها : أن الفتحة لمناسبة الألف المنقلبة عن ياء المتكلم المحذوف للتخفيف ، أو أنها منادى مبنى على الفتح فى رأى من يبنى المنادى المفرد على الفتح .

وناصب : صفة لهم أى ذو نصب وتعب ، وبطىء الكواكب : كناية عن طوله .

(٣) تطاول : زاد فى الطول والتعبير بها أبلغ من طال ، وليس الذى يرعى النجوم : يريد النجم الذى يتقدمها فى السماء أو يريد الصبح فأقامه مقام الراعى الذى يرعى الإبل .

(٤) عازب : بعيد ، وأراح الإبل : إذا ردها آخر النهار إلى أهله .

والمعنى : كلينى لقلب قد جمع فيه الليل كل شارد من الهم بعيد عنه فى أثناء النهار لتلهى الإنسان بشئون الحياة ، فإذا جن الليل أوى إلى القلب حتى تضاعف فيه الحزن من جميع نواحيه .

عَلَيَّ لعمرٍو نِعمةٌ بعد نِعمةٍ ... لوالده ليست بذات عقاربِ(١)

حلفتُ يميناً غيرَ ذى مَثْنَوِيَّة ... ولا علم إلا حُسنُ ظَنٍّ بصاحبِ(٢)

لئن كان للقبرين قبرٍ بِجِلَّقٍ ... وقبرٍ بصيداءَ الذى عند حاربِ(٣)

وللحارث الجَفْنِىِّ سيِّد قومه ... ليَلْتَمِسَنْ بالجيش دارَ المحاربِ(٤)

وثِقتُ له بالنَّصرِ إذ قيل قد غزتْ ... كتائبُ من غسانَ غيرِ أشائبِ(٥)

بنو عمه دُنيا وعمرو بنُ عامرٍ ... أولئك قومٌ بأسهم غيرُ كاذبِ(٦)

إذا ما غزوْا بالجيش حلَّق فوقهم ... عصائبُ طيرٍ تهتدى بعصائبِ(٧)

---

(١) ليست بذات عقارب : أى لا من فيها ولا أذى .

(٢) ذى مثنوية : أى لم استثن فى يمينى ، فمثنوية بمعنى ثنية ، والثنية الاستثناء وأصلها الاعوجاج والمنعطف فى الطريق ، فيمينه لا اعوجاج فيها ، بل هى مؤكدة لا شك فيها ولا استثناء ، ولا علم لى بصحة هذه اليمين إلا ثقتى وحسن ظنى بصاحبى الذى أمدحه .

(٣) لئن كان : أى لئن كان هذا الممدوح ابن هذين الرجلين اللذين فى هذين القبرين ، وجلق دمشق أو قرية قريبة منها ، وصيداء مدينة على ساحل الشام بجوار بيروب .

(٤) الحارث الجفنى : هو الحارث بن أبى شمر الغسانى ، وقد وهم الأصمعى فقال : إن أباه اسمه يزيد ابن الحارث الأعرج (شعراء النصرانية ص ٥٤٥) ، وقد مر بنا أن اسمه الحارث السادس الأصغر ، والجفنى نسبة إلى آل جفنة وهم الغساسنة .

والمعنى : لئن كان الرجل ينتمى لهؤلاء الملوك الغر الميامين ، ليبلغن مبلغهم ، وليطلبن بجيشه أعداءه فيغزوهم فى عقر دارهم كما كان آباؤه وأجداده يفعلون . وإنما قال هذا وهو يعلم أنه ابنهم مبالغة فى المدح ، كما تقول لمن لا يشك فى نسبه : لئن كنت ابن فلان لتفعلن فعله .

(٥) أشائب : جمع أشابة وهم الأخلاط ، أى أن هذه الكتائب كلها من صميم غسان .

المعنى : غسان مشهورة بشدة المراس والشجاعة ، فلما قيل إن كتائب منها خرجت للغزو لم تستعن بسواها تيقنت أن عمراً ملك غسان منتصر لا محالة .

(٦) دنيا : أراد الأدنين من القرابة ، وإذا كسر أوله جاز فيه التنوين ، وإذا ضم لم يجز فيه إلا ترك الصرف ، لأن فعلى لا يكون إلا المؤنث ، وهو منصوب على المصدر إذا نون كما تقول : هذا درهم ضرب الأمير ، وعلى الحال إذا كانت ألفه للتأنيث . وعمرو بن عامر من الأزد وهم أقارب الغساسنة .

(٧) العصائب : ج عصابة وهى الجماعة ، وعصائب الطير : الجماعات من أصناف مختلفة من الطير كالنسور والعقبان والرخم ، وهى تتبع الجيش منتظرة من يقتلونهم لتأكل لحومهم .

يصانعنهم حتى يغرن مغارهم ... من الضاريات بالدماء الدوارب(١)

تراهن خلف القوم خزراً عيونها ... جلوس الشيوخ فى ثياب المرانب(٢)

جوانح قد أيقن أن قبيله ... إذا ما التقى الجمعان أول غالب(٣)

لهن عليهم عادة قد عرفنها ... إذا عرض الخطى فوق الكواثب(٤)

على عارفات للطعان عوابس ... بهن كلوم بين دام وجالب(٥)

إذا استنزلوا عنهن للطعن أرقلوا ... إلى الموت إرقال الجمال المصاعب(٦)

فهم يتساقون المنية بينهم ... بأيديهم بيض رقاق المضارب(٧)

---

(١) يصانعنهم : من المصانعة وهى حسن الصحبة ، يريد أن هذه الطيور الجارحة تسير معهم دون أن تؤذى دابة فهذه حسن مصانعتها لهم ، أو أنها تغير على الأعداء كما يغيرون فهى تصانعهم بهذا الضاريات المتعودات ، والدوارب : من درب دربة أى ضرى ضراوة ، فالضاريات الدوارب بالدماء أي المتعودات على دماء القتلى المشغوفات بها .

(٢) خزراً : ج أخزر ، وخزراء أى ضيقة العيون ، أو أنها تتخازر أى تقبض أجفانها لتحدد النظر جلوس الشيوخ : جالسة جلوس الشيوخ . والمرانب ج مرنبانى أى من جلد الأرانب . شبه النسور وما عليها من الريش بشيوخ عليها الأكسية .

(٣) جوانح : مائلات للوقوع . وفى هذا إشارة إلى أنها معتقدة بنصرة جيشه من أول الصدام ، فهى مائلة لتنقض ومستعدة لشرب الدماء وأكل اللحوم .

(٤) لهن : لهذه الطيور ، نزلها منزلة العاقل لإدراكها هذه الأمور . والقنا الخطى : منسوبة إلى الخط بلد بالبحرين ، والكواثب جمع كاثبة وهى من جسم الفرس ما تحت الكاهل إلى الظهر بحيث إذا نصب عليه السرج كانت أمام القربوس يضع الفارس عليها رمحه مستعرضاً .

(٥) عارفات : خيول صابرات لطعان الأعداء ، يقال : وجدت فلاناً عروفاً على ذلك أى صابراً ، عوابس : كوالح الوجوه ، الكلوم : جمع كلم وهو الجرح ، الدامى الذى يسيل منه الدم ، والجالب : اليابس الذي نشأت عليه قشرة .

(٦) أرقلوا : أسرعوا ، والمصاعب : جمع مصعب وهو الفحل الذى لم يقيده حبل قط فهو قوى شديد إذ يقتنى للفحولة فحسب . قال الأصمعى : إذا اشتدت الحرب ووقع الالتحام ربما ضاق الموضع على الدابة فينزل صاحبها .

(٧) المنية : الموت ، يتساقون : يسقى بعضهم بعضاً ، وبيض : سيوف ، والمضارب : جمع مضرب وهو حد السيف .

يطيرُ فُضاضاً بينها كلُّ قَوْنَسٍ ويتبعُها منهم فَراشُ الحواجب (١)
ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفهم بهن فُلولٌ من قِراع الكتائب (٢)
تُوُرِّثْنَ من أزمان يوم حليمة إلى اليوم قد جُرِّبْنَ كلَّ التجارب (٣)
تَقُدُّ السَّلوقيَّ المضاعفَ نسجُه وتوقد بالصُّفّاح نار الحُباحِب (٤)
بضرب يزيل الهام عن سَكِناتِه وطعن كإيزاغ المخاض الضوارب (٥)
لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم من الجود والأحلامُ غير عوازب (٦)
مَحَلَّتهم ذاتُ الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب (٧)

---

(١) فضاضاً : ما انفض وتفرق ، والقونس : أعلى البيضة التى توضع على الرأس من الفولاذ ونحوه وفراش الحواجب : أي فراش الجمجمة ، وهى العظام الرقيقة التى تكون فى أسفل الجمجمة فوق الحنك والحلق ، والضمير فى يتبعها يعود على (كل قونس) لأنه فى معنى الجمع كقوله تعالى : « وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » والمعنى أن السيوف لحدتها وقوة ضرباتهم بها تطير كل بيضة من الفولاذ قطعاً ، وبعد أن تطيح بالخوذة تطير العظام الرقيقة للجمجمة .

(٢ ، ٣) الفلول : ج فل وهو الثلمة فى حد السيف ، والقراع : المضاربة بالسيوف ، ويوم حليمة قد مر ذكره فى صفحة ٩٠ . وفى هذا توكيد المدح بما يشبه الذم لأن انفلالها من قراع الكتائب فخر وفضل فهو دليل صبرهم وشجاعتهم وكثرة ضربهم للأعداء ، وتورثن . تدل على أنهم أبناء شجعان ، و (إلى اليوم) تدل على أنهم لم يكفوا عن القتال وخوض المعارك منذ يوم حليمة .

(٤) السلوقى : الدرع السلوقى نسبة إلى سلوق من ساحل أنطاكية بالشام ، والدرع مؤنثة وقد تذكر كما هنا ، الصفاح : الحجارة العراض ، والحباحب : ذباب له شعاع بالليل. والمعنى: أن هذه السيوف لمضائها وشدة الضرب بها تقطع الدروع المضاعفة النسج ، ثم تنفذ من بدن العدو حتى تصل إلى الأرض فتقدح الشرر من الحجارة العراض .

(٥) الهام : جمع هامة وهو الرأس ، وسكناته : ج سكنة وهى مقر الرأس من العنق ، الايزاغ : دفع الناقة ببولها . المخاض : النوق الحوامل ؛ والضوارب : التى تضرب بأرجلها ، والمعنى : أنه إذا ضرب بهذه السيوف أزالت الرءوس عن الأعناق ، وإذا طعن بها (والطعن عادة للرمح) خرج الدم فى أثرها منبثقاً كاندفاع بول النوق الحوامل وهو اندفاع شديد .

(٦) الشيمة : الطبيعة ، والأحلام : العقول ، والعوازب : الغائبة البعيدة : أي لا يماثلهم فى جودهم أحد ويعطون وعقولهم حاضرة حتى لا يظن أنهم مبذرون سفهاء ، أو يعطون وهم فى نشوة الخمر وعند غيبة العقل بل سخاؤهم جبلة وطبيعة .

(٧) محلتهم : ذات الآله : أي مسكنهم نفس الآله يريد بيت المقدس ، ويروى مجلتهم أى كتابهم عبادة الله . والمجلة : كتاب الحكمة . وذلك لأن الغساسنة نصارى ، يريد أنهم لا يخافون إلا عواقب أعمالهم بخوف الله ، ويروى (خير العواقب) والمعنى عليه ظاهر .

رقاق النعال طيبٌ حُجزاتهم ... يُحيَّون بالريحان يومَ السَّباسب[١]

تحييهمُ بيضُ الولائدِ بينهم ... وأكسيةُ الإضريج فوقَ المشاجبِ[٢]

يصونون أجساداً قديماً نعيمُها ... بخالصةِ الأردانِ خُضرِ المناكب[٣]

ولا يحسِبون الخيرَ لا شر بعده ... ولا يحسِبون الشر ضربةَ لازب[٤]

حبوت بها غسان إذ كنت لاحقاً ... بقومى ، وإذ أعيت على مذاهبى[٥]

ولا أريد أن أتعرض لهذه القصيدة بالدرس والتحليل فى هذا المقام ، وما أفاده النابغة من رحلته إلى الغساسنة ، وكيف انعكس فى شعره ؟ . وما اقتضاه المديح من فن وأسلوب ، فلذلك موضعه إن شاء الله عند الكلام على شعره ؛ وحسبنا أن نقول إن هذه القصيدة قد تعد الوحيدة من نوعها فى شعر النابغة ؛ لأنها مديح بحت ، لم يقل مثله للنعمان بن المنذر على الرغم من إسباغه النعم عليه ، بل لم يقل قصيدة مثلها للغساسنة من قبل ، ولم يروها غيرها فيهم ، اللهم إلا أبياتٌ قليلة من مثل قوله يحذر قومه بطش النعمان بن الحارث الغسانى[٦] .

---

(١) رقاق النعال : كناية عن الترف فهم لا يحتاجون لخصف نعالهم ، إذ قلما يمشون بل يركبون الخيل والحجزة : مجمع شد الإزار والسراويل على الجسم ، وطيب حجزاتهم : كناية عن العفة فكأنه قال : يشدون أزرهم على عفة . والسباسب : يوم الشعانين وهو يوم عيد عند النصارى .

(٢) الولائد ج وليدة وهى الأمة ، والإضريج : الخز الأحمر ، والخز : ثياب تنسج من الصوف المخلوط بالحرير ، وقيل الإضريج كساء من جلد المرعزى : والمشاجب : جمع مشجب وهو عود تنشر عليه الثياب . قال الأصمعى : هم ملوك أهل نعمة ، تخدمهم الإماء البيض الحسان ، وثيابهم ثمينة مصونة تعلق على المشاجب .

(٣) الأردان جمع ردن وهو الكم . الخالص : الشديد البياض أى بيض كسائر الثوب : ومنا كبها خضر ، وكان هذا زى الملوك .

(٤) ضربة لازب : أى ثابتة دائمة .

(٥) حبوت بمدائحى غسان وأنا آمن بين قومى ، ومدحتهم لما ضاقت على الأرض حين هربت من النعمان فهم أحق بمدحى فى حالى أمنى وخوفى .

(٦) ليست هذه الأبيات من مرويات الأصمعى وجاءت فى ملحق ابن الورد وفى مخطوطة ساوة ، وفى شعراء النصرانية .

يوما حليمة كانا من قديمهم وعينُ باغٍ فكان الأمر ما ائتمرا
يا قوم إن ابن هند غيرُ تاركِكم فلا تكونوا لأدنى وقعة جَزَراً

ومن مثل قوله يمدح الحارث الأعرج ، وكان ذلك طبعاً قبل أن يهرب من وجه النعمان بن المنذر[1] .

واللهِ واللهِ لنعْمَ الفتى الأعـــرجُ لا النِّكْسُ ولا الخامل[2]
الحاربُ الوافرَ والجابرُ الـ محروبَ والمُرْجِل والحامِلُ[3]
والطاعِنُ الطعنة يوم اللقا يَنْهَل منها الأسَلُ الناهِلُ
والقائل القولَ الذى مثلُه يُنْبِتُ منه الزمن الماحل
والغافرُ الذنب لأهل الحجا والقاطعُ الأقران والواصلُ

وبعض مقطوعات أخرى لا تتجاوز كل منها بضعة أبيات على الرغم من طول إقامته بين ظهرانيهم يتمتع بالأمن والطمأنينة ، والرفاهية ، والحظوة ، والمنزلة الكريمة فقد عاشر عمرو بن الحارث ، ولما توفى فى سنة ٥٩٧ لم يفرط فيه خليفته النعمان السادس أبو كرب وأبو حُجر ، على الرغم من أنه كان غليظاً شديداً ، وبطلا مغواراً يحب الغزوات ، ولا يطيق أن يعبث أحد بما حماه من أرض ، وقد مر بنا ما قام به النابغة من الشفاعات لقومه وأحلافهم من أسد وبنى حنٍ لدى النعمان هذا أيام أن كان ولىّ عهد . وقد قال فى النعمان هذا حينما خرج إلى بعض متنزهاته أبياتاً يمدحه بها وسنتعرض لها عند الكلام على شعره وطريقته فى المدح إن شاء الله . ولما قتل النعمان فى سنة ٦٠٠م فى إحدى غزواته رثاه النابغة بقصيدة طويلة مطلعها :

---

(١) رويت هذه الأبيات فى مخطوطة ساوة ص ٤٧ والبيت الثالث روى فى ملحق ابن الورد رقم ٤٥

(٢) النكس : الضعيف .

(٣) الحارب الوافر : أى يسلب ذا الغنى ماله فى الحرب ، والجابر المحروب : أى يعطى من سلب ماله فى الحرب ويجبر كسره ويغنيه ، والمرجل : يجرد الفارس من فرسه ، ويحمل الكل .

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل وكيف تصابى المرء والشيب شامل

وستتحدث عنها فى شعره ، ويظهر أن النابغة لم يلق حظوة عند خليفته حجر الثانى إما لأن هذا الملك لم يكن على شاكلة آبائه كرماً وأريحية وتقديراً لمواهب الشاعر الكبير . وهذا بعيد ، أو أنه كان حدث السن ، والنابغة قد أصبح شيخاً كبيراً فلم تتجاوب نفساهما ، أو أن النابغة قد رأى الفرصة سانحة للعودة إلى النعمان بن المنذر وشام بريقاً من رضاه ، وقد علم بمرضه ، وكان يطمع فى أن يصفح عنه ويعيد إليه ثروته إذا أقبل بعد هذه القطيعة الطويلة ، وبعد أن ملأ الدنيا بشعره يعتذر إليه ويتنصل مما رمى به زوراً وبهتاناً ، وهو فى ظل الغساسنة يتمتع بسطوتهم ونعيمهم . وسنعود إلى هذا الموضوع بعد قليل . ومهما تكن الأسباب التى حدت بالنابغة إلى ترك الغساسنة فى ذات العام الذى تولى فيه حجر الثانى ، فإنه ودعهم وداعاً رقيقاً ينم عن نفس معترفة بالجميل وذلك حيث يقول :

لا يُبعد اللهُ جيراناً تركتُهم مثلَ المصابيح تجلو ليلةَ الظُّلَم(١)
لا يَبرَمون إذا ما الأفق جلَّله برْدُ الشتاءِ من الأمحال كالأدَم(٢)
هُمُ الملوكُ وابناءُ الملوكِ لهم فضلٌ على الناس فى اللأواء والنِّعَم(٣)
أحلامُ عادٍ وأجساد مطهرة من المَعَقّةِ والآفات والإثَم(٤)

ترك النابغة ديار الغساسنة واتجه صوب الحيرة ، وهنا تتناقض الروايات فى الأسباب التى حفزته على القدوم ، وفى الطريقة التى رضى بها النعمان على شاعره بعد أن توعده وأهدر دمه .

---

(١) مثل المصابيح فى الرأى أو فى الوجوه .

(٢) البرم الذى لا يدخل فى الميسر بخلا ولؤماً ، والأدم : جمع أديم وهو الجلد الأحمر . يقول ليسوا بأبرام إذا اشتد الزمان وامتنع القطر وجلل السماء سحاب أحمر كالجلد لا مطر فيه .

(٣) اللأواء : المشقة والشدة .

(٤) لهم عقول راجحة كأحلام عاد ، وأجساد مطهرة من الآفات ، ونفوس منزهة عن عقوق الأرحام وقطعها وارتكاب الآثام .

نبئت أن أبا قابوس أوعدنى   ولا قرار على زأر من الأسد

لم يكن النابغة خائفاً من النعمان بن المنذر ، وقد كان له فى ظل الغساسنة مأمن ومنزل كريم ، وكان له فى ديار قومه وصحرائهم وجبالهم منعة تقيه شر النعمان :

سأكْعُم كلبي أن يَريبَك نبحُه   وإن كنتُ أرعى مُسْحَلان فخامرا[(١)]

وحلّتْ بيوتى فى يَفاعٍ مُمَنَّع   يُخالُ به راعى الحمولة طائراً[(٢)]

تَزِلُّ الوعولُ العُصْمُ عن قذُفاته   وتُضْحى ذُراه بالسحاب كوافرا[(٣)]

حِذاراً على ألاّ تنالَ مَقادتى   ولا نِسْوتى حتى يَمُتْنَ حرائرا

بمثل هذه الأبيات خاطب النابغة النعمان كى يبرهن له على أنه يستطيع أن يفلت منه ، وأن يعتصم بالجبال الشامخة التى تزل الوعول العصم عن قذفاتها ، والتى يجللها السحاب لارتفاعها . ولقد أيد أبو عبيدة الراوية المشهور أن النابغة لم يرجع إلى النعمان عن رهبة وخشية منه : « لعمر الله ما لمخافته فعل ، إن كان لآمناً من أن يوجه إليه جيشاً . وما كانت عشيرته لتسلمه من أول وهلة ، ولكنه رغب فى عطاياه وعصافيره »[(٤)] .

وذكر صاحب الأغانى أن السبب فى عودة النابغة إلى الحيرة سمعه بمرض النعمان ، وأنه عليل لا يرجى ، فأقلقه ذلك ، ولم يملك الصبر على البعد عنه مع علته ، وما خاف عليه وأشفق من حدوثه به ، فصار إليه وألفاه محموماً على سريره ينقل ما بين الغمر وقصور الحيرة ، فقال لعصام بن شهبرة حاجبه :

---

(١) كعم البعير : إذا جعل فى فمه الكعام ، ومسحلان وخامر : موضعان . لن أقول فيك سوءاً وإن كنت بعيداً عنك .

(٢) اليفاع : المشرف على الأرض ، والحمولة : الإبل التى قد أطاقت الحمل ، وطائراً : لصغر حجمه وذلك لشدة ارتفاعها .

(٣) الوعول : التيوس البرية جمع وعل . والعصم : ج أعصم وهو الذى فى إحدى رجليه بياض ، قذفاته : قذفة وهى الشرفات ، وكوافراً : مغطاة .

(٤) الأغانى ج ٩ ص ١٦٥ طبعة الساسى .

ألم أُقسم عليـــكَ لتخبرَنِّى	أمحولٌ على النعش الهمامُ؟[١]
فإنى لا أَلومُكَ فى دخولى	ولـكن ما وراءك يا عصامُ؟[٢]
فإن يَهلِكْ أبو قابوس يهلكْ	ربيعُ الناس والشهرُ الحرام[٣]
ونمسك بعـده بذَنَاب عيشٍ	أجبِّ الظهر ليس له سنام[٤]

ويرى ابن قتيبة أن النعمان هو الذى دعاه إلى الحيرة بعد أن بلغه أن الذى قذف به باطل « فبعث إليه : إنك صرت إلى قوم قتلوا جَدِّى فأقمت فيهم تمدحهم ، ولو كنت صرت إلى قومك ، لقد كان لك فيهم ممتنع وحصن، إن كنا أردنا بك ما ظننت، وسأله أن يعود إليه »[٥] .

ولا ريب أن النابغة لم يجرؤ على العودة إلا بعد أن وجد الفرصة مواتية ، وسواء كانت تلك الفرصة هى مرض النعمان — وقدومه لعودته وهو فى فراش المرض قد يستل سخيمة نفسه ويظهر النابغة بمظهر الوفىّ الحريص على مودته ، فيرق له ويعيده إلى مكانته السابقة ، أو أن النعمان ذاته تبين وجه الحق فيما رمى به النابغة فأرسل إليه يؤمنه ويستدعيه إلى حاشيته . أما أن الحرص على عطايا النعمان وعصافيره[٦] هى التى حفزت النابغة إلى المخاطرة وقدوم الحيرة دون أن يرى بارقة من أمل فى رضا النعمان كما يقول أبو عبيدة فذلك ما نستبعده .

ولم يشأ النابغة أن يأتى النعمان مذنباً متهماً ، وإنما أراد أن يقدم بين يدى عودته حججاً قوية على براءته ، حتى يصفو قلب النعمان له ، فإذا ما اتصل بينهما الود لقى منه

(١) قال أبو عبيدة : كانت ملوك العرب إذا مرض أحدهم حملته الرجال على أكتافها يتعاقبونه ؛ لأنه عندهم أوطأ من الأرض .

(٢) أى لا ألومك فى ترك الإذن لى فى الدخول ولـكن أخبرنى بحقيقة أمره .

(٣) هو كالربيع فى الخصب ، والشهر الحرام : لأن جاره فى أمن وعافية لا يصل إليه أحد .

(٤) لا يبقى لنا من العيش إلا مثل الذنب فى حقارته بعد أن ذهب من الجمل سنامه وهو خير ما فيه وفى هذا البيت رويت أجب بالرفع والنصب والجر .

والنصب والرفع حكوا والجرا ‏ ‏ ‏ فى قول من قال : أجب الظهرا

(٥) الشعر والشعراء ص ١١٨ .

(٦) العصافير : نوع من الإبل النجيبة كانت للنعمان ، قيل كانت سوداء .

ما كان يلقى من عطف فى أيامه الأولى التى طالما حنّ إليها ، والتى لم ينسها طوال تلك المدة ، فاجتهد النابغة فى الاعتذار للنعمان بتلك القصائد المشهورة ، والأبيات الخالدة التى زودت الشعر العربى بتراث مجيد من المعانى النفيسة ، وسنعرض لها عند الكلام على فنونه الشعرية إن شاء الله .

العودة إلى النعمان بن المنذر :

أما كيف عاد النابغة إلى الحيرة فقد تعددت الروايات فى ذلك ، فصاحب الأغانى يذكر أن النابغة قدم فى صحبة رجلين من فزارة[١] كانا من المقربين لدى النعمان ، وبينه وبينهما دُخْلُل[٢] ، وأن النابغة استجار بهما ، وسألهما الشفاعة ، وأن النعمان ضرب لهما قبة من أدم ولم يشعر بأن النابغة معهما ، ودس النابغة قينة تغنيه بأبيات من قصيدته :

يا دار ميــــة بالعلياء فالسَّنَد ... أَقْوَتْ وطال عليها سالف الأمد

فلما سمع النعمان الشعر قال : أقسم بالله إنه لشعر النابغة ، وسأل عنه فأخبر أنه مع الفزاريين فكلماه فيه فأمنه .

ويسوق صاحب الأغانى هذه الرواية بصيغة أخرى يفهم منها أن النعمان قد حرّم على الناس ذكر النابغة أمامه ، وأن النعمان كان يرسل لصديقيه الفزاريين بطيب وألطاف مع قينته ، فكان يأمرانها أن تبدأ بالنابغة قبلهما ، وأنها ذكرت ذلك للنعمان ، فعلم أنه للنابغة ، ثم ألقى عليه شعره هذا وسألها أن تغنيه إذا لعبت بلبه الراح ، ففعلت فأطربته فصاح من نشوته : هذا شعر علوى ، هذا شعر النابغة ! ثم إنه خرج فى غب سماء فعارضه الفزاريان والنابغة بينهما قد خضب بحناء فأقنأ خضابه ، فلما رآه النعمان قال : هى بدم كانت أحرى أن تخضب .ثم إن الفزاريين تشفعا فيه فقبل شفاعتهما وأمنه[٣] ، وقد شهد

---

(١) يقول ابن قتيبة إنهما زبان بن سيار ، ومنظور بن سيار ، وقيل أنهما منظور بن زبان ، وسيار ابن عمرو ، راجع ابن قتيبة ص ١١٨ ، والاشتقاق لابن دريد ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، ودير نبورج ص ٢٤٠

(٢) أصل الدخلل المداخل المباطن وصاحب السر ، وأراد به هنا المودة الصافية .

(٣) راجع الأغانى ج ٩ ص ١٦٥ طبعة الساسى .

حسان بن ثابت كيف أن النعمان قرب النابغة إليه، واستمع إلى شعره، وقد حسده حسان — الذى كان قد انتهز فرصة غياب النابغة عن بلاط الحيرة فقصده عله ينال حظوته ومنزلته — على ثلاث لا يدرى على أيتهن كان له أشد حسداً: على إدناء النعمان له بعد المباعدة ومسامرته له وإصغائه إليه، أم على جودة شعره، أم على مائة بعير من عصافير النعمان أمر له بها؟ وقد علم حسان أن لا قبل له بمنافسة النابغة، ونصحه عصام بن شهبرة الحاجب بالانصراف مكرماً إلى بلده، فإن النعمان لا يؤثر على النابغة شاعراً آخر[١].

ويذكر صاحب الأغانى رواية أخرى عن حسان بن ثابت وهى أنه كان ينادم النعمان ذات يوم فى قبة له فسمع رجلا يرتجز وهو يدور حول القبة:

أَصَمٌّ أم يسمعُ ربُّ القُبَّه   ياواهبَ الناسِ لِعَنْس صُلْبه[٢]

ضَرَّابة بالمشـفر الأذبه   ذات نجاء فى يديها جُلبه[٣]

فى لاحبٍ كأنه الأطبـه[٤]

فقال النعمان: أليس هذا أبا أمامة، قالوا: بلى! ثم أذن له وقربه واستمع إليه وحباه بمائة من عصافيره[٥]. ولم يذكر صاحب الأغانى فى هذه الرواية شفاعة الفزاريين التى رواها كذلك ابن قتيبة وغيره، وإنما تجرأ النابغة وأخذ يطوف بقبة النعمان معرضاً نفسه للخطر، مرتجزاً هذه الأبيات التى فيها استجداء صريح، وفيها وصف للنوق

---

(١) الأغانى ج ٩ ص ١٦٥ ط الساسى.

(٢) العنس: الناقة الصلبة ويروى ابن الورد فى ملحقه الشطر الثانى: الواهب النوق الهجان الصلبه

(٣) والمشفر من البعير كالشفة للانسان وضرابة بالمشفر: حين ترغى لقوتها وفتوتها، والأذبة: جمع أذب وهو ثور الوحش، أو الطويل الناب، وذات نجاء: سريعة، والجلبة. القشرة تعلو الجرح عند البرء. يريد أنها قد مرنت على السير.

(٤) اللاحب: الطريق الواضح، والأطبة جمع طبابة وطباب وهى طرة السماء المستطيلة، يريد أنه واضح كصفحة السماء   (٥) راجع الأغاني ج ٩ ص ١٦٩.

لا يناسب مقام التشفع والضراعة والتودد ، وفيها قلة ذوق فى قوله : أصم أم يسمع رب القبة ، ولذلك نرجح عدم صحة هذه الرواية ، ولا سيما وأن هذا الرجز لم يثبت فى الصحيح من شعره ، ولم يرو فى ديوانه .

ثم إنه يفهم من روايتى الأغانى أن النعمان كان فى صحة وعافية حينما جاءه النابغة وهذا يناقض مارواه سابقاً من أنه وجد النعمان مريضاً محمولا على أكتاف الرجال ، وأرى أن النابغة حينما عاد إلى الحيرة قد وجد النعمان مريضاً ، يدل على ذلك ما ذكرناه من شعره لعصام بن شهبرة الجرمى حاجب النعمان ، وما جاء فيما رواه الأصمعى من شعره فى قصيدته التى يقول فيها :

كتمتُكَ ليلاً بالُجومَيْن ساهرا ... وهَمَّين هَماً مستكناً وظاهرا(١)

أحاديثَ نفسٍ تشتكى ما يَريبُها ... ووِردَ هموم لن يَجِدْن مصادرا(٢)

تكلفنى أن يفعل الدهرُ همَّها ... وهل وَجدتْ مثلى على الدهر قادرا(٣)

ألم تر خيرَ الناس أصبح نعشه ... على فتيةٍ قد جاوز الحىّ سائرا

ونحن لديه نسأل الله خُلدَه ... يَرُدُّ لنا مُلكاً وللأرض عامرا

ونحنُ نُرَجِّى الخلدَ إن فاز قِدْحنا ... ونَرْهبُ قِدحَ الموت إن جاء قامرا(٤)

لك الخير إن وارت بك الأرض واحداً ... وأصبحَ جدُّ الناس يظلع عاثرا(٥)

---

(١) الجومان : موضع ، ومستكناً وظاهراً : منه ما بدا ومنه ما خفى ، وقال البطليوسى : همين معطوف مقدماً على أحاديث أى كتمتك أحاديث وهمين ومثل ذلك قولك : عليك ورحمة الله السلام ، وقيل جعل الليل معدى على السعة لكتمتك وعطف عليه همين ، وأحاديث بدل من همين .

(٢) الهموم ترد إليه ولا تتركه فلا تجد لها منصرفاً . وقد فرق بين راب وأراب ، فإذا استيقنت الأمر قلت رابنى ، فإذا أسأت الظن ولم تستيقن بالريبة قلت أرابنى .

(٣) همها : مرادها ، أى أن نفسه كلفته ألا تصاب بمكروه .

(٤) المنية تقامرنا فيه فنحن نرجو أن يبرأ من مرضه فيفوز قدحنا ، ونرهب أن يفوز قدح المنية

(٥) الجد : الحظ ، ويظلع : يعرج يقول : إن وارتك الأرض فالخير لك حياً وميتاً ، فواحداً على هذا التأويل حال من الخير ، ويصح أن تكون دعائية أى إن وارتك الأرض فإنما توارى واحداً لا مثل له فى فعله ولا شبيه له فى الناس ، ويكون واحداً مفعولا بوارت .

ورُدَّت مطايا الراغبين وُعرِّيَتْ جيادك لا يُحفى لها الدهرُ حافرا(١)
رأيتُكَ ترعانى بعين بصــيرة وتبعث حُرّاساً علىّ وناظرا
وذلك من قول أتاكَ أقوله ومن دسِّ أعدائى إليك المآبرا(٢)
فآليت لا آتيك إن جئتُ مجرماً ولا أبتغى جاراً سـواك مجاورا
فأهــلى فداء لامرئ إن أتيتُه تقبّل معروفى وسَـدّ المفاقرا(٣)

ثم يذكر بعد ذلك الأبيات التى ذكرناها آنفاً فى معرض الاستدلال على أنه كان فى منعة من أن يصل إليه النعمان .

سأكعَم كلبى أن يَريبَك نبحُه وإن كنتُ أرعى مُسْحَلانَ فحامرا(٤)

إلى أن يقول :

أقولُ وإن شَطَّت بى الدارُ عنكمُ إذا ما لقينا من معَد مسافِرا
ألِكْنى إلى النعمانِ حيث لقيتَهُ فأهدى له الله الغيوثَ البواكرا(٥)

وأرى أن هذه القصيدة قالها النابغة عند ما علم بمرض النعمان وشد رحاله إليه ، وقد سمع أنه يحمل على سرير يتقل به الرجال بين القصر والبساتين المحيطة به ، فأرسلها الشاعر بين يدى مقدمه تمهد له السبيل إلى قلب النعمان ، وتبين له أنه يستطيع أن ينجو من بطشه ، ولكنه آثر القدوم إليه ، وختمها بالدعاء له عَلّ فى كل ذلك ما يذهب وضر نفسه ، ونرجح أن النابغة أسرع فى مجيئه إلى الحيرة ووجد الملك لا يزال مريضاً وأنه قال بعض هذه القصيدة وهو فى الحيرة قلقاً على النعمان ، كما قال لعصام :

ألم أقسم عليك لتخبرنى ... الأبيات .

---

(١) عريت جيادك : حطت عنها السروج ولم تستعمل فى سفر ولا فى غزو .
(٢) المآبر : النمائم واحدها مأبرة .
(٣) المفاقر : واحدها فقر ، ومثله مذاكر واحدها ذكر وهو جمع على غير قياس أى سد وجوه فقره
(٤) سبق شرح هذا البيت .
(٥) ألكنى : سبق شرح الألوكة ؛ ومعنى ألكنى : كن رسولى .

ويجوز أن يكون النابغة قد استعان بالفزاريين بعد أن شفى النعمان ، ومعلوم أن فزارة من ذبيان فهم من أبناء قبيلة واحدة ، ويهمهما أن يعود الشاعر الكبير إلى سابق منزلته ، وأن تزول عنه الوصمة التى ألحقها به الوشاة ، وقد استطاع النابغة باعتذارياته الجميلة أن يأسر قلب النعمان ، حتى أفاض عليه النعم ، ورد للشاعر ثراءه ، ولكن الأيام لم تمهله ؛ إذ لم يلبث النعمان بعد ذلك إلا أمداً وجيزاً حتى غضب عليه كسرى على أثر وشاية زيد بن عدى انتقاماً لقتله والده . وقد رأينا كيف أن النابغة ، حينما بلغه مقتل النعمان ، قال : « طلبه من الدهر مالك الملوك » ، وتمثل بأبيات فاترة مرَّ ذكرها[1] ، كما مر تعليقنا عليها ، وكان النابغة قد لحق بقومه منذ تنكر الدهر للنعمان ابن المنذر ، ولم يلبث بعده إلا قليلا حتى توفى بعد أن أسن حوالى سنة ٦٠٤م ، وبذلك طويت حياة شاعر كانت مليئة بالحوادث الجسام ، وقد خاض غمار هذه الحوادث وكان له فيها أثر كبير ، كما صبغت شعره بألوان خاصة ميزته عن سواه من الشعراء .

— ٥ —

صفاته ودينه :

ذكر الرواة أن النابغة الذبيانى كان حسن البزة ، مهيب المنظر ، له ضفيرتان تتدليان على كتفيه[2] ، وأنه كان يعيش عيشة مترفة ، ويقتنى التحف الثمينة ، والخيول والنوق العتاق ، وله عبيد وإماء ، ويأكل فى صحاف الذهب والفضة[3] ، وقد جاء فى شعره ما يدل على هذا الثراء الذى حباه به الغساسنة ، والمناذرة .

وإن تلادى إن ذكرت وشِكَّتى   ومُهرى وما ضَمَّت إلىَّ الأنامِلُ[4]

(١) راجع ص ٨٧ ، و ص ١٠٨ و ١٠٩ من هذا الكتاب .

(٢) الجمهرة ص ٦٣ (٣) الأغانى ج ٩ ص ١٧٢ ، وراجع de Perceval. 11. P.502

(٤) التلاد : المال القديم ، والشكة : السلاح . وما ضمت الأنامل : أى ما علك .

حباؤكَ والعيسُ العِتاقُ كأنها هجان المها تُحدى عليها الرَّحائِلُ(١)

وقد مر بنا تعداده بعض النعم التى أغدقها عليه النعمان بن المنذر ، من إبل مؤبلة وإماء منعمات يرفلن فى الحرير ، عشن فى منعة من حر الهواجر ، ومن خيول سريعة العدو ومن نوق مشدودة برحال الحيرة الجدد .

وقد كان النابغة ذا عفة ووفاء ، وهو وإن كان قد ترفع عن مدح السوقة .

وكنتُ امرءاً لا أمدح الدهر سوقةً فلستُ على خير أتاك بحاسد

إلا أنه لم يستنكف عن منازلة هؤلاء السوقة وتأديبهم ، فيهجوهم تارة ويهددهم ويشيع نقائصهم كما فعل مع زُرْعة بن عمرو(٢) وكقوله ليزيد بن عمرو بن الصَّعق الكلابى وفيه ما ينبئ أنه كان يؤدب السفهاء الذين يتجرءون عليه ، وأن المقالة لا تعوزه حين يبغى هجوهم ، وأن هؤلاء الشعراء ليسوا له بأنداد ، وهم يصدون عنه فرقا منه :

فحسبك أن تُهاضَ بمحكَمات يَمُرُّ بها الروىُّ على لسانى (٣)
فقبلك ما شُتمتُ وقازعونى فما نَزُرَ الكلام ولا شجانى (٤)
يصدُّ الشاعرُ الثُّنيانُ عنى صدودَ البَكْرِ عن قَرْمِ الهجان(٥)
أَثرْتَ الغَىَّ ثم نزَعتَ عنه كما حاد الأزبُّ عن الطِّعان (٦)

وأحياناً يحقر من شأن الذى يتعرض له ، ويزدريه كما فعلَ مع عامر بن الطفيل الفارس المشهور ، فقد هجا النابغة بأبيات أولها :

(١) حباؤك : هبتك وعطاؤك . والعيس : الإبل البيض . وهجان المها : البيض منها .
(٢) راجع ص ١١٥ من هذا الكتاب .
(٣) الهيض : كسر العظام بعد الجبر وقد هضته فانهاض . أي حسبك أن تذل وتخزى بهذه القوافى
(٤) قازعونى : من المقاذعة وهى المشاتمة والهجاء ، وشجانى : أحزننى .
(٥) الثنيان : الذى دون السيد ، ويقال له أيضاً ثِنى وهو الذى يستثنى من القوم فلا يلحق بفحول الشعراء ، والقرم : الفحل الكريم من الإبل ، والهجان : الأبيض . والبكر : الصغير .
(٦) الأزب : البعير الذى على رأسه شعر يبلغ حاجبيه وعينيه فهو نفور أبداً والعرب تقول : كل أزب نفور .

ألا من مبلغٌ عنى زياداً ... غداة القاع إذا أزف الضِّرابُ

وأراد شعراء بنى ذبيان الرد عليه ، ولكنّ النابغة طلب إليهم أن يتركوه له ، يحقره ويصغِّر من شأنه ، ويسلك الطريق الذى يراه ناجعاً فى تأديبه فقال :

فإنْ يك عامرٌ قد قال جهلا ... فإن مَظِنَّة الجَهْلِ الشَّبابُ

فكن كأبيك أو كأبى براءٍ ... توافِقك الحكومة والصوابُ [١]

ولا تذهبْ بحلمك طامياتٌ ... من الخُيَلاء ليس لهن باب [٢]

فإنك سوف تحلُم أو تناهى ... إذا ما شبت أو شاب الغراب [٣]

وهكذا كان يسلك سبلا متباينة فى إسكات هؤلاء الذين يريدون انتقاصه ، أو التعرض لقومه ، ولو لم يفعل النابغة ذلك ، ويرد على هؤلاء ويفحمهم ، ويذلهم بشعره الذى وصفه بقوله :

قوافى كالسِلام إذا استمرت ... فليس يرد مذهبَها التَّظنى [٤]

لنهشوا عرضه وأخذوا قومه ، ونشروا فيهم قالة السوء تشيع بين العرب ، فلا يرفعون لهم رأساً ، ولا يتغنون بمحمدة ؛ والسفيه إذا لم تجبه ظن صمتك ضعفاً ، وإحجامك جبناً وخوراً ، أو فهاهة وعياً ، والأولى أن يُدَعَّ بعنف وشدة وإلا زاد نُباحا .

ومن أظهر سجايا النابغة الخلقية الوفاء ، وقد رأينا كيف كان وفياً لبنى أسد حلفاء قومه ، لا يقبل فيهم نميمة مَشَّاء ، ولا يفكر فى التنكر لهم فى السراء أو البأساء .

إذا حاولتَ فى أسد فجوراً ... فإنى استُ منك ولستَ منى

وكان يعد نقض حلفهم فجوراً وغدراً ولذلك قال لزرعة بن عمرو :

---

(١) أبو براء : هو عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب ملاعب الأسنة وهو عم عامر بن الطفيل

(٢) الطاميات : المرتفعات يقال طما الماء : ارتفع ، وليس لهن باب : أى لا فرج له منهن ولا ينكشفن عنه ، أو أنها خيلاء لا سبب لها .

(٣) يريد أنه لا يفلح ولا ينتهى عما هو عليه من الجهل حتى يشيب الغراب أى لا يفلح أبداً .

(٤) السلام : الحجارة راجع ص ١١٩

إنا اقتسمنا خطيتنا بيننا　　فحملتُ بَرَّةَ واحتملتَ فَجارِ

وعلى الرغم من إيذاء قومه له ، ونكرانهم لفضله ، وهو الذى يتشفع لهم عند الملوك ويطلق من أجله الأسرى ، فإنه لم يتلوم مرة فى تأدية هذا الواجب الذى تفرضه المروءة وشريعة القبيلة ، ولقد فسر هذا بقوله :

إذا أنا لم أنفع خليلى بوده　　فإن عدوى لم يضرهم نفعى

ولقد اشتهر النابغة بالحكمة ، والرزانة ، ورجاحة العقل ، واستطاع بهذه الخلال الكريمة أن يتبوأ بين قومه منزلة رفيعة ، فهو مقصدهم فى الشدائد ، وهو الشفيع المستجاب الكلمة لدى الملوك ، وهو الذى يشير عليهم بالرأى الصائب فيستمعون لقوله ولقد تمكن بفضل سجاياه تلك أن ينزله الغساسنة منزلة الأخوة ، وأن ينادمهم ويسمر معهم ، ويحضر مجتمعاتهم ومحافلهم فى أعيادهم ، واستطاع أن يأسر قلب النعمان بن المنذر وأن يكون له صديقاً ونديماً . وقد ذكرنا آنفاً شيئاً عن شجاعته وخوضه غمار القتال مع قومه وأحلافهم[١] وشيئاً عن كرمه وغشيانه مجالس الميسر[٢]

أما دين النابغة فكان دين عامة العرب فى ذلك الوقت ، يعتقد بوجود إله واحد هو خالق هذا الكون ، وإن كان يعظم الأوثان والأصنام ؛ إذ يراها شفيعاً له عند الله وقد حاول صاحب شعراء النصرانية ، وتبعه صاحب الروائع أن يعدا النابغة من الشعراء النصارى لقوله :

ظلت أقاطيع أنعام مؤبلة　　لدى صليب على الزوراء منصوب

ولقوله يمدح الغساسنة :

محلتهم ذات الأله ودينهم قويم　　فما يرجون غير العواقب

ولذكره يوم الشعانين وما شاكل ذلك ، ولعمرى إن هذا استنتاج فيه كثير من الجرأة ، فالنابغة لم يذكر هذه الأمور لأنه كان نصرانيا ، ولكن لأن الغساسنة نصارى وهو فى صدد مدحهم ، ولا ريب أنهم يسرون بالثناء على دينهم الذى يخالف دين عامة العرب ، وأنه دين قويم . ولو أن النابغة قد صبأ عن دين آبائه وأجداده لوجد

---

(١) راجع ص ١٢٠ ، ١٢١ .　　(٢) راجع ص ١١٠

فى شعره ما ينم عن عقيدته وحماسته لها وإعجابه بها . أجل ! جاء فى شعر النابغة ما يدل على اعترافه بآله واحد :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب

وكقوله :

إذاً فعاقبنى ربى معاقبة   قرَّتْ بها عين من يأتيك بالفَنَد[١]

كما كان يؤمن بجزاء الآخرة :

ولكن لا تُخانُ الدهرَ عندى   وعند الله تجزيةُ الرِّجال

ومما ينسب إليه قوله :

تعصى الآله وأنت تظهر حبه   هذا لعمرك فى المقال بديع
لو كنت تصدق حبه لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع

وإنى لأشك فى أن النابغة قال هذين البيتين ، فليست عليهما مسحه شعره ، وما فيه من رنين وقوة ، وظاهر عليهما الحداثة ، ومع ذلك فليس فيهما ما يدل على أنه يتبع ديناً بذاته . على أن النابغة كان يكثر من ذكر (الله) فى شعره ، ولقد كان كثير من العرب فى الفترة التى سبقت بعثة محمد عليه الصلاة والسلام يعتقدون بوجود آله واحد وسمعوا من اليهود والنصارى شيئاً عن الحساب والعقاب والبعث والحشر والجزاء[٢] ولذلك شاع فى شعر الفحول من شعرائهم بعض هذه المعانى ، وإن كانت غامضة غير محدودة ، يذكرونها فى صيغ عامة ، من مثل قول النابغة .

إذاً فعاقبنى ربى معاقبة . . . البيت

وتراه يحمد الله : فإذا وقيت بحمد الله شرَّتها . . . البيت

ويعتقد أن الله ذو عدل ووفاء .

---

(١) الفند : الكذب .
(٢) راجع ص ٢٧ ، ٣١ من هذا الكتاب .

أبى الله إلا عدلَهُ ووفاءه فلا النُّكْرُ معروف ولا العُرْفُ ضائع

وأن الأفعال منسوبة إلى الله فى الحقيقة لا الإنسان :

فلما وقاها الله ضربة فأسه وللبر عين لا تغمض ناظره

وأن المواثيق والعهود يجب أن تكون باسم الله كقوله : « فواثقها بالله حين تراضيا » .

وكقوله : فقال تعالىْ نجعلِ اللهَ بيننا على ما لنا أو تنجزى لى آخره

على أن كل هذه الأبيات إن دلت على شيء فإنما تدل على أنه يؤمن بالله كما كان يؤمن عامة العرب . ولقد جاء فى شعر النابغة ما يثبت أنه كان يحج إلى الكعبة فى موسم الحج ، والكعبة كانت مباءة الأوثان والأصنام ، ولكن العرب كانوا يعظمونها لأنها بيت الله الذى شيده إبراهيم ، استمع إليه يقول :

قالت أراكَ أخا رَحْلٍ وراحلةٍ تغْشَى متالفَ لن يُنْظِرْنَكَ الهرَما[1]

حيَّاكِ ربى فإنا لا يَحِلُّ لنا لهو النساء وإن الدِّين قد عزما[2]

مشمِّرين على خوصٍ مزمَّمةٍ نرجو الآله ونرجو البر الطُّعُما[3]

بل تراه يقسم بالأنصاب وما أريق عليها من دم قد تجسد ، وبالكعبة وبرب الكعبة الذى أمن الطير فى الحرم ، وذلك فى صدد اعتذاره للنعمان ، أى فى أخريات أيامه :

فلا لعَمْرُ الذى مسَّحْتُ كعبتَه وما هُريق على الأنصاب من جَسَدِ[4]

والمؤمنِ العائذاتِ الطيرَ تمسحُها ركبانُ مكة بين الغَيلِ والسَّعَدِ[5]

---

(١) أى متالف تقتلك ولا ينظرنك إلى وقت الهرم ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه

(٢) الدين هنا . الحج أى لا يحل لنا اللهو بك لأننا قد عزمنا على الحج .

(٣) مشمرين : جادين ، والخوص : الإبل الغائرة العيون واحدها خوصاء ، ومزممة : مشدودة برحالها والطعم : ج طعمه وهى ما يرزقه الإنسان وكان يسبق الحج الذهاب إلى عكاظ للتجارة كما رأينا .

(٤) مسحت : زرت وطفت ولمست ، وهريق : صب ، والجسد : الدم .

(٥) المؤمن : الله تعالى ، وهو مجرور بواو القسم أو معطوف على (لعمر الذى) ، والعائذات : المستجيرات وهو منصوب بالمؤمن لاعتماده على الموصول لأن الألف واللام بمعنى الذى أو مجرورة لإضافة مؤمن إليها إضافة لفظية ، فالطير إما منصوب أو مجرور على أنه عطف بيان لها وتمسحها حال ، وركبان مرفوع على أنه فاعل تمسح . والغيل : بفتح الغين : الماء الجارى على وجه الأرض وهو ما يخرج من أصل جبل أبى قبيس ، والغيل بالكسر ، والسعد : أجمتان كانتا منافع بين مكة ومنى وقد رجح الأصمعى الغيل بالفتح هنا

وكقوله :

حلفتُ بمن تساق له الهدايا على التأويب يعصمُها الدّرينُ[1]
برب الراقصات بكل نَهْبٍ بشُعْثِ القومِ موعدها الحَجونُ[2]

ولقد نفى دير نبورج[3] نصرانية النابغة ، وأكد أنه كان كبقية العرب يعتقد فى آله واحد ، وإن كان يعظم الأوثان ويحلف بها ، وليس ثمة داع للتعسف وتحميل الأبيات ما لا تحتمل من معان تلمساً لادعاء أن النابغة كان نصرانيا ، وإن بيتاً كالذى يقوله النابغة :

فلا َعمْر الذى أثنى عليه وما رفع الحجيجُ إلى إلال[4]

لأدل على دينه من تلك الأبيات التى مدح بها الغساسنة على نصرانيتهم ، ووصف فيها أعيادهم ، أو التى ذكر فيها اسم الله فى مقام الحلف أو الدعاء ، وقد كان هذا أمراً شائعاً بين العرب فيقسمون بالله ، ويقولون باسمك اللهم ، وبرب الكعبة ، وما شاكل هذا وهم على وثنيتهم ؛ لأنها وثنية وراءها توحيد يكمن فى قراره نفوسهم .

والنابغة إذا لم يكن نصرانياً فإنه كان رجلا عاقلا حكيما ، ذا مبادى مستقيمة ، وانتهج سبيلا خلقياً قويماً ، تجلى فى حرصه على العهود والمواثيق ، وتبشيعه الخيانة والغدر ، واستنكارة بكل ما أوتى من قوة ما نسب إليه من تهم ، وتتجلى بعض مبادئه الخلقية فى قوله :

واستبق ودّكَ للصديق ولا تكن قتَباً يَعَضُّ بغارب ملحاحا[5]
فالرِّفق يُمْنٌ والأناةُ سعادة فتأنَّ فى رفق تنالَ نجاحا

---

(١) التأويب : السير جميع النهار ، أو تبارى الركاب فى السير . وأدرنت : الإبل طعمت الدرين وهو يبس كل حطام حمضى أو شجر أو بقل .

(٢) السهب : الفرس السريع العدو . وشعث القوم : أى الحجاج ، والحجون : جبل بمعلاة مكة . يقسم بكل هذه الأمور التى تتعلق بالحج .

(٣) راجع ص ٢٦٣

(٤) الإلال : ككتاب جبل على يمين الإمام بعرفة .

(٥) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير ، والغارب : الكاهل أو ما بين السنام إلى العنق ، يريد ألا يكون دائم الاحتكاك بصديقه يضايقه ويحاسبه على الصغيرة والكبيرة .

واليأس مما فاتَ يُعقِبُ راحةً ولرُبَّ مطعَمَةٍ تعودُ ذُباحا (١)

فى هذه الأبيات يدعو النابغة إلى المحافظة على الود ، والتسامح مع الأصدقاء ، وإلى الرفق فى المعاملة ، والتأنى فى الأمور ، وعدم التحسر على ما فات ، وعدم الجشع والحرص على الحياة ، ويتجلى كذلك هذا المعنى الأخير فى قوله :

ولست بذاخرٍ لغدٍ طعاماً حِذار غدٍ لكل غد طعام

تمخّضتِ المنون له بيوم أنى ولكل حاملةٍ تمامُ

وليس معنى هذا أنه لم يكن ذا ثراء يوماً ما من حباء الغساسنة والمناذرة ، ولكنه ثراء أهل البادية قد تذهب به سنة مجدبة .

(١) الذباح : نبت سام أو وجع فى الحلق .

شعر النابغة

يعد النابغة من شعراء الطبقة الأولى فى العصر الجاهلى ، يتبارى فى ميدان الأسبقية مع امرئ القيس وزهير ، ولم يستطع ناقد ما فى القديم وفى الحديث أن يفضل أحدهم على الآخر ، وإن امتاز امرؤ القيس بالسبق الزمنى ، وفى الوصول إلى معان مبتكرة خالدة على نمط لم يسبق إليه ، وسبيل غير معبد من قبل ، فذلل بذلك الشعر لمن أتى بعده ، ووضع للشعر تقاليد عاتية لم يستطع الفكاك منها فى عصوره اللاحقة ، وفجر ينابيع المعانى ، ودل عليها رواد الشعر من بعده ، فجددوا وابتكروا ، ولكن ظل له فضل الرائد الأول .

كان النابغة من مدرسة المجودين فى الشعر المتأنقين فى صوغه ، الذين لا يقولونه ارتجالا ، وإنما يتعملون فيه ، ويقلبونه على وجوهه المختلفة ، ينفون منه الغث ويختارون له جيد اللفظ والمعنى ، فهو وزهير ينتميان إلى مدرسة واحدة ، وإن اشتهر زهير بحولياته وبطول التفكير والتهذيب لشعره ، ولم يجاره النابغة فى هذا المضمار ، وعلى الرغم من ذلك فقد قلّ فى شعره السّقط والوحشى من الألفاظ ، مع افتنان فى المعانى .

وإذا كان امرؤ القيس قد اشتهر بوصف النساء والتشبيب بهن ، وتصوير مناظر الصيد ، والإجادة فى وصف الطبيعة ، وإذا كان زهير قد برع فى الحكمة وتصوير المشاهد الحسية فى الفلاة . وبرّز فى وصف مناظر الصيد ، فإن النابغة قد أضاف إلى قيثارة الشعر الجاهلى وتراً جديداً لم يعرف من قبله ، وذلك هو فن الاعتذار ، وإن حلق فى كثير من الفنون الأخرى كالوصف والمديح والرثاء والهجاء والحكمة ، إلا أنه فى اعتذارياته نسيج وحده ، أتى فيها بما يدل على تفهم للنفس البشرية ، وقدرة عجيبة على ابتكار المعانى والتحايل فى أسر القلوب وسل سخائمها ، فطرق أبواب الاعتذار جميعها ، فى رقة وعذوبة وسلاسة ندر أن تتهيأ كلها لشاعر .

— ١ —

الاعتذار :

مرت بنا قصة النابغة مع النعمان بن المنذر وغضبه عليه ؛ لوشاية قام بها حساد النابغة ومن نفسوا عليه مكانته لدى النعمان ، وعرفنا كيف عاد النابغة إلى النعمان ، ولكنه كان حريصاً على ألا يعود مجرماً أو متهماً ، لا لخوف من أبي قابوس ، ولا لرغبة فى عطاياه ولكن لأن النابغة كان ذا جاه ومنزلة عظيمة فى قومه ، وكان رجل سياسة ، وأبى أن يختم حياته المليئة بعظام الحوادث وهو متهم لدى المناذرة بالخيانة وعدم الوفاء لصاحبه ورعاية صداقته ، بل بذمه وتحقيره ، وهى أمور كان النابغة يعتقد أنه برىء منها ، وأنها لا تتفق مع ما اشتهر به من الوفاء لأصدقائه ورعايته العهود ، والجد فى حياته ، وليس يحز فى نفس امرىء أكثر من أن يشيع عليه نقيض ما يعتقده ، أو ما هو عليه فى الحقيقة . هذا فضلا عن أن تلك التهم تشين هذا المجد الذى دأب النابغة طوال حياته على رفع عمده ، وتغض من منزلته الرفيعة بين قومه وأحلافهم ، والملوك الذين أحبوه وأكرموه ؛ ولذلك جهد النابغة فى نفى هذه التهم بدافع نفسانى أولا ، ثم بدافع الحرص على السمعة والكرامة ثانياً، ولقد حاول أن يظهر نفسه للنعمان بادىء الأمر أنه عزيز الجانب كريم اليد ، ثائر على الظلم ، فارس شجاع ، له منعة من قومه ؛ حتى لا يظن النعمان به الظنون ، ويرى فى اعتذاره بعض تلك المعانى التى تخطر بالبال كالحرص على النعمة التى كان يتقلب فى أعطافها أو الخوف من بطشه . ولذلك قال :

أبلغ لديك أبا قابوس مألُكةً ... الواهبَ الخيلَ والقيناتِ والنَّعَما
نلوى الرءوسَ إذا ريمت ظُلامتنا ... ونمنح المال فى الإمحال والغُنُما(١)
ونلبس الدهم ذا الماذى ضاحية ... بالدهم ثمت نغشى الموت والقَتَما(٢)

(١) الغنم : الغنائم أى أننا نأبى الضيم ونلوى رءوسنا كبراً ، ونمنح المال فى حالى الشدة والرخاء

(٢) الدهم : الأسود ، ويقصد به الشكة . وذا الماذى : كل سلاح من الحديد ، وضاحية : أى فى وضح النهار لشجاعتهم ، والدهم الثانية : الجواد الأسود اللون ، والقتم : الغبار .

ونَقْتلُ الكَبْش بعد الكبش نأسره قِدْماً ونضرب فى حوماتها قُدُما(١)

ولقد مرت بنا قصيدته التى قالها أول ما قدم الحيرة بعد الجفوة بينه وبين النعمان والتى ابتدأها بحديثه عن أرقه وكتمانه همين : هم ظاهر يلوح على مخايل وجهه ، وهم مستكن فى حنايا صدره ؛ لأن نفسه تشتكى ما يريبها ، وما ثبت لديه من سوء ظن صاحبه به فوردت عليها الهموم ، ولم تجد لها منصرفا ، ونفسه تكلفه أن يعمل على أن يصرف الدهر ذلك الهم ، ولكن هل له قِبَلٌ بالدهر وقدرة عليه وذلك حيث يقول:

كتمتك ليلا بالجومين ساهرا وهمين هماً مستكناً وظاهرا

أحاديث نفس تشتكى ما يريبها ووِردْ هموم لن يجدن مصادرا

تكلفنى أن يفعل الدهر همها وهل وجدت قبلى على الدهر قادرا

وقد رأينا أنه فى هذه القصيدة يبرهن للنعمان أنه على الرغم من منعته ، وتحصنه فى قمم الجبال ، التى يخال بها راعى الحمولة كالطائر لصغر حجمه ، وشموخها فى أجواز الفضاء ، والتى تزل الوعول العصم عن قُذُفاتها ، وتضحى ذراها مغطاة بالسحب لشدة ارتفاعها فإنه حريص على مرضاته ، وعلى أن يبرئ نفسه مما اتهم به ، وتلك لعمرى نفس كبيرة ذات حساسية مرهفة ، وذلك حيث يقول :

سأكعم كلبى أن يريبك نبحُه وإن كنت أرعى مُسْحلان فحامرا

وحلت بيوتى فى يفاع ممنع يخال به راعى الحمولة طائرا

تزِلُّ الوعول العُصْمُ عن قُذفاته وتضحى ذراه بالسحاب كوافرا(١)

حِذاراً على ألا تنالَ مَقادتى ولا نسوتى حتى يمتن حرائرا

وهو وإن كان فى هذه المنعة ويعز على كل من يريده بسوء ، إلا أنه أتى النعمان واعتذر إليه ؛ ليزيل عن نفسه ما وصمت به ، ويسترد مكانته الاجتماعية والأدبية،

---

(١) كبش القوم : فارسهم .

(٢) مر شرح هذه الأبيات .

ولذلك يقول :

فآليت لا آتيك إن جئتُ مجرماً ولا أبتغى جاراً سواك مجاوراً

ومن بدائع اعتذارياته هذه القصيدة البائية الخالدة التي يقول فيها :

أتانى أبيت اللعنَ أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصبُ(١)
فبتُّ كأنَّ العائدات فرشنَ لى هراساً به يعلى فراشي ويُقشبُ(٢)
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عنى خيانةً لمبلغك الواشى أغشُّ وأكذبُ
ولكننى كنت امرءاً لىَ جانبٌ من الأرض فيه مسترادٌ ومذهب(٣)
ملوك وإخوانٌ إذا ما أتيتهم أحكَّمُ فى أموالهم وأقرَّبُ
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم ولم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا
فلا تتركنى بالوعيد كأننى إلى الناس مطلىٌّ به القار أجرب
ألم تر أن الله أعطاك سورةً ترى كلَّ ملْكٍ دونها يتذبذب(٤)
بأنك شمسٌ والملوك كواكب إذا طلعتْ لم يبدُ منهن كوكب
ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّه على شعثٍ ، أىُّ الرجال المهذب ؟(٥)
فإن أكُ مظلوماً فعبدٌ ظلمته وإن تكُ ذا عُتبى فمثلك يُعتِبُ(٦)

---

(١) أبيت اللعن : أى أبيت أن تأتي أمراً تلعن عليه ، وتلك : أى الملامة هي التى صيرتنى مهتما : والنصب : الإعياء بعد المشقة .

(٢) العائدات : الزائرات من النساء فى المرض . والهراس : شجر شائك ثمره كالنبق . ويقشب : يخلط ويجدد .

(٣) مستراد : أى إقبال وإدبار وهو مصدر مبنى من راد يرود إذا خرج رائداً لأهله ، ومذهب مفعل من الذهاب .

(٤) سورة : سلطانا وقوة . يتذبذب : يضطرب .

(٥) الشعث : التفرق والفساد . وتلمه : تجمعه وتصلحه .

(٦) العتب بفتح العين : الموجدة ، والعتبى : الرضا . وأعتبه : أعطاه العتبى ، وطلب إليه الرضا .

ومن هذه الأبيات يتضح أسلوب النابغة فى الاعتذار ، انظر إليه : كيف وصف حالته النفسية لما علم بغضب النعمان ، وأنه مهموم نصبٌ لذلك الغضب ، بل إنه كالمريض الذى لا يكتحل جفناه بسنة من نوم . كأن الزائرات التى يعُدنه فرشن له شوكاً ، وهيهات لمن ينام على الشوك أن يعرف طعم الراحة أو يذوق الكرى ! . ثم انتقل بعد هذا إلى المحاجة فى لطف ، فذكر أنه حلف بالله أنه برىء مما رمى به زوراً وميناً ، وليس بعد اليمين بالله يمين ، فعلى النعمان أن يصدق قسمه ، ويبرئه مما اتهم به ؛ لأن ما بلغه هو دس واش ، هو أغش الناس وأكذبهم عليه ، أغش الناس له لأنه باعد بينه وبين شاعره الفحل ، وملك النعمان لا يزدان إلا بمثله ، وأكذبهم عليه ؛ لأنه اختلق تهماً لا أساس لها ، ولا برهان عليها . ثم يقول للنعمان : إن كان هذا الواشى قد استدل على تنكرى لك بذهابى إلى الغساسنة ، وأنى وجدت لديهم متسعاً من الأرض فهؤلاء وإن كانوا ملوكا لا يقلون عنك منزلة ، فهم لى إخوان أحكم فى أموالهم ، ويشعروننى فى كل برهة على عظيم مودتهم ، وعلى أنى لست منهم ذلك الشاعر المرتزق بل القريب المحبوب ، والصديق الكريم ، وليس ذلك بدعاً من الأمر ، ولذلك وجب على شكرهم والإشادة بفضلهم ، وحاشاك أن تنكر علىّ هذا فقد اصطنعت أقواماً كانوا مع غيرك ثم أتوا إليك فأدنيتهم وأكرمتهم ، فأثنوا عليك بما أنت أهله ، ولم تر ذلك منهم ذنبا .

وفى هذا كله تعريض بالنعمان ، وأنه خسره ، وأنه لم يعامله معاملة الغساسنة له . وبعد هذه المجادلة المقنعة أخذ يهول فى قوة النعمان ، ويفخم فيه حتى يتفتح له قلبه مخافة أن يفهم من المحاجة السالفة أنه فى غنى عنه ، وفى منعة منه ، فقال : إنك أوعدتنى وتركتنى موسوماً بهذا الوعيد . فمثلى مع الناس مثل البعير الأجرب يدفعونه كلما رأوه خشية أن يعدى سواه من الإبل ، فأنا لا أزال أُدعُّ فى المجالس، وتوصد دونى الأفئدة منذ غضبت علىّ : رهبة منك وخشية لك ، ولا تعجب إذا كان هذا شأنك ، وهذه سطوتك على القلوب ، فإنى أقرر أن الله حباك منزلة يفرق منها كل ملك ، ويضطرب لها كل صولجان ، فأنت من الملوك شمس يكسف ضوؤها كل ضوء سواها ، فإذا ظهرت

فى ميدان ما : من كرم ، أو قوة ، أو ثروة ، لم تجد لهم أثراً ؛ إذ لا يستطيعون مباراتك

ثم بعد هذا التعظيم وهذه المبالغة التى أحلت النعمان فوق منزلته ، والتى من شأنها أن تهزه عجباً ، وتثنى عطفيه تيها ، وتدخل على قلبه المسرة والجذل ، وجه النابغة إليه نصيحة خالدة حكيمة بقوله : لن يكون لك صديق ما إذا لم تغفر خطيئته ، وتنسى زلته ، وتقيل عثرته ، وتلمه على ما به من عيوب ، فليس ثمة على ظهر البسيطة رجل تبرأ من العيب وصار مهذباً لا هَنَة تشوب خُلقه .

وفى النهاية قذف النابغة بآخر سهم فى كنانته ، وأظهر من الذلة والخضوع ما لا عهد للعربى الأبى به ، وذلك حيث يقول . إنى راض بحكمك ، وقسوتك علىّ ، فما أنا إلا عبد ظلم ، وهيهات للعبد أن يحتج على ظلم سيده له ، وعسفه به ، فدع الأمر على هذا الوضع ، ولنستأنف علاقتنا بهذه الصورة . ولكن النابغة يذكر هذا من قبيل سل السخيمة وترضية النفس فحسب ، ولن يقبل إلا الرضا ، ولذلك ختم اعتذاره بقوله : وإن شئت أن ترضى وتصفح فمثلك خليق بهذا ، وأنت له أهل .

على هذا المزهر ذى الأوتار الخمسة عزف النابغة هذه الأغنية الحلوة ، علها تستل من فؤاد النعمان ما به من ضغن عليه ، وتهديد له ، وسطر بها فناً جديداً فى الأدب العربى لا يزال حتى اليوم يشرئب بعنقه فى موكب الشعر الزاخر تفوقاً وسمو مكانة .

ومن روائعه فى الاعتذار العينية المشهورة ، وفيها سبيل جديدة سلكها النابغة لينفذ بها إلى فؤاد النعمان فيمسح ببلسم سحره ، وعذب شعره ، ما عاق به من وضر ، وما استكن فيه من موجدة ، وفيها يقول :

وعيد أبى قابوس فى غير كنهه   أتانى ودونى راكس فالضواجع[1]

(١) فى غير كنهه : فى غير موضعه ، راكس : واد ، والضواجع . ج ضاجع وهو منحنى الوادى

فبتُّ كأنى ساورتنى ضئيلة ... من الرُّقش فى أنيابها السمُّ ناقع(١)

يُسَهَّدُ من ليل التّمام سليمها ... لحلى النساء فى يديه قعاقع(٢)

تناذرها الراقون من سوء سمعها ... تُطلّقه طوراً وطوراً تراجع(٣)

أتانى — أبيت اللعن — أنك لمتنى ... وتلك التى تستكُّ منها المسامع(٤)

مقالةُ أن قد قلت سوف أناله ... وذلك من تلقاء مثلك رائع(٥)

لعَمْرى وما عَمرى علىّ بهين ... لقد نطقت بُطْلا علىّ الأقارع(٦)

أقارع عوف لا أحاول غيرها ... وجوهُ قرود تبتغى من تجادع(٧)

أتاك امرؤٌ مستبطن لىَ بِغْضَةً ... له من عدو مثلَ ذلك شافع(٨)

أتاك بقول هلهل النسج كاذبٍ ... ولم يأت بالحق الذى هو ناصع(٩)

أتاك بقول لم أكن لأقولهُ ... ولو كُبلت فى ساعدى الجوامع(١٠)

---

(١) ساورتنى : واثبتنى ؛ وضئيلة : دقيقة اللحم ، وهى أشد سما من غيرها وفى ذلك يقول الراجز

لميمة من حنش أعمى أصم ... قد عاش دهراً وهو لا يمشى بدم

وكلما أثار منه الجوع شم

لأن الحية إذا كبرت عافت الطعام ، وضؤل جسمها ، وازدادت شرتها لتركز سمها . والرقشاء : التى فيها نقط سود وبيض . والناقع : الثابت ، يقال : نقع نقوعاً إذا ثبت أى طال مكثه .

(٢) ليل التمام : ليالى الشتاء الطوال ، السليم الملدوغ تفاؤلا بشفائه ، وقعاقع : جمع قعقعة وهو الصوت الشديد . ويعلق الحلى على الملدوغ لتقوى نفسه ، وليس بنافع ، أو حتى لا ينام فيسرى السم فى جسمه .

(٣) تناذرها : أنذر بعضهم بعضاً من سوء سمها ؛ لأنها تمكر بهم فلا تستجيب لهم حين يدعونها أو من سمعها بكسر السين أى شهرتها فى السوء . وتطلقه أى يشتد به الوجع تارة ، ويخف تارة

(٤) تستك : تضيق والسكك ضيق الصماخ .

(٥) رائع : مفزع ، ومقالة بالرفع بدل من فاعل أتى فى البيت قبله .

(٦) الأقارع ، بنى قريع بن عوف يشير إلى مرة القريعى الذى وشى به .

(٧) تجادع : أى تشاتم ، وقد مر شرح هذا البيت وما قبله .

(٨) البغضة : البغض ، كالذلة والذل والقلة والقل ، وشافع : أى معه شخص آخر مثله .

(٩) هلهل النسج : سخيف النسج وثوب مهلهل كذلك ، والناصع : الواضح .

(١٠) الجوامع : الأغلال الواحدة جامعة ، أى ولو حبست حتى يبلغ من حبسى أن أغل .

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأمن ذا أُمَّة وهو طائع(١)

بمصطحبات من لِصافٍ وثَبرةٍ يرونَ إلالاً سيرُهن التدافع(٢)

سَماما تباري الريح خوصاً عيونها لهن رزايا بالطريق ودائع(٣)

عليهن شُعث عامدون لحجهم فهن كأطراف الحنيِّ خواضع(٤)

لكلفتني ذنب امرئٍ وتركته كذي العُرِّ يكوي غيره وهو راتع(٥)

فإن كنتُ لاذو الضِّغن عني مكذب ولا حلفى على البراءة نافع(٦)

ولا أنا مأمون بشيء أقوله وأنت بأمر لا محالة واقع

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

خطاطيف حُجْنٌ فى حبال متينةٍ تمد بها أيد إليك نوازع(٧)

أتوعدُ عبداً لم يخنك أمانة ويترك عبد ظالم وهو ظالع(٨)

وأنت ربيعٌ يَنعَش الناسَ سَيبُه وسيف أعيرته المنيةُ قاطع

أبى الله إلا عدله ووفاءه فلا النكر معروف ولا العُرف ضائع

(١) الريبة : الشك ، ذو أمة : أي ذو دين .

(٢) لصاف وثبرة : موضعان ، والإلال : جبل عن يمين الإمام بعرفة ، وسيرهن التدافع : أي يدفع بعضها بعضاً لسرعتها ، أو أنها قد أعيت وأجهدها السير فهن يتحاملن في سيرهن .

(٣) السمام : الخفيف اللطيف السريع من كل شيء ، وخوصاً : غائرة العيون من الجهد ، ورذايا جمع رذية ، وهو المتروك المطروح من الإبل ، وودائع : تركت بالطريق .

(٤) شعث : ج أشعث وهو المغبر الشعر من طول السفر ، والحنى : القسى ، وخواضع : ج خاضعة أى متطامنة العنق .

(٥) العر بالفتح : الجرب ، وبالضم : قروح تخرج فى أصل العنق ، وقد مر شرح البيت .

(٦) من روى كنت بالضم رفع (ذو) على الابتداء ، ومكذب خبر عنه ، ومن رواه بالفتح نصب ذا على أنه مفعول مقدم لـكذب على صيغة الفاعل ، ونصب مكذبا على أنه خبر كان .

(٧) خطاطيف : جمع خطاف وهو الحديدة فى جانبى البكرة التى تدلى فى البئر عند إخراج الماء ، أو كل حديدة معوجة . وحجن : ج أحجن وحجناء أى معوجة . قال الأصمعى : كأنى فى خطاطيف أجربها إليك ، فخطاطيف مبتدأ لخبر محذوف تقديره لك .

(٨) ظالع : جائر عن الحق ، وهو المذكر والمؤنث بلفظ واحد (القاموس) .

وتُسقى إذا ما شئت غير مُصرَّدٍ بزوراء فى حافاتها المسكُ(١) كانع

. ففى هذه القصيدة القوية يحاول النابغة مرة أخرى أن يبرهن على براءته ، وأن يضرب على وتر جديد فى الاعتذار عله يستميل قلب النعمان ، فيرد إليه اعتباره . فقد جاءه وعيد أبى قابوس ، وهو فى مكان أمين ، وحصن ركين بين راكس والضواجع ومع هذا فقد أرقه هذا الوعيد ، وأقض مضجعه . فبات كأنما وثبت عليه حية قد كبرت سناً ، وازدادت شرة وضراوة ، وصار سمها ناقعاً لا يبرأ منه عليل ، فمن لدغته يجفو الكرى سهداً وألماً ، ويلبس حلى النساء حتى لا يغلبه النعاس فيسرى سمها فى بدنه فيشيع فيه التلف ، ويودى به إلى التهلكة ، وهى حية ضئيلة الجسم ، مشهورة بسعة حيلتها ، أو بضراوتها وقسوة لدغتها ، حتى تحاشاها الراقون الذين تخضع لهم الأفاعى والصلال ، وتراها تعاود هذا اللديغ ، فتارة يشتد به الألم ، وتارة يخف عنه ، وهو فى حيرة من أمره ؛ فهذا الألم الممض الذى يعانيه من ظفرت به هذه الحية هو ذات الألم الذى يحز فى فؤادى وينهش ضميرى ، ويلدغ نفسى ويوجعها . إن هذه الليالى النابغية قد ذاعت ، وهى ليال كان للضمير وتأنيبه فيها سطوة وقهر ، وهو الذى جعله نهباً للوساوس والمفازع . وليس الخوف من بطش النعمان ، فقد كان فى مأمن من أن تصل إليه يده ، وكان بين قومه ، أو بين ملوك أعزة هيهات أن يسلموه لعدوه وعدوهم إذ تأبى عليهم ذلك شهامتهم العربية ، ومنعة ملكهم ، وهم الذين طالما غزوا الحيرة وأوقعوا بملوكها الضر فى ميدان الوغى .

وبعد أن وصف النابغة ما يعانيه من ألم نفسى لاذع ، ولياليه المؤرقة ، أخذ يبرئ نفسه مما اتهم به فقال للنعمان : بلغنى أنك لمتنى ، وملامتك تلك هى التى أفرق منها وأجزع وأتمنى أن لو كنت أصم الأذنين حتى لا أسمعها لفظاعتها . ولقد قلت سوف أناله

---

(١) مصرد : التصريد الشرب دون الرى يقال : صرد شرابه إذا قلله ، وزوراء : إناء من قصب للشراب ، وكانع : من كنع المسك بالثوب لصق به .

بسوء مهما بالغ فى الحذر وأمعن فى الهرب ، وذلك فظيع مرعب من مثلك . وفى هذا تهويل من النابغة فى سطوة النعمان ، ومثل هذا التهويل يرضى كبرياءه ، ويشرح فؤاده

ومن ثم التفت النابغة إلى أعدائه الذين وشوا به ، وأفسدوا صدر النعمان عليه ، فأقسم بحياته ، وليست حياته هينة رخيصة عليه : أن هؤلاء الأقارع قد كذبو ومانوا ، وأتوا بالإفك والبهتان ، ويعنى أقارع عوف لايحاول هجاء سواها ، فلهم وجوه قرود كالحة كئيبة تطاب المشاتمة والمشاكسة . وقال للنعمان : لقد أتاك أمرؤ يكن البغضاء والموجدة لى ، قد أكل الحقد فؤاده ، واعتصر الحسد نفسه ، وزكاه عدو فى مثل حسده وحقده ؛ أتاك بفرية مختلقة ، ضعيفة واهنة ، كأنها الثوب المهلهل النسج لا يقوى على الاختبار ، وليته أتى بالحق الناصع ، وإنما أتى بالزور والباطل ؛ أتاك بقول أترفع عن أن أقوله ، ولم أكن لأقوله ، وأنا فى هذه السن ، وتلك المكانة ، ولو سجنت وغلت يداى بالأصفاد . لقد أقسمت لك ولم أدع موضع ريبة إلا فندته . وكيف يأثم من له دين مثلى طائعاً مختاراً فيحلف كذباً . أقسم بهذه الإبل التى تنقل الحاج إلى بيت الله الحرام تتدافع فى سيرها عدوا ، وتبارى الريح سرعة ، وقد غارت عيونها من التعب والجهد ونفق منها فى الطريق ما ضعفت منته وأهلكه الونى ، وبمن عليها من الرجال الذين قد اغبرت وجوههم ، وتشعثت شعورهم وذلك لطول سفرهم ، فأضحت هذه النوق كأنها الأقواس ضمورا وانحناء .

وإنى وهذا الواشى الذى تركته يتمتع بعطفك وحماك كالبعير الأجرب الذى يكوى سواه وهو راتع فى بحبوحة وأمن .

ثم انتقل النابغة إلى المجادلة وإظهار اليأس من النعمان بقوله : إن كنت لا تكذّب هذا الذى امتلأ قلبه ضغنا علىّ ، ولا تصدق يمينى التى أقسمتها على براءتى ، ولا يوثق بى فى أى شىء أقوله ، وأنت مصر على الإيقاع بى ، فكيف أصنع وقد ضاقت علىّ السبل ، وسلكت كل طريق لأرضيك فوجدته لا يصل إلى قلبك ؟ لقد صرتَ كالليل المفزع الرهيب الموحش الذى يطبق بظلمته ، ولا مفر ولا مهرب من وحشته ، فأنت منى بمثابة هذا الليل من المسافر سفرة طويلة ، لا يستطيع منه نجاةً ، ولا عنه

حولا . ولقد أتخيل أن المسافة شاسعة بيني وبينك ، ولكن غضبك عليّ يلاحقني في خلوتي ، ولن يهدأ لي ضمير حتى ترضى ، وكأنني أجذب إليك بخطاطيف حجن تشدها حبال متينة .

ومن ثمّ أخذ النابغة يتذلل ويخنع فقال : أتوعد عبدا أميناً لم يفرط في حق أؤتمن عليه ، وتترك هذا الظالم الجائر عن الصراط السوى ، وإذا لم يقنعك هذا المنطق فلك من سجاياك ما يجعلك ترضى ، فأنت ربيع للناس خصباً وحياءً ، ينعشهم ويحييهم فليكن عفوك حباءً وكرماً ، وإلا فأنت سيف من سيوف الموت لا يخطيء وهيهات منك النجاة ! إن الله يأبى إلا العدل والوفاء ، فكن عادلا معي ، وكن وفياً لتلك الأيام الحلوة التي اختلسناها من يد الزمان معاً ، وليس المنكرُ كالمعروف في الجزاء والحكم ، وليس العرف بضائع عند الله وعند الناس . ثم ختم القصيدة بالدعاء له بأن يهنأ في شرابه وأنسه ، وأن يظل في عزه وترفه ، فيسقى متى يشاء ، وكما يريد في آنية معطرة بالمسك .

ولو رحت أعدد الأبيات التي قالها النابغة في الإعتذار للنعمان لطال بي الأمر ، وحسبنا أن نقول : إن ليالي النابغة التي كان يشتكي فيها الهم ، ويتقلب على الجمر ، أو على الشوك ، أو يتلوى من السم ، قد صارت مثلا يضرب في الأدب العربي فقيل : ليلة نابغية كما بقيت بعض أبياته في الاعتذار تتألق في جبين الشعر العربي تألق الماسات الفريدة مثل قوله :

فإنك كالليل الذي هو مدركي . . . البيت .

وقوله : نبئت أنا أبو قابوس أوعدني ولا قرار على زأر من الأسد

وقوله : ولستَ بمستبق أخاً لا تلمه على شعث ، أي الرجال المهذب ؟

وقوله : بأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقوله : ولو كفي اليمين بغتك خوناً لأفردت اليمين عن الشمال

إلى غير ذلك من الأبيات المشهورة ، والنابغه فى اعتذارياته يتعرض لمدح النعمان ابن المنذر ، ويثنى على جوده ، وأريحيته ، وقد يفهم من هذا أن الرغبة الملحة فى نيل عطاياه هي التى ألهبت شاعريته ، وليس وخز الضمير ، والخوف على السمعة والكرامة أن تظل مشوبة بالتهم ، وليس الوفاء للماضى وما فيه من صداقة ومحبة هو الذى دفعه إلى هذا الاعتذار ، والحق أن النابغة قد صرح بأنه لم يمدح النعمان بالكرم إلا ليقرر الواقع ، لا ليطالب منه شيئاً ، وقد مرت بنا فى أول هذه الفقرة الأبيات التى يعتز فيها بكرمه وأنه يهب المال فى الجدب وعند الغنيمة كما يهب النعمان ، وهاك بيتاً يعد نصاً صريحاً فى هذا الموضوع :

هذا الثناءُ فإن تَسْمع به حسناً فلم أُعرِّض أبيت اللعن بالصَّفَدِ

والصفد العطاء ، فهو لم يمدحه فى اعتذارياته متعرضاً لعطائه ، فان ذلك يضعف حجته ويظهره أمام النعمان بمظهر الجشع الحريص على المال . وهيهات أن يعود إلى سابق منزلته لدى النعمان وهذه نظرته إليه . ولكن لا أبرئ النابغة من أن محبة المال والرغبة فى العطاء كانت من الدوافع الملحة التى جعلته يكثر من الاعتذار ويثنى على كرم النعمان .

— ٢ —

الوصف :

ومن الفنون الشعرية التى حلق فيها النابغة الوصف ، وهو ككل الشعراء الفحول الذين أنجبتهم الصحراء [1] قد وهب الملاحظة الدقيقة ، وأُغرم بالطبيعة المحيطة به ووصف كثيراً من مناظرها الخلابه ، ولكنه امتاز عن سواه فى الوصف بأمور منها : —

١ — ترى النابغة يعطيك صورة كاملة فى بيت واحد ، مع دقة تامة ، وبلاغة تصوير ، وسهولة لفظ ، وعذوبة أسلوب ، فمن ذلك قوله يصف نفسه وقد وفد على عمرو بن الحارث الغسانى :

[1] راجع ص ٢١ ، ٢٢ من هذا الكتاب

أتيتكُ عاريا خَلَقا ثيابى على خوفٍ تظن بى الظنونُ

فهذه صورة شريد خَلق الثياب ، بل عارى الجسد ، يمشى مشية الخائف ، مروَّع العين ، منزعج الضمير ، يفرق من الفىء ، ويفزع من لا شىء ، له هيئة زرية ، وسحنة كئيبة ، تدعو إلى الظِّنَّةِ والريبة .

ومن ذلك قوله فى وصف المتجردة :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليـــد

وليس ثمـة أبدع من تصوير الحركة فى مثل هذا الإيجاز الرائع ، حتى كأن هذا البيت تمثال افتنت فى خلقه يدُ صناع ، فهو ينبض بالحياة ، بل إن المثال الحاذق ليعجز عن تصوير ما أراده النابغة بقوله : « ولم ترد إسقاطه »

ومن ذلك قوله :

وبيضٍ غريراتٍ تفيض دموعُها بمُستكـرَهٍ يُذْرينه بالأنامل

ففيه تصوير شائق لهؤلاء النسوة الحسان الغريرات الباكيات ، التى تسح عيونهن دمعاً يسقطنه بأناملهن ، وتصوير الحركة هنا رائع على أيجازه .

ومن ذلك قوله يصف الطيور الجارحة وقد جلست ترقب المعركة خلف الجيش تنتظر القتلى وكأنها الشيوخ المتدثرون بفراء الأرانب :

تراهن خلف القوم خُزْرا عيونها جلوسَ الشيوخ فى ثياب المرانب

ومن ذلك قوله يصف بقر الوحش ، وقد ضرب بقرنه كلباً من كلاب الصيد ، فأنفذ قرنه من كتفه ، وصار روقُه وقد تعلق به الكلب كأنه سفود شَرْب ، وقد نسيه الندامى ، بعد أن لعبت بلبهم الراح أمام النار التى أوقدوها للشواء :

شكَّ الفريصةَ بالمِدْرى فأنفذه طَعْنَ المبيطرِ إذ يشفى من العضدِ[1]

---

(١) الفريصة : بضعة فى مرجع الكتف ، وقيل من مرجع الكتف إلى الخاصرة ، والمبيطر : البيطار ، والعضد : داء يأخذ فى العضد .

كأنه خارجاً من جنب صفحته سَفُّودُ شَرْب نَسُوه عند مُفْتأدِ(١)

فأى تصوير دقيق هذا ؟ ، وأى صورة تامة كاملة لا تحتاج إلى مزيد إيضاح ؟ قد يصور الرسّام الماهر الثور وقد نفذ قرنه فى صفحة الكلب ، فظل معلقاً به وهى صور مليحة ، ولكن الشاعر فى ألفاظ قليلة أتى لك بهذه الصورة ، وبصورة أخرى تزيدها توضيحاً فى هذا التشبيه الرائع ، وهى صورة السفود عليه اللحم ، وقد نسيه الندامى عند النار بعد أن ثملوا ، وهيهات أن يصل المصور إلى مثل هذا !

واستمع إليه كذلك يقول فى هذا البيت يصف الكلب ، وقد اشتد به الألم وهو معلق بأعلى الروّق ، فانقبض وتجمع وأخذ يعض القرن الأسود الصلب الذى لا عوج فيه عضّ المتألم اليائس الجريح .

فظلّ يعجُم أعلى الروّق منقبضاً فى حالك اللون صَدْقٍ غير ذى أوَد(٢)

ومن هذا النوع من الوصف الذى اشتهر به النابغة قوله يصف الخيل فى سرعة عدوها بالطير التى تجد فى رواحها نجاة من الشؤبوب البارد .

والخيل تمزعُ غرباً فى أعنتها كالطير تنجو من الشؤبوب ذى البرَد

وهذا من أجمل ما قيل فى وصف سرعة الخيل ، فهى (تمزع) أى تمر مراً سريعاً (وتمزع غرباً) أى تمر مراً سريعاً فى حدة وعنف ، كأنها الطير — والطير سريعة فى اجتياز المسافات — ثم إنها طير تطلب النجاة من الشؤبوب ذى البرد ، والشؤبوب الدفعة القوية من المطر ، فيزيد ذلك فى حدة طيرانها ، وسرعة نجاتها .

٢ — ومن مميزات وصفه توضيح المشبه به ، والاستطراد فى وصفه حتى يبرز بروزاً كاملاً لا مزيد عليه ، وذلك توضيح ضمنى للمشبه واستيفاء للمعنى ، ودلالة على شرود الخيال ، وسعته ، وهو فى هذا يجرى على طريقة العرب فى العناية بالتفصيل

---

(١) الصفحة : الجانب ، والسفود : الحديدة التى يعلق فيها اللحم للشواء ، والشرب : جماعة الشاربين والمفتأد : موضع النار الذى يشوى فيه ، فأدت وافتأدت إذا شويت ، وخارجاً : حال

(٢) الروق : القرن . منقبضاً : من الألم ، حالك اللون : أسود ، صدق : صلب ، وغير ذى أود : أى مستقيم .

والجزئيات ، والنفاذ إلى صميم المعنى ، وتقليبه على شتى وجوهه[1] . فمن ذلك قوله يمدح النعمان بن المنذر :

فما الفرات إذا جاشت غواربه ترمى أواذيُّه العِبْرين بالزَّبَد[2]
يمدّه كل وادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ فيه رِكام من اليَنْبوت والخَضَدِ[3]
يَظلّ من خوفه الملاحُ معتصما بالخيزرانة بعدَ الأَيْنِ والنجد[4]
يوماً بأجودَ منه سيبَ نافلةٍ ولا يحولُ عطاءُ اليوم دون غد

فهو فى هذه الأبيات يريد أن يصف الممدوح بأنه يعطى عن سعة ، وأن الفرات فى عنفوانه ، وشدة فيضانه ، إذا جاشت أمواجه ، واضطربت أواذيه ، وفاضت على العبرين زبدا ، وقد أمدته روافده المترعة اللجبة المتدفقة بالماء العزير ، حتى لترى فيه ركام الينبوت والخضد ، وحتى ليخاف الملاح فيعتصم بخيزرانته ، كيلا يطوح الموج بسفينته ويرديها . وقد بلغ منه الجهد مبلغاً عظيما ، فتراه يتفصد عرقاً ، ويتضعضع كلالا وأينا من كثرة ما يعانيه فى المحافظة على نجاته ، ونجاة سفينته من هذه الأمواج المتلاطمة .

ليس الفرات ، حينذاك ، والأرض تنتظر سيبه ، وتترقب فيضانه تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، بأجود من النعمان عطاء ، وإذا كان الفرات يفيض فى العام مرة ، فإن عطاء النعمان اليوم لا يحول دون عطائه غداً فهو أجود من الفرات . فهذا الاستطراد فى وصف المشبه به ، وتصويره تصويراً دقيقاً تاماً ، توضيح كامل للمشبه وهو من ميزات النابغة التى برع فيها .

وهاك مثلا آخر أشد روعة ، وأبهى تصويراً وأدق تفصيلا من المثل السابق ،

---

(١) راجع ص ٥٣ ، ٥٤ من هذا الكتاب .

(٢) جاشت : اضطربت ، وغواربه : أعاليه من الماء والأمواج ، وأواذيه : جمع آذى وهو الموج ، والعبران : الشطان (٣) لجب : ذى صوت ، والركام : المتكاثف ، والينبوت : شجر الخشخاش أو شجر الخروب ، والخضد : ما تكسر وتخضد من أى نبات .

(٤) الخيزرانة : قصبة تنثنى ، والأين : التعب والكلال ، والنجد : العرق من الكرب .

وذلك حين يصف ناقته بثور وحشى ثم تناسى الناقة ، وأمعن فى تصوير هذا الثور الوحشى حتى أعطى منه صورة زاهية الألوان ، واضحة القسمات ، جلية الغاية ، ثم أرجع الوصف إلى ناقته ، حيث يقول :

وَمَهمهٍ نازحٍ تعوى الذئاب به ... نائى الميــــاه عن الوراد مِقْـفار(١)

جاوزته بَعَلْنداةٍ مذكرةٍ ... وَعْرَ الطريق على الأحزان مضمار(٢)

كأنما الرَّحلُ منها فوق ذى جُدَدٍ ... ذَبٌّ الرِّيادِ إلى الأشباح نـظّار(٣)

مُـطَرَّدٍ أُفردتْ عنـه حلائلُه ... من وَحش وَجْرَةَ أومن وحش ذى قار(٤)

سَراته ما خلا لبّاته لهقٌ ... وفى القوائم مثلُ الوَشْم بالقار(٥)

وبات ضيفاً لأرطاةٍ والجأه ... مع الظلام إليهـا وابلٌ سـار(٦)

حتى إذا ما انجلتْ ظلماء ليلته ... وأسفر الصبحُ عنه أىَّ إسفار

أهوى لها قانصٌ يسعى بأكلُبِه ... عارى الأشاجيع من قُنّاص أنمار(٧)

محالفُ الصيدِ تباعُ له ، لَحِمٌ ... ما إن عليـه ثيابٌ غيرُ أطمار(٨)

يسعى بِغُضْـفٍ براها وهى طاويةٌ ... طولُ ارتحالٍ لها منـه وتسْيار(٩)

---

(١) المهمه : المفازة البعيدة ، ومقفار : صيغة مبالغة من القفر وهو الإمحال ، والوراد الذين يردون الماء

(٢) علنداة : ناقة غليظة قوية ، مذكرة : قاطعة ، ووعر منصوبة بمذكرة ، ومضمار : تدرك الغاية والأحزان : جمع حزن ، وهو الأرض الصلبة الجاسية .

(٣) جدد : ج جدة بضم الجيم أى العلامة ؟ وذب الرياد : الذب الذى تختلف الأماكن التى يغشاها فلا يستقيم فى مكان حذراً وخشية ، والرياد والرود والارتياد : الطلب .

(٤) وجرة . موضع بين مكة والبصرة أربعين ميلا ما فيها منزل فهى مرت للوحش — القاموس — وذو قار : بين الكوفة وواسط .

(٥) سراته : الجزء الأعلى من جسمه ؟ ولباته : جم لبة وهى موضع القلادة من الصدر، ولهق أبيض

(٦) الأرطاة شجر: لها ثمر كالعناب مر تأكله الإبل .

(٧) الأشاجع : أشجع كأحمد وأصبع وهى أصول الأصابع التى تتصل بعصب ظاهر الكف ، وأنمار ابن نذار أخو مضر الحمراء ، فهذا الصائد من أنمار ، أو أنمار جمع نمر وهو الوحش المعروف .

(٨) لحم : يحب اللحم ويشتهيه ، والأطمار : الثياب الخلق .

(٩) غضف : جمع أغضف وغضفاء كلاب مسترخية الآذان مشهورة بالصيد . براها : أنحفها ، وطاوية : جائعة .

حتى إذا الثورُ بعد النَّفْرِ أمكنه أشلى ، وأرسل غُضْفاً كلُّها ضار(١)
فكَرَّ محْميةً من أنْ يَفرَّ كما كَرَّ المحامى حفاظاً خشيةَ العار
فشكَّ بالرَّوق منها صدر أولها شك المشاعِب أعشاراً بأعشار(٢)
ثم انثنى يَعدُ الثانى فأقصده بذات ثغر بعيد القَعرِ نعّار(٣)
وأثبت الثالثَ الباقى بنـافذة من باسل عالم بالطعن كرار(٤)
وظل فى سبعة منها لحقْنَ به يَكرُ بالرَّوْق فيها كر أُسوار(٥)
حتى إذا ما قضى منها لُبانَتَه وعاد فيها بإقبال وإدبار(٦)
انقضّ كالكوكب الدُّرى منصلتاً يَهوِى ويَخلِطُ تقريباً بإحضار(٧)
فذاك شبهُ قلوصى إذ أضر بها طولُ السُّرى وهجير بعد إبكار(٨)

كم من صورة جميلة لمنظر صيد زينت بها جُدرُ القصور العريقة فى بلاد الغرب ، ووقفت الأبصار أمامها دهشة ، والألباب معجبة مفتونة ، وإذا رحت توازن بين هذه الصورة الجامدة ، وبين تلك الصورة التى تنبض بالحياة ، وتفيض بالحركة ، وتتعدد فيها المناظر الخلابة ، وتتنوع المشاهد الفتانة ، لوجدت البون شاسعاً ، وهيهات أن يستطيع رسام مهما بلغ من الحذق والقدرة الخالقة أن يجمع فى صورة واحدة كل هذه المناظر :

---

(١) النفر : الابتعاد والسرعة ، وأشلى : أغرى وأصله أن تغرى الدابة بالمخلاة لتأتى إليك ، وضار : متعود الافتراس .

(٢) المشاعب : جمع مشعب وهو المثقب ، وأعشاراً بأعشار أى قطعاً قطعاً يقال : قلب أعشار ، وقدر أعشار أى مكسرة على عشر قطع ، والروق : القرن .

(٣) أقصده : أصابه ، ونعار : يتفجر منه الدم من نعر كمنع وضرب .

(٤) الباسل : العابس الوجه غضبا أو شجاعة .

(٥) أسوار بضم الهمزة وكسرها : قائد الفرس ، أو الجيد الرمى بالسهام ويجمع على أسورة وأساور

(٦) لبانته : غرضه وغايته .

(٧) التقريب : ضرب من العدو أو أن يرفع يديه معاً ويضعهما معاً ، والإحضار . ارتفاع الفرس فى عدوه

(٨) القلوص : الناقة .

تخيل مفازة شاسعة ، يرتد فيها البصر وهو حسير ، جرداء مجدبة لا ترى فيها نبتة ، ولا تسمع فيها إلا عواء الذئاب الضارية ، ولا تلمح أثراً للماء عماد الحياة فى مثل تلك المهامه الفيح ؛ وتخيل النابغة يجتاز هذه المفازة بناقة غليظة قوية الأيد ، صبور على قطع الطرق الوعرة ، قادرة على احتمال الشدائد حتى تصل إلى غايتها ، لقد ذكرته بصلابة عودها ، وسرعة إرقالها بثور الوحش ، بل كأن الرحل الذى علاها فوق ثور وحشى ذى جُدَد ، كثير الحركة ، يختلف إلى مرابع شتى حذراً وخوفاً ، مروّع الفؤاد ، حائر الطرف يظن بكل شبح سوءاً ؛ وهو ثور أبيض ما عدا صدره ، وقوائمه ، فهى سوداء كأنها مطلية بالقار ، وقد فاجأه المطر الشديد حين آذنت الشمس بالمغيب وأطبق الظلام فلجأ إلى أرطاة ، ونزل بها ضيفاً يقضى ليلته الممطرة تلك حتى ينقشع الديجور وما كادت الظلمة تنجاب ، ويسفر الصبح ، وتتجلى معالم الكون حتى رأى قانصاً من قناص أنمار ينحدر إليه مع أكلبه .

وهذا القناص معروق اليد ؛ خفيف اللحم ، رمزَ النشاط وسرعة الحركة ، وهو مغرم بالصيد ، ملح فى اقتفاء أثر الفريسة ، محب للحم أكول له ، ليس عليه إلا ثياب خلق وأسمال بالية .

ووراءه كلاب صيد ، مسترخية الآذان ، قد أهزلها — وهى سغبة طاوية — طول ارتحاله ، وكثرة تسياره وتجواله ، فهى تتلمظ للفريسة ؛ وتشتهى أن تلغ فى دمها ، وتنهش لحمها ، وتعرقُ عظمها ، وهيهات إذا لحتها أن تفلت منها .

وقد فطن الثور لما يراد به من شر ، ففر يروم النجاة ، ولكن الصياد حاصره وسد أمامه السبل حتى تمكن منه ، ثم أغرى به كلابه النهمة الجائعة ، وأرسل هذه الغضف المدربة الضارية صوبه .

وهنا ابتدأت الملحمة فى سبيل الحياة بين هذا الثور الشديد المنة ، وهذه الكلاب السغبة ، لقد رأى الثور أن لا سبيل إلى النجاة ، ولا وسيلة أمامه إلا الكفاح والنضال فكر على هذه الكلاب حمّية ، كما يكر المدافع عن نسوة الحى ، وقد روعته الغارة ،

حفاظاً على الشرف ، وخشية العار ، فهو يستبسل فى الذود عن الحريم ، وتدفعه إلى خوض المعركة معانٍ سامية ، وحرص على الحياة الكريمة الحرة .

فشك بقرنه صدر أولها ، وطعنه طعنات نافذة فى صدره كأن قرنه مثقب حاد ، حتى تقسم قلبه أعشاراً ، ثم التفت للثانى يهدده ، فلم يرتدع ، فأصماه بطعنة ذات ثغر ، بعيدة الغور ، ينبجس منها الدم ويتدفق ، وألصق الثالث بالأرض على أثر طعنة أخرى نافذة ، صوبها إليه مقاتل عبوس الوجه غضباً وحمية ، عالم بالطعن مفتن فى طرقه ووسائله

أما السبعة الباقية التى لحقت به ، فقد ظل يكر عليها بروقه الحاد الصلب ، كر القائد الفارسى ذى الحنكة والشجاعة ، ومن يجيد الرمى بالسهام فلا تخيب له رمية ، فلما قضى منها لبانته ، وأنهكها تعباً ، وأخذ يقبل بينها ويدبر ، ويوجه إليها الضربات المردية ، وأعجزها عن أن تلحق به ، انقض يعدو كأنه الكوكب الدرى يهوى من عليا السماء أو السيف القاطع فى يد فارس قوى شجاع يهوى به على الأعداء ، وراح ينزع غرباً ، وينوع فى عدوه فتارة يثب وثباً ، وتارة يحضر إحضاراً ، حتى نجا من خطر داهم ، وعدو ظالم ، منهوكَ القوى ، قد بلغ منه الأين والكلال والجهد مبلغه .

أرأيت تلك الناقة الغليظة القوية التى ابتدأت الرحلة ، وهى أشد ما تكون أيداً وأصلب ما ترى عوداً ، لقد أنهكها التعب وطول السرى ، وسير الهاجرة والحر اللافح وتذليل الحزون ، واجتياز الفيافى ، فكأنها خاضت مع هذه البيد معركة صبرت فيها على الجهد والعطش والسير الطويل ، والأرض الجاسية ، وانتصرت عليها ، وإن خرجت مجهدة نصبة ، كما خاض هذا الثور معركة الحياة مع هذه الكلاب الضارية ، وأحرز الفلج وإن خرج من المعركة نَصِبا .

فأى روعة ! وأى تصوير ! إن كل جزء من هذه الصورة قد بلغ من الدقة والإتقان الغاية ، وتجلت قدرة الشاعر وفنه وبراعته فى ذلك التصوير المتقن بأوجز لفظ ، وأقصر عبارة ، ولكن اختيار الكلمات التى يلون بها الصورة ، ويرسم القسمات الواضحة فن لا يستطيعه إلا الموهوبون .

ثم هذه المشاهد المختلفة الرائعة : الصحراء والناقة ، والثور الوحشى بلونه وقوته والجو المحيط به ، والصياد وسماته ، والكلاب ومعالمها ، والملحمة ومشاهدها إنها كلها زاهية فتانة خليقة بأن نباهى بها أرقى الآداب العالمية ، وأعلاها صيتاً ، وأسماها مجداً دون ادعاء أو تجن .

٣ — ومن مميزات النابغة فى الوصف تقليب المعنى الواحد فى صور مختلفة ، إمعاناً فى الإيضاح وزيادة فى استيفاء المعنى واستقصاء كل دقائقه ؛ فمن ذلك قوله يصف الجبل الذى لجأ إليه حين فرّ من النعمان بن المنذر :

وَحلّتْ بيوتى فى يَفاعٍ مُمَنَّعٍ ... يُخَالُ به راعى الحمولة طائراً[1]
تَزِلُّ الوعولُ العُصْمُ عن قُذُفاته ... ويُضْحِى ذراه بالسحاب كوافرا[2]

إن بيوته فى جبل عالٍ مشرف على الأرض ، وعر المسالك والشّعاب . ولو اكتفى النابغة بهذا لأدرك الناس مايريد ، ولكنه يبرز علو هذا الجبل فى صور ثلاث : فهو لعلوه يخال به راعى الإبل كأنه طائر لصغر حجمه وشموخ هذا الجبل . وهو لعلوه ووعورة شعابه تزل الوعول العصم عن قذفاته ، وهو لعلوه يفوق السحب وينفذ منها فترى قنته مغطاة بها .

وهاك مثلا آخر لتعداد صور المشبه به ، وقد ورد فى وصفه المتجردة نموذجان من هذه الميزة التى تدل على دقة وسعة خيال ، وقوة تصرف :

فى إثر غانية رمتك بسهمها ... فأصاب قلبك غير أن لم تُقصِد[1]
بالدُّر والياقوت زُيِّن نحرُها ... ومفصَّلٍ من لؤلؤ وزبرجد[2]

---

(١) الغانية : التى استغنت بجمالها عن الزينة ، وسهمها : نظراتها ، وتقصد : تردي وتقتل أو تقصد بفتح التاء أى عن غير عمد .

(٢) مفصل : حبة من لؤلؤ وحبة من زبرجد .

صفراءُ كالسِّيَراءِ أُكْمِلَ خلقُها | كالغصن فى غُلوائه المتأوِّدِ(١)
مخطوطة المتنين غيرُ مُفاضةٍ | ريّا الروادِفِ بَضةُ المتجردِ(٢)
قامت تراءى بين سَجْفَىْ كِلَّةٍ | كالشمس يوم طلوعها بالأسْعُدِ(٣)
أو درة صدفيّة غواصُها | بَهِجٌ متى يرَها يُهِلّ ويَسجُدِ
أو دُمية من مَرْمَرٍ مرفوعةٍ | بُنيت بآجر يشاد بقَرْمَدِ(٤)
سقط النّصيفُ ولم تُرِدْ إسقاطه | فتناولته واتقتنا باليد
بمخضّبٍ رَخصٍ كأن بنانه | عَنَمٌ على أغصانه لم يُعْقَدِ(٥)
نظرت إليكَ بحاجة لم تقضها | نظرَ السقيم إلى وجوه العُوَّدِ
تجلو بقادِمَتَىْ حمامة أيْكةٍ | بَرَداً أُسِفّ لِثاتُه بالأثمدِ(٦)
كالأقحوان غداة غِبَّ سمائه | جفّت أعاليه وأسفله ندِ(٧)
لو أنها عَرَضتْ لأشمط راهبٍ | عبد الإله صرورة المتعبِّدِ(٨)
لرنا لرؤيتها وحسن حديثها | ولخاله رَشَداً وإن لم يرْشُدِ

(١) السيراء : ثوب من حرير فيه خطوط ، وغلواء الغصن : امتداد طوله ، والمتأود : الذى يتثنى من اللين والنعمة .

(٢) مخطوطة المتنين : متناها أملسان مكتنزان ، والمفاضة : الواسعة : البطن الممتلئة باللحم والشحم ، والريا : الممتلئة ، والبضة : الرخصة الرطبة .

(٣) السجف : الستر الرقيق المشقوق الوسط ، والكلة : غشاء رقيق يتقى به البعوض ، والأسعد : برج الحمل .

(٤) الدمية : التمثال والصورة ، والمرمر : الرخام الأبيض والأحمر الناعم ، يشاد : يطلى بالشيد وهو الجص ، والآجر : الطوب الأحمر ، والقرمد : الخزف المطبوخ .

(٥) العنم : ثمر دقيق مستطيل أحمر يشبه أطراف الأصابع ، ولم يعقد : لم يجف .

(٦) القوادم : الريش المقدم فى جناح الطائر ، والأراكة : شجرة تتخذ منها المساويك ، أسف : خلط ، والأثمد : شجر يكتحل به .

(٧) الأقحوان : نور أبيض .

(٨) صرورة المتعبد : لم يتزوج قط .

واست فى حاجة إلى تبيان ما اشتملت عليه هذه القصيدة من وصف جميل شائق لهذه الغانية الفتانة المترفة ، وحسبي فى هذا المقام أن أوضح النموذجين اللذين أشرت إليهما آنفاً للدلالة على تعداد صور المشبه به .

فالنموذج الأول : حين قامت المتجردة تتراءى بين سجفى الكلة ، كأنها الشمس يوم طلوعها بالأسعد ، وهى فى ذاك الوقت أجمل ما تكون ؛ إذ تظهر بين هنات شفافة من السحاب فتبدو محاسنها على أتم صورة ، كما بدت المتجردة بوجهها المشرق الصبوح بين سجفى الستر ، أو كأنها درة تتألق حسناً بين صدفتين ، أو دمية من مرمر أبيض ناعم بنيت بآجر وطليت بالقرمد بدل الشيد وهو الجص .

والنموذج الثانى : وصف ثناياها البيض اللامعة ، ولثاتها الحمراء الداكنة ، كأنها البرد ، وكأن لثاتها أسفت بالإثمد ، أو كأنها الأقحوانة صبيحة أمسية مطيرة ، فهى فى أنضر وأنق حالاتها ، جفت أعاليها ولا يزال أسفلها يترقرق عليه الندى فهو يلمع ويبرق ، فاللثات كأعالى الأقحوان ، والأسنان كأسافله الندية ، وهو المعنى الذى أتى به طرفة فى قوله :

وتبسم عن ألمى كأن منوراً　　　تخلل حُرّ الرّمل دعصٌ له ند[1]

٤ — ومما امتاز به النابغة فى الوصف تأثره بالحضارة ومظاهرها ، ولا بدع فقد تقلب فى أعطاف النعمة زماناً ، وجالس الملوك ، واقتنى التحف الغالية ، وأكل فى صحاف الذهب والفضة ، وقد ظهر هذا الأثر فى أمرين :

(١) فى التشبيهات الحضرية ، ووصف مظاهر الغنى والترف ، وفى قصيدة المتجردة التى مرت بنا كثير من هذه التشبيهات الحضرية ، من مثل قوله : « صفراء كالسيراء » فتلك الثياب الحريرية ليست من لباس أهل البادية ، وقوله :

---

(١) الألمى : الأسمر اللثة وهم يمدحون سمرة اللثة لتظهر بياض الأسنان ، والمنور : الأقحوان ، والدعص : الـكثيب ، وتقدير البيت : وتبسم عن ثغر ألمى كأنه الأقحوان تخلل حر الرمل له دعص ندي .

بالدر والياقوت زين نحرها ومفصل من لؤلؤ وزبرجد

وأنى لفتاة البادية مهما أوتيت من ثروة أن تتحلى بالدر والياقوت ، وبعقد فصلت حباته من لؤلؤ وزبرجد ، وهذه الزينة لا تتأتى إلا لنساء الملوك.

وكقوله : « قامت تراءى بين سجفى كلة » ، والكلة لا تستعمل إلا عند المترفين ، الذين رقت جلودهم ، لا عند أهل البادية أبناء الطبيعة ، الذين يعنون بضرورات الحياة وكقوله :

أو دمية من مرمر مرفوعة بنيت بآجر يشاد بقرمد

وليست دمى النساء المصنوعة من المرمر الناعم الأبيض المبلية بالآجر ، والمطلية بالخزف المطبوخ مما يعرف أهل البادية ، أو يستطيعون له صنعاً ، وإنما هذه صناعة الروم وأهل فارس ممن بلغوا شأواً غير قليل فى الحضارة ، ولا سيما ومعابد الروم من قديم تحوى مثل هذه الدمى والتماثيل ، وكقوله :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

تحييهم بيض الولائد بينهم وأكسية الإضريج فوق المشاجب

والإضريج الخز الأحمر ، والمشاجب من علامة الترف ، وسمات الحضر ، ورقة النعل كناية عن الرفاهية ، وقلة المشى نعمة وترفا :

على أن النابغة — والحق يقال — قد استمد معظم تشبيهاته وموصوفاته من البادية والطبيعة التى درج بين أحضانها طفلا ، وأثر الحضارة فى شعره لا يعدو أبياتاً متفرقة ، ولكنها تنم عن مشاهدته لهذه المظاهر وتشبع مخيلته بها حتى أجاد وصفها .

(٢) والأمر الثانى هو ذلك الأسلوب القصصى الذى ظهر فى بعض قصائده ، وقد مر بنا مثلان على هذا : مثل قصة ذات الصفا[1]، ومثل المعركة بين الثور الوحشى وكلاب الصيد ، على أن هذا الضرب من الشعر قليل لدى النابغة ، ومعظم قصائده

(١) راجع ص ١٣٠ من هذا الكتاب .

بنيت على طريقة أهل البادية فى نظمهم [١] ، وما كان للنابغة أن يشذ وهو ربيب الصحراء .

أما موضوعات وصفه فهى لا تعدو ما يراه فى البادية من حيوان ، أو نبات ، أو سحب مُلِثَّة هاطلة ، أو رياح زفوف عاتية ، أو جبال باذخة صعبة المرتقى ، أو معركة حامية الوطيس ، مستعرة الأوار ، أو دِمْنة عفت رسومها ... إلى غير ذلك مما تثيره الصحراء فى نفسه وتهيج شاعريته ، على أنه قد تعرض لوصف بعض مظاهر الحضارة كما مرّ بنا ، فوصف الغساسنة فى أعيادهم [٢] والمناذرة فى قصورهم [٣] وقد مرت بنا أمثلة على كل ما ذكرنا ، فلا داعى لتكرارها .

— ٣ —

المديح :

والنابغة لم يمدح سوى الملوك إلا النعمان بن الجُلاح [٤] للمنة التى أسداها إليه ، وقد اعتذر لمدحه إياه بقوله :

وكنتُ امرءاً لاأمدح الدهرَ سوقةً فلستُ على خير أتاك بحاسد

وإلا هَوْذَة بن أبى عمرو العُذْرى ، وكان يقال له : رب الحجاز ، وأمه بنت الحارث بن ميّاد بن حُن بن ربيعة بن حَرام بن ضَبة بن عبد كبير بن عُذرة ، وذلك حين يقول فيه : [٥]

ويلُ امِّ خُلَّةِ ماجد آخيتُه كان ابنُ أشْفَةَ غيرَ قيل الباطل
كان ابن أشفة طيباً أثوابه عفًّا شمائله غزير النائل

---

(١) راجع ص ٥٢ و ٥٣ من هذا الكتاب .
(٢) راجع ص ١٤٣ من هذا الكتاب (٣) انظر وصف المتجردة ص ١٨١
(٤) راجع ص ١٢٦ ، ١٢٧ من هذا الكتاب .
(٥) وردت هذه الأبيات فى مخطوطة ساوة ص ٤٨

يهب الجيادَ بسرجها ولجامها والعَنْس تخطِرُ باليَمان الكامل

أثنى على ذى آل عُذْرة إنه قد كان قِدْماً قبلَ قِيل القائل

ولم يكن الشعراء قبل النابغة يتكسبون بشعرهم ، وبذلك كان أول من خرج على تقاليد الشعر الجاهلى فى المديح ؛ إذ لم يعد شاعر القبيلة الذى يفتخر بها ، ويمجدها دون سواها ، ويجعل شعره وقفاً عليها ، كما كان شعراء العصر الجاهلى قبله يفعلون . ولقد مدح زهير بن أبى سُلمى وجوزى على مديحه ، ولكنه يختلف عن النابغة اختلافا بينا فى الغاية من المديح ؛ إذ لم يكن هدف زهير المال ، وإنما الإشادة بفضل من حقن الدماء ، ورد السيوف إلى أغمادها ، ونشر السلام بين قومه ، واحتمل من حُرِّ ماله ما عليهم من ديات ، وهى مكارم هاجت شاعريته ، وألهجت لسانه بالثناء على من قدم هذا الصنيع الجميل .

أما النابغة فقد تكون البواعث التى دفعته إلى المديح أول الأمر دوافع نبيلة ، ولذلك تردد طويلا فى مدح النعمان بن المنذر أيام أن كان معه قبل الجفوة ، ومدح الغساسنة ، لأنه وجدهم ملاذاً يعوز به إبان المحنة ، ورآهم يكرمون قومه من أجله ، ولكنه بعد أن ذاق حلاوة العطاء ، ولذة الغنى ، لم يستطع سلو الحباء ، فكانت الرغبة العارمة فى نيله هى التى تحرك لهاته ، وتطلق لسانه فى بعض الأحيان ، وإن ترفع عن مديح غير الملوك ، بيد أن هذا السبيل الذى سلكه جعله إمام الشعراء المتكسبين جميعاً ، واقتفى الأعشى أثره ، ولم يفرق بين الملوك والسوقة والصعاليك ، ومدح كل من أغدق عليه قليلا أو كثيراً .

والسنة التى سنها النابغة أضرت الشعر العربى ، وأفادته ، أضرته ؛ لأنها جعلت الشعر العربى بعده ينزلق فى مهواة المديح ، والتملق ، والنفاق ، ولأنها عاقت الشعراء عن أن يفتنوا فنوناً جديدة فى الشعر ، فيدرسوا المجتمع ، ويلتفتوا إلى الشعب ، بل انصرفوا بكل عبقريتهم نحو الملوك ، يمشون فى ركابهم ويثنون على كل حقير مهين من أفعالهم .

وندر أن يهيج شاعريتهم منظر فيصفوه ، وإنما جاءت أوصافهم عرضاً فى ثنايا القصائد مع أغراض أخرى ، حتى الطَّـردَ لم يقولوا فيه فى العصر العباسى وما تلاه إلا لأن الملوك والأمراء ، ومن يهبون بِدر المال مارسوه .

وأفادته لأنها جعلت الشعراء يفتنون فى توليد المعانى ، ويحاولون جهدهم إرضاء للممدوح بوصفه بكل مكرمة فمجدوا الصفات الحميدة ، وشجعوا الأغنياء على الأعمال السامية .

ولولا خلال سنَّها الشعر مادرى بناة العلا من أين تؤتى المكارم

فكانوا بذلك يضعون مثلا عليا للأغنياء وذوى المكانة ، ويوجهونهم صوب الخير . وأفادته لأن الشعراء وجدوا فى أحضان الملوك ما يغنيهم عن السعى فى طلب العيش واحتراف المهن الوضيعة ، وقد تقبر ملكاتهم ، ويشغلون بتكاليف الحياة ، ورعاية الولد ، وسد الخلّة عن قول الشعر . ولكن الضرر كان أكثر من النفع ؛ لأن الشعر العربى لون بلون مادى رخيص ، يحاول اليوم أن يتحرر من ربقته ، ويسمو عن التزلف والرياء والكذب . ويعبر تعبيراً صادقاً عن أحاسيس الشاعر ، وما يتجاوب فى فؤاده من عواطف وانفعالات ، بعيداً عن شهوة الحِباء ، ولذة العطاء .

ثم إن النابغة حاد كذلك عن طريق شعراء الجاهلية فى مديحه ؛ لأن الرغبة فى إرضاء لممدوح دفعته إلى جريرتين لم يقترفهما جاهلى قبله إلا نادراً وعن غير قصد أولاهما المبالغة فى النعوت التى يضفيها على الممدوح وأفعاله . وتصويره بصورة تسمو عن البشرية . أو التهويل فى قوته وعظمته ، حتى يرضى وينبسط كفه بالندى ، ويتفتح قلبه بالأريحية . من مثل قوله :

تقد السلوقىّ المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الحباحب

وقوله : بأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقوله : كأنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقوله : ولا أرى فاعلا فى الناس يشبهه ولا أحاشى من الأقوام من أحد

وقوله : لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم من الجود والأحلام غير عوازب

والجريرة الثانية . تذلُّله وخشوعه ، وانهياره ، فنسى أنفته وعروبته . مهما كان وخز الضمير قوياً ، والمحافظة على السمعة والمجد الذى بناه تملأ جوانح صدره ، فإنه كان يستطيع أن يعتذر فى رفق وكرامة ، وألا يصف نفسه بالعبودية كقوله :

فإن أكُ مظلوماً فعبدٌ ظلمتَه وإن تك ذا عتبى فمثلك يُعتِبُ

وقوله : أتوعد عبداً لم يخنك أمانة ويترك عبد ظالم وهو راتع

حقاً إن النابغة حاول أن يظهر بادى الأمر بمظهر الأبى ذى الأنفة ، ولكنه لم يثبت على حاله تلك ، وأخذ يستخدم كل وسائل الاعتذار ، ومن ذلك إظهار الذلة . هذا والرغبة فى الكسب دفعته إلى أن يجود فى شعره ، ويفتن فى معانيه ، ولم يعد فى كثير من الأحيان ذلك البدوى المرتجل الذى ينطق بما يجيش به صدره ، وإنما يدير الصورة فى عقله ، ويهذبها وينميها ، ثم ينطق بها : وقد مرَّ بنا فى الوصف أمثلة من هذا . وهنا كذلك يفترق النابغة عن شعراء الجاهلية . إذ لم يكن همه تجويد الصورة فحسب ، ولكن تجويد اللفظ ، والأسلوب ، والموسيقى ، ولهذا جاء شعره رائعاً حقاً له صلصلة فى الأذن ، وتجاوب موسيقى ساحر يحببه إلى القلوب . ومن هنا تدرك السر فى قلة قصائد المديح التى قالها النابغة فى النعمان وغيره ؛ لأنه كان يتأنى فيها ، ويتعمل فى إخراجها شأن الفنان المحترف . ومع هذا لم يسلم شعره من هَنات معروفة ، ولكنها نادرة .

ولقد مرت بنا أمثلة على طريقته فى المدح ، سواء كان مدحاً بحتاً كما فى قصيدته التى أثنى بها على الغساسنة ومطلعها[1] .

كلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب

(١) راجع ص ١٤١ من هذا الكتاب .

أو شكراً على يد كريمة كما فعل مع ابن الُجلاح [١] ، أو مشوباً بالاعتذا كمديحه للنعمان بن المنذر ، ولقد عيب عليه إظهاره الجزع على الممدوح أحياناً ، وفى ذلك ما فيه من التطير والتشاؤم ، من مثل قوله يمدح النعمان بن الحارث الغسانى :

إن يرجعِ النعمان نفرحْ ونبتهج ... ويأتِ مَعَداً مُلكُها وربيعها

ويرجعْ إلى غسان ملكٌ وسؤدَدٌ ... وتلك المنى لو أننا نستطيعها

وإن يهلكِ النعمانُ تُعْرَ مطيةٌ ... ويُلقَ إلى جنبِ الفِناء قطوعُها [٢]

وتَنْحطْ حَصَانٌ آخر الليل نَحْطةً ... تقَضقضُ منها أو تكاد ضلوعها [٣]

على إثر خيرِ الناسِ إن كان هالكا ... وإن كان فى جنب الفتاة ضجيعُها [٤]

ومن ذلك قوله :

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ... ربيع الناس والشهرُ الحرام

وذلك أسلوب فى المديح تنفر منه أذواقنا اليوم ، ولعله كان مقبولا حينذاك ، ومما يلاحظ أن أعظم صفات الممدوح قيمة فى نظر النابغة هى أنه وهوب للمال ، كريم معطاء ، وقلما خلت قصيدة مدح فى النعمان بن المنذر من ذكر عطائه وجوده ، أما الغساسنة فيذكر شجاعتهم ، ودينهم ، وألوان الترف لديهم ، وكريم حسبهم ، ولعل المعارك التى كانت بين الغساسنة وبين قومه ، وعفو الغساسنة عن أسراهم مع فلجهم فى ميدان الوغى ما جعل النابغة يشيد بحروبهم وظفرهم ، وقوة شكيمتهم ، وشجاعتهم ،

---

(١) راجع ص ١٢٦

(٢) القطوع : ج قطع وهو البساط أو النمرقة أو الطنفسة يضعها الراكب تحته وتغطى كتفى البعير . يريد أنه إذا هلك النعمان ترك كل وافد الرحلة ، ولم يستعمل مطيته ورمى برحلها وفراشها فى جانب الفناء ، إذ مات الجود بعده .

(٣) تنحط : تزفر حزنا ، والحصان : المرأة العفيفة . إذا تذكرت معروفه بكت حزنا ، وذكر آخر الليل لأنه وقت الغارات وكان النعمان يدافع عنهم .

(٤) تبكى على النعمان وتذكر معروفه وأياديه ولو كان زوجها بجانبها ولا تحتشم .

وإن لم ينس جودهم وأريحيتهم كما قال فى عمرو بن الحارث :

تحين بكفيه المنـــايا وتارة   تسحان سحا من عطاء ونائل

الرثاء :

والرثاء قليل فى شعر النابغة ، والنابغة لا يبكى الميت ، وإنما يبكى الضرر الذى يصيبه ويصيب غيره لفقده ، وهو يعدد مآثره من شجاعة وجود ، ولكنه يتجنب الحكم المتبذلة ، والأسى المصطنع ، وأحياناً يبالغ مبالغة تنافى الطبع الجاهلى ، كقوله يرثى حصن بن حذيفة الفزارى سيد قومه حين بلغه منعاه ، وكان لحصن شأن عظيم فى حرب داحس والغبراء ، وفى حروب ذبيان مع الغساسنة :

يقولون: حصنٌ! ثم تأبى نفوسهم   وكيف بحصنٍ والجبالُ جنوحُ!

ولم تلفظ الموتى القبورُ، ولم تزُل   نجوم السماء ، والأديمُ صحيح

فعما قليـــل ثم جاش نَعيُّه   فبات ندى القوم وهو ينوح

يقولون : حصن قد مات ، وتأبى نفوسهم تصديق ذلك ، لعظم الخطب وفداحته ، وكيف يصدقون موته ولا يزالون يرون الجبال مطلة عليهم من عل ، ولم تندك دكا . وتخر هدّا ، ولم تلفظ القبور الموتى ، لأن موت حصن هو يوم الحشر ، ونهاية الدنيا ، ولم تتهاو نجومُ السماء عن مواضعها ، بل لم تسقط السماء كسفا ، فيختل نظام العالم وتقوم الساعة ؛ وأديم الأرض لا يزال صحيحاً فلم يعد هباء منبثاً ؛ حزناً وإشفاقا لموت حصن . وهذه كلها مبالغات تدل على عظم مكانة حصن فى قومه ، وأنهم جزعوا لموته جزعاً شديداً ، وهم أشد الناس حاجة إليه فى حروبهم الطاحنة .

ومن الأمثلة التى تتجلى فيها خصائص رثائه قصيدته التى يرثى بها النعمان بن الحارث الغسانى والتى مطلعها :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل   وكيف تصابى المرء والشيب شامل

وفيها يقول :

فلا يَهنِئ الأعداءَ مصرعُ مَلْكِهِم ... وما عَتَقَتْ منه تميمٌ ووائلُ(١)

وكانت لهم ربعيةٌ يحذرونها ... إذا خضْخضَتْ ماءَ السماء القبائلُ(٢)

يسير بها النعمان تغلى قُدوره ... تجيش بأسباب المنايا المراجلُ(٣)

يقول رجالٌ ينكرون خليقتى ... لعل زياداً — لا أبا لك — غافل(٤)

أبى غفلتى أنى إذا ما ذكرته ... تحرك داء فى فؤادى داخلُ(٥)

وإن تلادى إن ذكرتُ وشكَّتى ... ومهرى وما ضمت لدىَّ الأنامل(٦)

حباؤك والعيسُ العتاق كأنها ... هجان المها تُحدى عليها الرحائل

فإن تك قد ودَّعت غير مذمم ... أواسِىَ مُلكٍ ثبَّتتْها الأوائل(٧)

فلا تَبْعَدَن إن المنيةَ موعد ... وكل امرىء يوماً به الحال زائل(٨)

فما كان بين الخير لو جاء سالما ... أبو حُجُر إلا ليالٍ قلائل

فإن تحى لا أملَلْ حياتى وإن تمت ... فما فى حياةٍ بعد موتك طائل

فآب مُصلُّوه بعين جلية ... وغودرَ بالجولان حزم ونائل(٩)

---

(١) يقال : أعتق العبد فعتق بفتح العين ، ومعناها نجا ، و (ما) فى (ما عتقت) مصدرية معطوفة على مصرع أى لا يهنىء الأعداء موت النعمان ونجاتهم منه .

(٢) ربعية : غزوة فى الربيع . وكان معظم الغزو فى أيام الشتاء لتوفر الماء فكان يغزو فى أوقات لا ينتظر فيها الغزو ، وخضخضت : حركت الماء باستقائها منه بالدلاء .

(٣) غليان القدر . استعار الحرب وشدة ما ينال العدو

(٤) غافل عن رثائه ، ويروى عاقل أى قد ثاب إلى رشده

(٥) تقدير البيت : أبى غفلتى التذكر ، فإن وما بعدها فاعل

(٦) سبق شرح هذا البيت والذى بعده .

(٧) الأواسى : ج آسية وهى الدعامة .

(٨) لا تبعدن : دعاء استعمل فى غير موضعه ، لأنه لا يقال : لا تهلك لمن هلك ، وإنما فعلوا هذا استراحة لئلا يحققوا الموت .

(٩) مصلوه : أى الذين جاءوا بعد من نعاه أولا ، أو الرهبان الذين صلوا عليه ، ويروى مضلوه أى الذين دفنوه وهو أحسن . بعين جلية : أى شاهدوا دفنه وتثبتوا من موته ، والجولان من مدن الغساسنة على حدود البادية .

سقى الغيثُ قبرا بين بُصرى وجاسم ... بغيث من الوَسْميّ قطر ووابل[١]
ولا زال ريحان ومسك وعنبر ... على منتهاهُ ديمــة ثُم هاطل

وفى هذا الرثاء سذاجة الفطرة ، فإن النابغة كان يترقب سلامته ليصيبه الخير ، وما كان بين هذا الخير لو جاء سالماً وبين النابغة إلا ليال قلائل ، فواحسرتاه على هذا الخير ؟ ، وفيه إظهار الجزع حين يقول : إن حييتَ لا أمل الحياة لما أناله من الخير على يديك ، وإن مت فما فى الحياة نفع بعدك ، وفيه ثناء على شجاعته ، وعلى كرمه ، ودعاء له بالرحمة ، وتقدير لمنزلته بين الناس ، ويختم القصيدة بقوله :

بكى الحارثَ الجولانُ من فقد ربه ... وحَوْرانُ منه موحش متضائل
قعوداً له غسانُ يرجون أوبَه ... وتُرك ورهطُ الأعجَمِيْن وكابُلُ

وحسبنا هذه القصيدة نموذجاً على طريقته فى الرثاء .

— ٤ —

النسيب :

ذكرنا آنفاً أن النابغة كان صاحب جد ، شُغل بأمور جليلة الخطر فى حياته[٢] ، ولذلك قل فى شعره الحديث عن النساء ، إلا ما أتى فى أوائل القصائد من نسيب ، والنسيب خطوة طبيعية فى بناء القصيدة كما مر بنا[٣] ، وهو ذكريات الماضى الحبيبة ، والتحدث عن أويقات الأنس والسمر واللهو البرىء ، تهيجه رؤية الأثافى ، والدمن ، والأطلال الدارسة بعد أن رحل الأحبة عنها . وقد امتاز النابغة فى نسيبه بالرقة ،

---

(١) الوسمى : أول المطر لأنه يسم الأرض بالنبات .
(٢) راجع ص ١١١ من هذا الكتاب .
(٣) انظر ص ٥٢ من هذا الكتاب .

والتشبيهات المستملحة ، وهاك مثلا من قصيدته التي تعد أول مجمهرات العرب ومطلعها :

عوجوا فحيوا لنعم دِمنة الدار ... ما ذا تحيون من نُؤْى وأحجار(١)

وفيها يقول :

وقد أرانى ونُعْماً لاهِيَيْن معاً ... والدهر والعيشُ لم يَهمُمْ بإمرار
أيامَ تخبرنى نُعْمٌ وأخبرها ... ما أكتمُ الناسَ من باد وأسرار
لولا حبائل من نعم علقتُ بها ... لأقصر القلب عنها أيَّ إقصار
فإن أفاق لقد طالت عمايته ... والمرءُ يُخلَقُ طوراً بعد أطوار
تبيت نعمٌ على الهجران عاتبةً ... سَقْياً ورَعياً لذاك العاتب الزارى(٢)
رأيت نعما وأصحابى على عجل ... والعِيسُ للبين قد شُدَّت بأكوار
فريعَ قلبى وكانت نظرةٌ عرضت ... حيناً وتوفيق أقدار لأقدار
بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها ... لم تؤذ أهلا ولم تَفْحُشْ على جار
أقول والنجم قد مالت أواخره ... إلى المغيب تبينْ نظرة حار(٣)
ألمحةً من سَنا برق رأى بصرى ... أم وجهُ نعم بدا لى أم سنا نار ؟
بل وجه نعم بدا والليل معتكر ... فلاح من بين أثواب وأستار
إن الحمول التى راحت مُهَجِّرة ... يتْبعْن أمر سفيه الرأى مِغيار(٤)
نواعمٌ مثل بيضات بمَحْنية ... يحفهن ظليم فى نقاً هار(٥)
إذا تغنى الحمام الوُرْق ذكرنى ... ولو تغربتِ عنا أمَّ عمار

وقد أبدع أيما إبداع فى استفهامه عما رأى من الضياء ، والليل أوشك أن ينصرم وقد أخذ القوم يهمون بالرحيل فى أخريات الليل ، وخرجت معهم نعم فلاح وجهها الجميل فتساءل : أهو سنا برق ؟ ، أم وجه نعم ؟ أم سنا نار ؟ ثم أكد أنه وجه نعم

(١) الدمنة : آثار الدار ، والنؤى : الحفير حول الخباء يمنع السيل .
(٢) زرى عليه : عابه وعاتبه زريا وزراية كأزرى .
(٣) حار : مرخم حارث (٤) الحمول : الإبل ، ومغيار : شديد الغيرة .
(٥) الظليم : ذكر النعام ، النقا : الرمل ، وهار : منهار .

هو الذى يضئ ويبدد سدفة الليل ، وقد لاح من بين أثواب وأستار ، فلمع كما يلمع البرق فى صفحة السماء . وهذا معنى ليس فيه عمق ، وإنما أضفى الأسلوب عليه هذه الطلاوة .

كما أن قوله : إذا تغنى الحمام الورق ذكرنى . . . البيت ، فيه رقة ، ودماثة الحضر ، وقوله : لم تؤذ أهلا ولم تفحش على جار ، ثناء على طيب خلقها ، وهذا نادر فى النسيب الجاهلى ، وإن كان النابغة أتى به سلبياً ، وكان الأولى أن يكون إيجابيا ، ولكن الشعر الجاهلى لم يعرف من المرأة إلا جسمها ومحاسنها الخَلْقية ، وندر أن يلتفت إلى كمالها المعنوى .

— ٥ —

فن النابغة :

١ — أهم ما يسترعى انتباه المتأمل فى شعر النابغة روعة موسيقاه ، فهو ينتقى الألفاظ ، ويؤلف بينها تأليفاً بديعاً ، ويراعى مخارج حروفها ، ولا ندعى أن النابغة كان يعكف على شعره طويلا كما كان يعكف زهير ، ينفى منه الغث ، ويلائم بين كلماته ، ويستمع إلى رنينه فى الأذن حولا كاملا ، ولكن مما ريب فيه أن النابغة لم يكن من مدرسة المرتجلين ، بل مدرسة المجودين فى الشعر ، الذين يتأنون فى إخراجه أضف إلى ذلك موهبة فذة مكنته من ذلك النظم الموسيقى البالغ الانسجام ، الشديد الأسر المتمكن القافية ، ولقد مرت بنا نماذج كثيرة من شعره ، كلها يأخذ بمجامع القلوب ، ويسحر الآذان قبل العقول ، استمع إلى قوله :

قوافى كالسِّلام إذا استمرت فليس يرد مذهبها التظنى

فكيف ترى هذه السينات تتردد فى البيت كما تتردد النغمة البديعة فى القطعة الموسيقية أو قوله :

كأنك من جمال بنى أقيشٍ يُقَعقَع خلف رجليه بِشَنّ

فهذه الشين فى الشطر الأول ونظيرتها فى الشطر الثانى ، وهذه المتانة فى النسج أعطت البيت روعة وجزالة . والتآلف بين الكلمات ، وعدم تنافرها فى المخرج من أول شروط الفصاحة ، فكيف إذا كان بينها انسجام تام ؟ ، وهذه ظاهرة ترى واضحة فى كل شعر النابغة ، وليست بنت التعمل البحت ، ولكنها السليقة والموهبة ، والتمكن الطبيعى من زمام اللغة ، وقدرة الفطرة . استمع إليه كذلك فى قوله :

وهم زحفوا لغسان بزحف رحيب السَّرْب أرعن مرجحن

فانظر الحاء كيف تتكرر ، وتأتى معها بعض حروف الحلق ، والسين كيف تأتى فى الشطرين ، وانظر اختيار الكلمات وشدة وقعها فى الأذن ، وصلصلة جرسها .

وهو يختار الكلمات القوية المعنى القوى ، والألفاظ الرقيقة للمعنى الرقيق ، ويؤلف بين المعنى واللفظ تأليفاً يحار فيه المتأمل ، حتى ليظن أن النابغة كان يتعمد ذلك تعمداً ولكن المتعمد المتكلف قلما يسلم له القليل ، فضلا عن الكثير ، ومهما أوتى من مقدرة فإن أثر التكلف يبدو على فنه . وينم عليه شعره ، استمع إليه فى قوله :

وقلت : يا قوم إن الليث منقبض على براثنه للوثبــــة الضارى

لا أعرفن ربرباً حوراً مدامعها كأن أبكارها نعاج دُوّار

فالثاء والضاد فى البيت الأول ، والراء والدال فى البيت الثانى دليل تلك الظاهرة الموسيقية ؛ ثم اختيار الألفاظ القوية فى البيت الأول ، والكلمات الرقيقة فى البيت الثانى دليل تلك الموهبة الشعرية . وندر أن تجد بيتاً خلا من هذا الانسجام ، والتأليف بين اللفظ والمعنى ، استمع إليه كذلك حيث يقول :

ظلت أقاطيع أنعــــام مؤبَّلة لدى صليب على الزوراء منصوب

فإذ وقيتِ بحمد الله شرَّتها فأنجى فزارَ إلى الأطواد فاللوب

فكيف ترى هذه اللام المشددة ، واللام المفردة تتردد فى البيتين ؟ ، وكيف تحس بالصاد المتكررة فى البيت الأول ، والتاء والطاء فى البيت الثانى ؟ ، وما عليك إلا أن تأخذ أى قصيدة ، بل أى بيت للنابغة ، وستجد هذه الموسيقى الحلوة التى تأسر القلوب

وستجد لشعره روعة وجلجلة وقوة نسج ، حتى ليسهل على من يدرس شعر النابغة دراسة متقنة أن يميز بين الصحيح والمدسوس عليه بكل يسر .

إن اختيار الألفاظ ذات الحروف المتشابهة المخرج بمثابة الألوان والأصباغ فى الصورة الفنية التى يبدعها مصور مقتدر عبقرى ، أو النغمة فى القطعة الموسيقية التى يؤلفها فنان موهوب ، والنابغة شاعر فذ فى شاعريته ، ينظم الشعر الرائع ولكنه شعر الفطرة التى لم تفسدها الحضارة والتكلف . استمع إليه يقول :

تقد السلوقىّ المضاعفَ نسجُه ... وتوقد بالصفّاح نار الحُباحب

بضرب يزيل الهام عن سَكِناته ... وطعن كإيزاغ المخاض الضوارب

ألا تشعر بذلك الانسجام الموسيقى الأخاذ ، الذى زاده فتنة أنه طبيعى لا تكلف فيه ؟ . وماذا عساى أن أضرب من الأمثلة ، وكل شعره على هذا النمط العلوى ، مصقول من جميع نواحيه ، وكأنما عناه النابغة بقوله :

أو دميـة من مرمر مرفوعة ... بنيت بآجر تشـاد بقرمد

وجمال الشعر فى أن يهيج الشعور والعاطفة ، لا أن يخاطب العقل والمنطق . وليس أبلغ من الموسيقى فى إثارة الشعور وقد بلغ النابغة فى ذلك الذروة .

٢ — أما بيان الصورة وجلاؤها ، فقد سلك النابغة فيها طرقا شتى ، فأحياناً يعمد إلى استخلاص الصورة مما يحيط بها ، ويبعد عنها كل شائبة ، ويخرجها إخراجاً جديداً من غير أن يلجأ إلى الإستعارة أو التشبيه أو المجاز ، وإنما يصور الواقع كما هو ، ولهذا النوع من الصور جماله ، ويدل على مقدرة قوية ؛ لأنه لا يستعين فى التوضيح والبيان بغير إبراز الحقيقة قوية ناصعة وذلك كقوله مثلا يصف فرسان بنى أسد :

يهزون أرماحاً طوالا متونهُـا ... بأيد طوالٍ عاريات الأشاجع

أو قوله يصف أثر معركة ، وكيف نكل قومه بالأعداء :

كم غادرت خيلُنا منكم بمعترك ... للخامِعات أَكُفاً بعد أَقدام (١)
يا رب ذات خليل قد فجعن به ... وموتمين وكانوا غير أيتام (٢)
والخيلُ تعلم أنّا في تجاولنا ... عند الطعان أولو بؤسى وإنعام (٣)
ولّوا وكبشهم يكبو لجبهته ... عند الكماةِ صريعاً جوفه دام (٤)

فهنا يصف ما نكب به هؤلاء القوم ، فقد تركوهم فى ميدان القتال صرعى : تركوا للضباع الأكف بعد الأقدام ، والنساء أرامل ، والأطفال يتامى ، وأصابوا من شاءوا وفكوا من أرادوا ، وأما سيد القوم فقد تركه قومه ، وهو منكب على جبهته بين يدى الكماة صريعا وقد بقر جوفه وانشخب منه الدم ، فهى صورة واقعية لم يستخدم فيها أى نوع من أنواع الخيال ، ولكن جردها من كل عنصر غير أساسى ، وأبرزها واضحة جلية بليغة الحديث :

ومن ذلك قوله يصف حية :

صِل صَفا لا تنطوى من القصر ... طويلةُ الإطراق من غير خَفَر (٥)
داهيةٌ قد صَغُرت من الكبر ... كأنما قد ذهبت بها الفكر
مهروتةُ الشِّدْقين حولاء النَّظر ... تفترّ عن عوج حداد كالإبر (٦)

وإذا تجاوزنا عن تشبيه أنيابها بالإبر فإننا نراه يصف الحية كما هى ، ويصور الحقيقة المجردة من غير أن يستعين بأى ضرب من ضروب الخيال ، ولكنه أعطى صورة كاملة واضحة القسمات والمعالم لهذه الحية الصفراء الدقيقة ؛ فهى قصيرة لا تنطوى ، طويلة الإطراق ، لا عن خفر وحياء ، بل عن خبث ودهاء ، قد ضؤل جسمها لكبر سنها ، وكأنما الأفكار انتابتها فأسقمتها ، واسعة الشدقين حولاء النظر ، لها أسنان عوج حداد

(١) الخامعات : الضباع (٢) موتمين : ميتمين (٣) بؤسى : أى نؤذى من نشاء ونبئسه وإنعام : ننعم على من نريد ونفك أسره (٤) كبش القوم : سيدهم ، والكماة : جمع كمى وهو الفارس المدجج بالسلاح (٥) الصل : الحية الدقيقة الصفراء ، والصفا : ج صفاة وهى الحجر .
(٦) مهروتة الشدقين : واسعة الشدقين .

والأمثلة على هذا النوع من الصور التى عمد فيها النابغة إلى الحقيقة دون سواها كثيرة فى شعره ، وفيما سقناه من شعره آنفاً نماذج عدة يمكن الرجوع إليها .

وأحياناً يبرز النابغة الصورة ، ويوضحها بالتشبيه ، وبلاغة التشبيه ، فى أنه ينقل الذهن من شىء إلى آخر طريف يشبهه ، أو صورة بارعة تمثله ، وكلما كان هذا الانتقال بعيداً قليل الخطور بالبال . أو ممتزجاً بقليل أو كثير من الخيال ، كان التشبيه أروع للنفس ، وادعى إلى إعجابها واعتزازها . وقد أفضنا فى الحديث عن التشبيه عند الكلام على الوصف فى شعر النابغة ، وضربنا لذلك أمثلة عدة ، وذكرنا الطرق التى لجأ إليها فى تبيان الصورة وتوضيحها عن طريق التشبيه فلا داعى لتكرار ذلك .

والتشبيه أوسع ضروب البيان استعمالا فى شعر النابغة ، وهو بارع فيه براعة الفنان المقتدر ، استمع إليه وهو يصف الفرسان وقد تغيرت رائحتهم من كثرة ما يحملون من السلاح ، وبشعت مناظرهم حتى كأنهم من الجن :

سَهِكين من صدأ الحديد كأنهم تحت السَّنوّر جِنّة البقار

وتأمل هذا الحلى الذى يخطف الأبصار سناؤه على ترائب الحسناء ، كيف يتقد ويزداد وهجا كأنه الجمر المنثور فى الظلماء ، حيث يظهر توقده ويشتد بريقه :

ترائب يستضىء الحَلْىُ فيها كجمر النار بُذِّر فى الظلام

وهو أحسن عندى من بيت امرىء القيس فى هذا المعنى :

كأن على لَبّاتها جمرَ مصطلٍ أصاب غضاً جزلاً وكُفَّ بأجزال[1]

وشتان بين البيتين ، فقد بالغ امرؤ القيس حتى لتحسب المرأة تحترق ؛ إذ جعل على لباتها جمراً ، ولم يكتف بهذا بل جعله جمر مصطلٍ يذكيه ، ويزيده اشتعالا ، ثم جعله من شجر الغضا ، وهو أحسن الشجر وقوداً ، وأدومه ناراً ، وجعل الغضا جزلا له كفاف من أصول الشجر . أما النابغة فقد أبرز سنا الحلى وضوءه ، ووضح هذا بأن شبهه

---

(١) كف : جعل له كفافاً من أصول الشجر وهى الأجزال حتى تزيد فى توقده

بجمر النار نثر فى الظلام ليظهر وهجه وسناؤه ، دون أن يبالغ تلك المبالغة التى ينفر منها الذوق .

ولا أريد أن أردد الحديث عن التشبيه فى شعر النابغة ، فحسبى ما ذكرت فى باب الوصف ، وإن كان بعض النقاد يحاول التفرقة بين الوصف والتشبيه ، فيجعل الوصف إخباراً عن الحقيقة ، والتشبيه مجازاً وتمثيلا[١] ، ولكنى لا أذهب مذهبه هذا ، فالوصف تصوير بطرق شتى ، منها إبراز الحقائق العارية عن الخيال ، ومنها الالتجاء إلى المجاز من تشبيه واستعارة وكناية :

وإذا كان التشبيه مركباً ذلولا برع فيه كثير من الشعراء ، فإن الاستعارة ليست مثله يسراً وتأتياً ، ولا سيما فى العصر الجاهلى فليس يخفى أن العربى الذى يجىء بالاستعارة المتمكنة إنما كان ينظر فيها أو يديرها إدارة بحيث لا تتفق اتفاقاً ، ولا تجىء عفواً إلا فى النادر ؛ ولذلك قل الجيد منها فى كلامهم حتى نزل القرآن ، فتكون من هذه الجهة اختراعاً يدل على قوة غير قوة الفطرة[٢] ، ولقد زعم ابن وكيع[٣] أن أول استعارة وقعت فى الكلام قول امرئ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله   على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف أعجازاً وناء بكلكل

مما يدل على أنها نادرة فى شعر الجاهليين ، وأن امرأ القيس هو الذى شق هذه الصدفة ، ثم جرى فى ذلك الشعراء على أثره .

والاستعارة مبنية على تناسى التشبيه ، فهى من هذه الجهة أبلغ فى الخيال ، وأقوى فى التصوير ، وإذا كان امرؤ القيس هو مبتكر الاستعارات ، وكانت استعاراته محدودة فإن النابغة قد برع فى هذا النوع ، على الرغم من أن النقاد لم يفطنوا إلى استعاراته الجميلة

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ج ٣ ص ١٢٤   (٢) نفس المصدر ص ٢١١
(٣) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٨٦

المتمكنة، وخصوا بعنايتهم امرأ القيس، وسأذكر فيما يلي بعض استعاراته على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، فمن ذلك قوله :

فهم يتساقون المنية بينهم بأيديهم بيضٌ رقاق المضارب

وقوله : ونمسك بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سَنام

وقوله فى وصف المتجردة :

فى إثر غانية رمتك بسهمها فأصاب قلبك غير أن لم تقصد

وقوله يمدح :

تحين بكفيه المنايا وتارة تسحان سحاً من عطاء ونائل

وقوله فى وصف الليل :

تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجوم بآيب

وكلها استعارات قوية متمكنة، تدل على فطنة الشاعر، وحدة فؤاده، وأن له من قوة الفطرة ما يقوم مقام الصنعة، وإذا كان المولدون قد برعوا فى الاستعارة، وأتوا فيها بكل عجيب، فحسب هذا الشاعر الجاهلى أن تسلم له بعض تلك الاستعارات الجميلة فطرة وطبعاً، ولو سمع هذا الشاعر القرآن، وكان أموياً أو عباسياً لكان له فى هذا الباب شأن أى شأن، وكفاه فخراً أنه من رواد هذا الضرب الحسن من البيان وأنه ينطق به بوحى الفطرة، وأنه قد سلم له منه ما كان نموذجاً للشعراء من بعده .

أما كنايات النابغة فهى رقيقة دمثة وكثيرة، من مثل قوله :

رقاق النعال، طيب حُجُزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

فرقاق النعال : كناية عن رفاهيتهم، وطيب حجزاتهم : كناية عن عفتهم .

وقوله :

ليست من السود أعقاباً إذا انصرفت ولا تبيع بجنْبى نخلة البُرُما[1]

أى أنها مصونة مخدرة لا تمتهن فى الخدمة . والكناية مظهر من مظاهر البلاغة وغاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه، وصفت قريحته، والسر فى بلاغتها أنها فى صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضية وفى طيها برهانها وتضع المعانى فى

(١) البرما : ج برمة وهى قدر من حجارة .

صورة المحسّات ، وهذه خاصة الفنون ، فإن المصور إذا صور لك صورة للأمل أو اليأس بهرك ، وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحاً ملموسا .

وقد ذكر علماء البلاغة بعض أبيات للنابغة استشهدوا بها فى علم البديع كقوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلولٌ من قراع الكتائب

فإنه تأكيد للمدح بما يشبه الذم ، وقوله :

تقد السلوقىّ المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الحباحب

فإنه من الغلو . . إلى غير ذلك من الأبيات التى ليس من همنا إحصاؤها فإن هذا النوع من الزخرفة إن وقع فى شعر الجاهليين فعن غير عمد ، لأنهم كانوا ينطقون عن فطرة وطبع صادق ، ولا يتكلفون الشعر تكلفا .

ولعلك أدركت من هذا الباب أن شاعرية النابغة كانت كاملة ، وأنه لم يعد فى الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية اعتباطاً ، فموسيقية الفاظه ، ومتانة أسلوبه ، وروعة تشابيهه وقوة استعاراته ، ورقة كناياته ، أحلته هذه المنزلة السامية فى موكب الشعر العربى .

— ٦ —

أولياته وهناته :

هذا وللنابغة أبيات خالدة قد حاكاها الشعراء من بعده ، وحاولوا أن يزيدوا على معانيها ، ولكنها ظلت فريدة تتحدى الزمن فمن ذلك قوله :

فلو كفى اليمين بغتك خوناً لأفردت اليمين عن الشمال

وقد أخذه المثقب العبدى فقال من نونيته :

ولو أنى تخالفنى شمالى بنصر لم تصاحبها يمينى

وقوله :

لحملتنى ذنب امرئ وتركته كذى العر يكوى غيره وهو راتع

وقد أخذه الكميت إذ يقول :

ولا أكوى الصحاح براتعات ٍ بهن العر قبلى ما كوينا

وقوله : واستبق ودك للصديق ولا تكن قتباً يَعَض بغارب ٍملحاحا

أخذه ابن ميادة فقال :

ما إن ألح على الإخوان أسالهم كما يلح بعض الغارب القَتَب

ومن ذلك قوله :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

وأحسن فيه أبو نواس إذ يقول :

ضعيفةُ كَرِّ الطرف تحسب أنها قريبة عهد بالإفاقة من سُقْم

وقوله : لو أنها عرضت لأشمط راهب عبد الآله صرورة المتعبد

لرنا لرؤيتها وحسن حديثها ولخاله رشداً ، وإن لم يرشد

أخذهما ربيعة بن مقروم وقال :

لو أنها عرضت لأشمط راهب فى رأس مَشْرفة الذرى يتبتّل

لرنا لبهجتها وحسن حديثها ولهم من ناموسه يتنزل

ومن ذلك قوله :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب

جوانح قد أيقَنّ أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب

وقد توارد عليه كثير من الشعراء فقال أبو نواس :

تتمنى الطير غزوته ثِقةً باللحم من جزره

وقال مسلم بن الوليد :

قد عوّد الطير عادات ٍ وثقنَ بها فهُنّ يتبعنه فى كل مُرْتَحَل

وقال أبو تمام :

وقد ظُلِّلَتْ أعناقُ أعلامه ضُحىً بعِقبان طير فى الدماء نواهل

أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل

وقال المتنبى :

تُفَدِّى أتمُّ الطير عمراً سلاحَه نسور الملايا أحداثها والقشاعم

وما ضرها خلْقٌ بغير مخالب وقد خلقت أسيافه والقوائم

ومن أوليات النابغة :

فإن يك عامرٌ قد قال جهلا فإن مظنة الجهل الشباب

وقوله : وأنت كالدهر مبثوثاً حبائله والدهرُ لا ملجأ منه ولا هرب

وقوله :

أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذى أخنى على لُبَد

وعلى الرغم من دقة النابغة وتجويده اللفظ والمعنى ، وسبقه إلى كثير من فرائد المعانى فقد بدرت فى شعره هنات نذكر منها : كراهة الفصل مع سماحة اللفظ فى قوله : من الضاريات بالدماء الدوارب ، كما أخذ عليه الإقواء فى قوله :

زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغراب الأسود

والقافية دالية مكسورة ، وكذلك قوله فى وصف المتجردة :

بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

والقافية ذالية مكسورة ، وكان الناس لا يجرءون على انتقاد النابغة ، فذهب إلى المدينة مرة ، وأوعزوا إلى قينة تغنى بهذه الأبيات ، ففطن النابغة إلى ما بها من إقواء فغير البيت الأول إلى قوله : وبذلك تنعاب الغراب الأسود ، والبيت الثانى إلى قوله عنم على أغصانه لم يعقد ، وبذلك سلم شعره من الهنوات . كما أخذ عليه أنه لم يحسن التشبيه فى قوله يصف الثور الوحشى بالسيف المجرد من الغمد ، وإن كان مما سبق إليه:

من وحش وَجرة موشى أكارعه طاوى المصير كسيف الصيقل الفَرِد

ولم تسمع كلمة الفرد إلا فى هذا ، وقد أحسن فيه الطرماح إذ يقول :

يبـــدو وتضمره البلاد كأنه سيفٌ على شرف البلاد يسل ويُغمد

— ٧ —

منزلتـه :

ومهما يكن من أمر فإن النابغة قد احتل مكانة أدبية عظيمة لدى شعراء الجاهلية حتى كانوا يضربون له قبة من أدَم ويحكمونه فيما بينهم فى سوق عكاظ ، وقد أنشدته الخنساء قصيدتها التى ترثى فيها أخاها صخراً :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

فقال : والله لولا أن أبا بصير (الأعشى) أنشدنى آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، فقام حسان وقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، قال: حيث تقول ماذا ؟ قال: حيث أقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى وأسيافُنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء ، وابنى محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة : أنت شاعر ولكنك أقللت جفانك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفتخر بمن ولدك[1] . يا ابن أخى إنك لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
خطاطيف حُجنٌ فى حبال متينة تمد بهـــا أيد إليك نوازع

فخنس حسان . وهذه القصة تدلنا على مكانة النابغة لدى الشعراء ، وعلى بصره الواسع بالشعر ، وعلى صفاء ديباجته ، وتجويده من كل نواحيه .

وقد روى صاحب الأغانى أن عمر بن الخطاب سأل : من أشعر الناس؟ قالوا : أنت أعلم يا أمير المؤمنين . قال من الذى يقول ؟ :

إلا سليمان إذ قال الإله له قم فى البرية فاحددها عن الفنَـد
وخبر الجن إنى قد أذنت لهم يبنون تدمُرَ بالصفّاح والعُـمد

قالوا النابغة ، قال فمن الذى يقول :

(١) قال الصولى : فانظر إلى هذا النقد الجليل الذى يدل عليه نقاء كلام النابغة ، وديباجة شعره لأنه قال وأسيافنا ، وأسياف جمع لأدنى العدد والكثير سيوف ، والجفنات لأدنى العدد والكثير جفان ، وترك الفخر بآبائه وفخر بمن ولد نساؤه . وقيل عابه كذلك فى يلمعن بالضحى ، ويقطرن ، راجع الموشح للمرزبانى وابن أبى الإصبع فى باب (الإفراط فى الصنعة) من كتاب تحرير التعبير ، والأغانى ج ١ ص ١٥٦ ط الساسى

أتيتك عارياً خلَقاً ثيـــابي   على خوف تظن بى الظنون

قالوا : النابغة ، قال فمن الذى يقول ؟ :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . . . الأبيات

قالوا : النابغة ، قال فهو أشعر العرب . وهذا تقدير عظيم من عمر العبقرى الذى كان الوحى ينزل أحياناً بما يقول . وسأل رجل ابن عباس عن أشعر الناس ، فقال : أجبه يا أبا الأسود الدؤلى ، قال الذى يقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى . . . . البيت

وقام رجل فى حضرة عبد الملك بن مروان فاعتذر من أمر وحلف عليه ، فقال له عبد الملك : ما كنت حرياً أن تفعل ولا تعتذر ، ثم أقبل على أهل الشام فقال : أيكم يروى من اعتذار النابغة إلى النعمان : حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . . البيت ؟ فلما رويت له : قال : هذا أشعر العرب[(١)]. وسئل حماد الراوية[(٢)]: بم يقدم النابغة قال : باكتفائك بالبيت الواحد من شعره ، لا بل بنصف البيت ، لا بل بربع البيت مثل قوله : حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . . البيت ، ومثل قوله :

ولست بمستبق أخاً لا تلمـــه   على شعث أى الرجال المهذب ؟

وعده ابن سلام فى طبقات الشعراء من الطبقة الأولى ، وقرنه بامرئ القيس وزهير والأعشى ، واختلف فى أيهم أشعر ، وقال : إن من يقدم النابغة يقول : هو أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتاً[(٣)] .

وقال أبو عبيدة الراوية : يقول من فضل النابغة على جميع الشعراء : « هو أوضحهم كلاماً ، وأقلهم سقطاً وحشواً ، وأجودهم مقاطع ، وأحسنهم مطالع ، ولشعره ديباجة إن شئت قلت : ليس بشعر مؤلف ، من تأنثه ولينه ، وإن شئت قلت : صخرة لو رُديت بها الجبال لأزالتها » قال : « وسمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : كان الأخطل يشبه بالنابغة »[(٤)]

هذا بعض ما قيل فى النابغة قديماً ، ولعلى أكون قد أبنت عن شاعريته ، ووفيته بعض حقه فى هذه الترجمة على ما بها من إيجاز

جمادى الأولى ١٣٧٠
فبراير ١٩٥١

(١) الأغانى ج ٩ ص ١٥٦ (٢) نفس المصدر .
(٣) طبقات الشعراء ص ١٧ (٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١٩ — ١٢٠

أهم المراجع

أولا : والمراجع العربية

الدكتور ابراهيم أنيس . . . : اللهجات اللغوية
أحمد الأسكندرى ومصطفى عنانى . : الوسيط
أحمد أمين بك . . . . . . : فجر الإسلام
أحمد صبرى . . . . . . : مجلة الأنصار
الأزرق . . . . : تاريخ مكة
ابن خلكان . . . . . . : وفيات الأعيان
ابن دريد . . . . : الاشتاق
ابن رشيق . . . . : العمدة
ابن سلام . . . . : طبقات الشعراء
ابن عبد ربه . . . . . . : العقد الفريد
ابن قتيبة . . . . : الشعر والشعراء
أبو زيد القرشى . . . . . : الجمهرة
أبو على القالى . . . . . : ذيل الأمالى
أبو الفرج الأصبهانى . . . . : الأغانى
اسرائيل ولفنسون . . . . . : تاريخ اللغات السامية
أغناطيوس جويدى . . . . : المختصر فى علم اللغة العربية الجنوبية
الألوسى . . . . : بلوغ الأرب
البغدادى . . . . : خزانة الأدب
التبريزى . . . . : شرح القصائد العشر
جادالمولى بك وعلى البجاوى وأبو الفضل ابراهيم: أيام العرب
الدكتور جواد على . . . . . : مجلة الرسالة ١٩٤٥/١٢/٩
جورجى زيدان . . . . . : تاريخ اللغة العربية، وتاريخ الآداب العربية
حافظ وهبه . . . . . . : جزيرة العرب فى القرن العشرين
سليمان البستانى . . . . . : مقدمة الإلياذة

السيوطى . . . . : المزهر
الشنقيطى . . . . : شرح المعلقات
الدكتور طه حسين باشا . . . : فى الشعر الجاهلى ، وفى الأدب الجاهلى
الدكتور على عبد الواحد وافى . . . : فقه اللغة
فؤاد أفرام البستانى . . . . . : الروائع
القلقشندى . . . . : صبح الأعشى
الأب لويس شيخو . . . . . . : شعراء النصرانية
محمد الخضر حسين . . . . . . : نقض كتاب فى الأدب الجاهلى
محمد الخضرى بك . . . . . . : تاريخ الأمم الإسلامية
محمد الغمراوى . . . . . . : النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى
محمد فخر الدين بك . . . . . . : تاريخ العرب القدامى
محمد مبروك نافع . . . . . . : تاريخ العرب — عصر ماقبل الإسلام
المرزبانى . . . . : الموشح
مصطفى الرافعى . . . . . . : تاريخ آداب العرب
الهمدانى . . . . : الإكليل ، وصفة جزيرة العرب
ياقوت الحموى . . . . . . : معجم الأدباء

ثانياً : المراجع الأجنبية

W. Ahlwardt العقد الثمين ومقدمته بالإنجليزية
Carl Brockelmann : Semitische Sprachwissenschaft
Braunschvig (Dr M arcel) : Notrs Littrature étudiée dan les textes.
H. A. R. Gibb. modern Trends in Islam.
Glaser . Zwei Inschriften uber den Dammbruch von Marib .
Derenbourg (Hartwig) : Schefer ديوان النابغة ومقدمته بالفرنسية ، ومخطوطة ساوة
Huart : Histoire des Arabes .
Rossini (Karolus) : Chrestomathia Arabica Meridionalis Epigraphica.
Renan(Ernest):HistoireGénrale et Systéme.Comparé des languesSèmitiques
Noldeke : Die Ghassanischen Furstn aus dem Hanse Gafna's
de Perceval—Caussin : Essai sur l'histoire des Arabes avant l'islamisme.
Müller : Die Burgen und Schlosser Sudarbiens .
Sedillot : Histoire Gènrale des Arabes.

الفهرس

الثمن ٢٥ ص